





شهر رجب المرجب ١٤٣٩ هـ

السنة : ٢٥ - العدد : ٤٩

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الثقافية
والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

Issn : 2538 - 1733

ملاحظات :

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضل الذين يرغبون في التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالية:

١. أن تقتزن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيل.
٢. أن لا تتجاوز المقالة ٤٠ صفحة وأن تكون مضروبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أو أن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.
٣. أن تكون المادّة المرسلة للنشر في المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.
٤. تقوم المجلة بدراسة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إليها، ولها الحقّ في صياغتها وتعديلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنى.
٥. يعتمد ترتيب البحوث والمقالات في المجلة على أسسٍ فنيّة وليس لأسباب أخرى.
٦. تعتذر المجلة عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.
٧. المقالات والبحوث التي تنشر على صفحات المجلة تمثّل وجهات نظر وآراء كتّابها.
٨. ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة.
٩. ترحب إدارة التحرير في مجلة «ميقات الحج» بملاحظات القراء الكرام ومقترحاتهم.

الفهرس :

حكم أهل الجدة في وجوب الحجّ (٢)

- ٧ تقريراً لأبحاث الشيخ محمدجواد الفاضل اللنكراني
- ٣٩ معالم الحجّ الإبراهيمي الشيخ علي الفاضل الصددي
- ٥٣ أثر الكفر (١) الأستاذ: محسن الأسدي
- ٩٥ فضائل الحرمين الشريفين (١٣) محمد علي المقدادي
- في رحاب سلسلة: «ذخائر الحرمين الشريفين» (٦)
- ١٤٥ محمدحسين الواعظ
- شخصيّات من الحرمين الشريفين (٤٠)
- ١٦٧ البراء بن عازب الأنصاري محمد سليمان
- معلومات حول نفوذ الشيعة الإمامية في المدينة...
- ٢٢٧ رسول جعفریان
- الحجّ ومكة المكرمة في كتابات المكيين (٢)
- ٢٥٧ أ. حسين محمد بافقيه / أ.د. أبوبكر أحمد باقادر
- مرويات أهل البيت عليه السلام من كتب تواريخ المدينة المنورة القديمة
- ٢٧٥ أحمد خامه يار

هَيْئَةُ التَّحْرِيرِ:

الشيخ محمد جواد الفاضل اللنكراني

الشيخ محمد القايني

الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي

الشيخ رضا المختاري

المُديرُ المسؤولُ:

السيد علي قاضي عسكر

مُديرُ التحرير:

محمد علي المقدادي



حكم أهل الحجة

في وجوب الحجّ (٢)

تقريراً للأبحاث الشيخ محمد جواد الفاضل المكنزاني

محمل القول ونتيجته:

١. عندنا دليل يقول: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا﴾، بأنّ الحج واجب عيني والاستطاعة معتبرة فيه.
٢. تقول الأخبار بأنّ الحجّ لأهل الجدة فريضة في كلّ عام.
٣. يحرم خلوّ البيت من الحجاج، ويجب على الناس زيارة البيت.

حينما ننظر إلى الآية الكريمة، وهذه الطوائف من الأخبار، يقتضي تناسب الحكم والموضوع فيها، أنه لو بادر بعض من الناس للطواف بالبيت، يتحقق إمتثال الواجب الكفائي، ولا يجب لسائر الناس طواف البيت. وحينما نقول: يحرم خلو البيت ويجب على الناس المبادرة حتى لا يخلو البيت؛ ليس معناه مبادرة كل المسلمين للطواف، بل يكفي المبادرة بمقدار لا يخلو البيت، ولا يلزم مبادرة كل الناس، وهذا كاف في إمتثال الواجب الكفائي، وعلى ذلك فلاستطاعة ليست شرطاً فيه، يعني لو جاء زمان صار البيت خالياً من الزائر - لاسمح الله - والناس غير مستطيعين للحج، فعليهم المبادرة له ولو استقراضاً.

هذا في المرحلة الأولى، ثم في المرحلة الثانية إن رأى الإمام أو الوالي خلوا البيت من الزائر والناس لم يبادروا لزيارته، فعليه إجبارهم للحج حتى لا يخلو. كل هذا مقتضى الأدلة الموجودة في البين، كما هو مقتضى الوجوب الكفائي.

ومعنى ذلك عدم مبادرة الإمام لإجبار الناس إبتداءً، لأنه إن عمل الناس بتكليفهم الشرعي فلا احتياج حينئذ إلى إجبارهم من ناحية الإمام، وأمّا إن لم يذهبوا فعلى الإمام إجبارهم.

ملخص آراء الفقهاء:

إن صاحب الوسائل قال: تحمل روايات الطائفة الأولى «وجوب الحج مرة واحدة»، على الوجوب العيني؛ وروايات الطائفة الثانية «وجوب الحج على أهل المدة في كل عام»، على الوجوب الكفائي؛ وتبعه صاحب الحدائق والسيد اليزدي، ويجب على المسلم نوعان من الحج: ١. على نحو الوجوب العيني، المشروط بالاستطاعة. ٢. على نحو الوجوب الكفائي، الذي لا تشترط فيه الاستطاعة.

ثم إن صاحب الحدائق والسيد اليزدي عليهما السلام أخذاً لكلامهما شاهداً أخبر عدم جواز تعطيل الحج؛ ثم خبر سدير الذي ليس فيه كلام عن الحج، بل الكلام فيه عن البيت فقط؛

وفي هذا الخبر قال الإمام عليه السلام: «لَوْ عَطَّلُوهُ سَنَةً وَاحِدَةً»،^١ فالكلام عن تعطيل البيت في سنة، ولم يدل على استحقاق العذاب إن لم يحجوا سنة؛ إن اعتَمروا في السنة! بل لهذا الخبر ظهور واضح على أن لا يخلو البيت من الزائر فقط.

وعلى هذا، إن لم يكن عندنا خبر سدير يصير مسار الاستدلال غير ذلك، فيدل الخبر على غضب الشارع في حالة كون البيت خالياً من الزائر سنةً. ونستفيد منه الوجوب الكفائي على الناس أن يحجوا حتى لا يخلو البيت من الزائر، فإذا لم يوجد مستطيع سنة، أو لم يكن ناذر أو مثله لأداء الحج؛ فعليهم أداء الحج على نحو الوجوب الكفائي وحينئذ يسقط الوجوب عن غيرهم.

ثم إن صاحب الجواهر رحمته الله - بعد نقل كلام صاحب الوسائل رحمته الله - خالفه وقال:

«... ومن الغريب ما في الوسائل من حمل هذه النصوص على الوجوب كفاية وإن جعله بعض الأفاضل مؤيداً له بما دل من النصوص التي فيها الصحيح وغيره على جبر الإمام الناس على الحج إذا تركوه، وإلاّ استحقوا العقاب ولم ينظروا، إذ هو مخالف لاجماع المسلمين على الظاهر أيضاً، [كما قال المحقق الحلي في المعتمد]، فلا بدّ من طرحها أو تنزيلها على ما عرفت ونحوه، ونصوص الجبر خارجة عما نحن فيه، ضرورة عدم اختصاصها بأهل الجدة كما يؤمى إليه اشتغال الصحيح منها على أنه إن لم يكن لهم مال أنفق عليهم من بيت المال، بل اشتمل أيضاً على الجبر على المقام عند البيت وعلى زيارة النبي صلى الله عليه وآله والمقام عنده، ولعلنا نقول به كما أومى إليه في الدروس، قال فيها: ويستحب للحاج وغيرهم زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة استحباباً مؤكداً، ويجبر الإمام الناس على ذلك لو تركوه، لما فيه من الجفاء المحرم كما يجبرون على الأذان، ومنع ابن إدريس ضعيف، لقوله صلى الله عليه وآله: «من أتى مكة حاجاً ولم يزرني إلى المدينة فقد جفوته

١. الكافي ٤ : ٢٧١ - ٢؛ عنه وسائل الشيعة ١١ : ٢١، ح ١٤١٤٠-٣.

يوم القيامة، ومن أتاني زائراً وجبت له شفاعتي، ومن وجبت له شفاعتي وجبت له الجنة». وفي المختلف: قال الشيخ: إذا ترك الناس الحج وجب على الإمام أن يجبرهم على ذلك، وكذلك إذا تركوا زيارة النبي صلى الله عليه وآله كان عليه إجبارهم عليها أيضاً. وقال ابن إدريس لا يجب الإجبار، لأنها غير واجبة، واحتج الشيخ بأنه يستلزم الجفاء، وهو محرم.^١ وعلى كل حال فالوجوب بهذا المعنى خارج عما نحن فيه من الوجوب كفاية على خصوص أهل المدة المستلزم لكون من يفعله من حج في السنة السابقة منهم مؤدياً لواجب ولو كان مع من لم يحج منهم، وقد صرحت النصوص بأن ما عدا المرة تطوع...^٢. وبالنتيجة لقد استفاد صاحب الجواهر رحمته الله الوجوب الكفائي من أخبار عدم الخلو وإجبار الإمام، كما أفق به الشيخ الطوسي والشهيد الأول والعلامة الحلي في المختلف.

د: ما هو الرأي المختار؟

إن ههنا ثلاثة آراء:

الرأي الأول:

ليس هاهنا شيء باسم عدم خلو البيت من الزائر حتى يكون الواجب كفائياً، بل الحكم هو وجوب الحج مرة واحدة على المستطيع فقط.

الرأي الثاني:

إن عندنا روايات يستفاد منها الوجوب الكفائي، وهذا الوجوب غير مرتبط بروايات أهل المدة كما قبله صاحب الجواهر رحمته الله، وبالنتيجة يجب علينا طريق آخر للجمع بين أخبار أهل المدة وبين أخبار وجوب الحج مرة واحدة.

١. جواهر الكلام، في شرح شرائع الإسلام ١٧ : ٢٢٢.

٢. المصدر نفسه.

الرأي الثالث:

يستفاد الوجوب الكفائي من أخبار عدم الخلو وإجبار الحاكم، وهذا الوجوب مرتبط بأخبار أهل الجدة؛ بيان ذلك: إن روايات أهل الجدة تقيّد صحيحة الفضلاء التي فيها: «إن لم يكن لهم مال»، وهذه العبارة قرينة واضحة للتقييد. وإن لم يقبله فقيه فمع قطع النظر من صحيحة الفضلاء لو وضعنا أخبار أهل الجدة عند هذا الخبر: «الله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم»، لأمكن لنا أن نقول: إن أهل الجدة لو تمكنوا يجب عليهم الحج كفائياً، وإلا فلا.

وعلى هذا الرأي الأخير، وقع جمع آخر بين كل الروايات، وهذا الجمع تام بشرط أن تكون كلمة الحج في: «إن الله فرض الحج على أهل الجدة في كل عام»، أعم من الحج والعمرة. وجملة «في كل عام» تعني: يجب على أهل الجدة، ثلثاً يخلو البيت، وليس شيء غير هذا.

والنتيجة طبقاً لهذه النظرية، أنه لا يمكن لفقيه أن يقول: من له مال يجب عليه الحج في كل سنة ولو لم يخلو البيت.

وأما ظاهر فتوى الصدوق فهو الخروج إلى الحج في كل سنة، سواء أكان البيت خالياً أم لا؟ وحينما نضع أخبار الخلو عند أخبار أهل الجدة، تقيّد أخبار الخلو بها ونقول حينئذٍ: «الله الله في بيت ربكم»، يعني أهل الجدة.

وعلى ذلك يوجد عندنا وجوب عيني، فللمستطيع أن يحج مرة واحدة طول عمره؛ ووجوب كفائي، فملاكه عدم خلو البيت عن الحاج ونحمل أخبار: «إن الله فرض الحج على أهل الجدة في كل عام» على الوجوب الكفائي.

نتيجة أخرى:

ومع قطع النظر عن الروايات لاستفاد من الآية الشريفة ﴿لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ

مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا^١ إِلَّا وَجُوبَ عَيْنِي وَاحِدٌ وَهُوَ: «مَرَّةً وَاحِدَةً طَوْلَ الْعَمْرِ». وَلَكِنْ هُنَاكَ رَوَايَتَانِ مُعْتَبَرَتَانِ تُهَيِّئَانِ تَوْسِعَتَيْنِ:

التوسعة الأولى:

إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ هُوَ الْأَعْمُ مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، لِأَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ جَمِيعًا لِأَنَّهُمَا مَفْرُوضَانِ»^٢، رُبَّمَا يَكُونُ الظُّهُورُ الْأَوَّلِيُّ لِعُمُومِ النَّاسِ أَنَّهُمْ فَهَمُّوا مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ الْحَجَّ فَقَطْ، وَالْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا أَنَّهُ هُوَ الْمَفْسِّرُ الْوَاقِعِيُّ لِلْقُرْآنِ قَالَ كِلَاهُمَا الْمُرَادُ، يَعْنِي: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ»، «لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ الْعُمْرَةُ».

التوسعة الثانية:

وَفِي خَبَرِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ الْإِمَامُ ابْتِدَاءً: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ الْحَجَّ عَلَى أَهْلِ الْجَدَّةِ فِي كُلِّ عَامٍ»، ثُمَّ قَالَ: «وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾»، فَمَعَ التَّأَمُّلُ فِي الرِّوَايَاتِ الْأُخْرَى يَبْدُو أَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي مَقَامِ التَّفْسِيرِ لِهَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ يَقُولُ: انْتَبَهُوا! إِنَّ فِي الْآيَةِ وَجُوبَيْنِ وَجُوبًا عَيْنِيًّا وَوَجُوبًا كِفَائِيًّا لِأَهْلِ الْجَدَّةِ، لَا عَيْنِيًّا فَقَطْ، وَسَائِرُ الرِّوَايَاتِ تَقُولُ: إِذَا كَانَ الْبَيْتُ خَالِيًّا.

وبالنتيجة، هذا الجمع تامٌّ ولا إشكال فيه.

نعم، بقي على هذا الجمع إشكالان:

الإشكال الأول: أَشْكَلُ صَاحِبِ الْجَوَاهِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أَخْبَارَ أَهْلِ الْجَدَّةِ تَخْتَصُّ بِأَهْلِ

الجدَّة، وَلَا تَرْتَبِطُ أَخْبَارُ الْخَلَوِّ بِهَا؟

قلنا: إِنَّ أَخْبَارَ أَهْلِ الْجَدَّةِ تَقْيِدُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ.

١. سورة آل عمران: ٩٧.

٢. الكافي (ط - الإسلامية) ٤: ٢٦٥، ح ١.

الإشكال الثاني: إن الوجوب الكفائي يخالف رواية موسى بن جعفر عليه السلام لأن الإمام استدلل بالآية، ونحن نوافق أن الوجوب العيني يستفاد منها.

قلنا:

نعم، كان الإجماع منعقداً لهذا الأمر (الوجوب العيني)، ولكن الإمام عليه السلام يقول: يستفاد وجوب آخر من الآية الشريفة (الوجوب الكفائي)، إضافة على الوجوب العيني. وعلى ذلك، فأول الجمع بين الطائفتين من الروايات هو الطريق الذي سلكه صاحب الوسائل وصاحب الحقائق والسيد اليزدي رحمهما الله، بأن نقول: «مرة واحدة» خصت بالوجوب العيني و «يجب على أهل الجدة في كل عام»، يخص بالوجوب الكفائي؛ وهذا الجمع مورد للقبول أيضاً، وللجمع طرق أخر نبهتها إن شاء الله.

٢. طريق الجمع للمحقق الخوئي:

الطريق الثاني للجمع بين الروايات هو الطريق الذي سلكه السيد الخوئي رحمهما الله حيث قال بأنه «أحسن المحامل»:

«الأولى في توجيه هذه الروايات أن يقال: إنها ناظرة إلى ما كان يصنعه أهل الجاهلية من عدم الاتيان بالحج في بعض السنين، لتداخل بعض السنين في بعض بالحساب الشمسي، فإن العرب كانت لا تحج في بعض الأعوام وكانوا يعدون الأشهر بالحساب الشمسي ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ...﴾^١ وربما لا تقع مناسك الحج في شهر ذي الحجة، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم بأن الحج يجب في كل عام وأنه لا تخلو كل سنة عن الحج. وبالجمله كانوا يؤخرون الأشهر عما رتبها الله تعالى، وربما لا يحجون في سنة

١ . سورة التوبة: ٣٧ .

وقد أوجب الله تعالى الحج لكل أحد من أهل الجدة والثروة في كل عام قمري ولا يجوز تغيره، وتأخيره عن شهر ذي الحجة. فالمنظور في الروايات أن كل سنة قمرية لها حج ولا يجوز خلوها عن الحج، لا أنه يجب الحج على كل واحد في كل سنة. ولعل هذا الوجه الذي ذكرناه أحسن من المحامل المتقدمة ولم أر من تعرض إليه.^١

وعلى ذلك، فللمحقق الخوئي ادعاءان:

(١) أخبار أهل الجدة ناظرة إلى العمل الذي ارتكبه أهل الجاهلية (وهو تداخل الأعوام لكي لا يحجوا في بعض الأعوام).

(٢) آية النسيء الشريفة: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ ترتبط بعمل الأعراب في زمان الجاهلية أيضاً، ولذا نبحت هنا عن معنى الآية حتى يتبين أنها هل ترتبط بالحج أم لا؟

الف: كلام حول: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.

لكلمة النسيء قراءات مختلفة:

١- «نسيء»، مشدداً. ٢- «نسيء»، بالهمزة. ٣- «نسي»، بدون همزة.

إن هذه الكلمة في اللغة - كما ذكره فخر الرازي - ، معنيين: ١. التأخير، «نسأت الإبل عن الحوض، إذا أخرتها»، «أنسأ الله فلاناً أجله»، يعني أخر أجله؛ والمشهور قبل هذا المعنى، و ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، يعني: التأخير زيادة في الكفر. ٢. «النسيء أصله من الزيادة، نسأ في الأجل إذا زاد فيه»؛ إذا قال المديون للدائن: زد المدّة؛ يقال: «نسأ». ^٢ وبعد ملاحظة الروايات العامة والخاصة، نجد أن أكثرها ظاهرة أولاً بأن المراد من «النسيء»، هو التأخير. وثانياً، هذا التأخير في التحريم كان للأشهر الحرم، والقرآن الكريم

١. معتمد العروة الوثقى ١ : ١٦ .

٢. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ١٦ : ٤٤ .

يدل على هذا المعنى. وكذلك جاءت في الأخبار أيضاً أن الأشهر الحرم: ذوالقعدة الحرام، ذوالحجة الحرام، محرم الحرام (تكون هذه الأشهر الثلاثة متواليات)، وشهر رجب، فرأى العرب بأن الحرب قد تركت في هذه الأشهر الثلاثة وعلى إثر ذلك برز بعض المشاكل، لأنهم يعيشون بسبب الغنائم ولم تصل إليهم!!

إن رجلاً في الجاهلية كان يحكم «بالإنساء»، ويؤخر الشهر الحرام إلى شهر صفر ويحكم بحلية الحرب في المحرم! ويقول: أحرّم الحرب في صفر وأحلّها في شهر محرم!! وهذا هو المراد من «النسيء» في القرآن الكريم.

١. معاني «النسيء» والاحتمالات فيه:

١-١. الاحتمال الأول فيه:^١

يقول العلامة الطباطبائي: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى آخر الآية يقال: نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة ونسيئاً إذا أخره تأخيراً، وقد يطلق النسيء على الشهر الذي أخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم إلى غيره وأما أنه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

والذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنه كانت لهم فيما بينهم سنة جاهلية في أمر الأشهر الحرم وهي المسماة بالنسيء، وهو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام إلى بعض الشهور غير المحرمة الذي بعده، وانهم انما كانوا يؤخرون الحرمة ولا يبطلونها برفعها من أصلها لإرادتهم بذلك أن يتحفظوا على سنة قومية ورثوها عن أسلافهم

١. إن «النسيء» هنا هو الفعل بمعنى المصدر، لا الفعل بمعنى المفعول، فإن كان بمعنى المفعول يصير المعنى هكذا: إن نفس الشهر «زيادة في الكفر»، والحال ليس كذلك، بل المعنى: إن هذا التأخير (على صورة المعنى المصدرية)، «زيادة في الكفر».

عن إبراهيم عليه السلام.

فكانوا لا يتركون أصل التحريم لغى وإنما يؤخرونه إلى غير الشهر سنة أو أزيد ليواطئوا عدة ما حرم الله، وهى الأربعة ثم يعودون ويعيدون الحرمة إلى مكانها الأول. وهذا نوع تصرف في الحكم الإلهي بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى وتقدس، ولذا عده الله سبحانه في كلامه زيادة في الكفر.

وقد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمة الأشهر الحرم النهى عن ظلم الأنفس حيث قال: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، وأظهر مصاديقه القتال كما أنه المصداق الوحيد الذي استفتوا فيه النبي صلى الله عليه وآله فحكاه الله سبحانه بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية، ...

... فالظاهر أن النسيء الذي تذكره الآية عنهم إنما هو تأخير حرمة الشهر الحرام. للتوسل بذلك إلى قتال فيه لا لتأخير الحج الذي هو عبادة دينية مختصة ببعضها. وهذا كله يؤيد ما ذكره: أن العرب كانت تحرم هذه الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فرما كان يشق عليهم أن يمشوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم الحرم، إلى صفر فيحرمونه ويستحلون الحرم فيمكثون بذلك زمناً ثم يعود التحريم إلى الحرم، ولا يفعلون ذلك أي إنساء تحريمه الحرم إلى صفر إلا في ذي الحجة. وأما ما ذكره بعضهم أن النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر إلى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتة.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، أي تأخير الحرمة التي شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها إلى شهر غير حرام زيادة في الكفر لأنه تصرف في حكم الله

المشروع وكفر بآياته بعد الكفر بالله من جهة الشرك فهو زيادة في الكفر.
وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي ضلوا فيه بإضلال غيرهم إياهم بذلك، وفي الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسيء، وقد ذكروا أن المتصدي لذلك كان بعض بني كنانة.

وقوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، في موضع التفسير للإنساء، والضمير للشهر الحرام المعلوم من سياق الكلام أي وهم يحلون الشهر الحرام الذي نسئوه بتأخير حرمة عاماً ويحرمونه عاماً، أي يحلونه عاماً بتأخير حرمة إلى غيره، ويحرمونه عاماً بإعادة حرمة إليه.

وإنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنة والاثبات أخرى ليواطئوا ويوافقوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله في حال حفظهم أصل العدد أي انهم يريدون التحفظ على حرمة الأشهر الأربعة بعددها مع التغيير في محل الحرمة ليتمكنوا مما يريدونه من الحروب والغارات مع الاستئناس بالحرمة.^١

١-٢. الاحتمال الثاني في «النسيء»:

جاء هذا الاحتمال في بعض روايات أهل السنة والسيد الطباطبائي ذكر هذا الاحتمال، وهو الرواية التي في «الدر المنثور»: وفيه أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، قال: فرض الله الحج في ذي الحجة، وكان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة والمحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان شوال وذو القعدة وذو الحجة ثم يحجون فيه. ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ورمضان شوال، ويسمون ذا القعدة شوال ثم

١. تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي ٩ : ٢٧١-٢٧٢ .

يسمون ذا الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم يحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة.^١

جاء في التاريخ أن العرب الجاهلي حينما رأى أن الشهر القمري «ذا الحجة»، يتغير مكانه في الفصول الأربعة (الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء)، وبما أن السنة القمرية أقل زمناً من السنة الشمسية بأحد عشر يوماً، لذلك وحفظاً لمصالحهم حاسبوا سنة واحدة (١٢ شهراً)، بـ ١٣ شهراً! على رأس كل ثلاث سنوات؛ ليصير السنة القمرية كالسنة الشمسية، على مدار الفصول.

كلام آخر: كان عرب الجاهلية قد غيروا وأخروا شهر ذي الحجة، فإن صادف الشهر في هذه السنة بالشتاء يسمون الشهر التالي بذى الحجة فيحجون فيه؛ وفي السنة القادمة يعملون كذلك، لأنهم يحجون في زمان لم يكن الطقس بارداً ليكون عملهم في ذلك الحين قليلاً والربح يصير كثيراً، ويسمون ذلك الشهر بذى الحجة! وعلى ذلك، أولاً: يدخلون ١١ يوماً من السنة الشمسية إلى السنوات القمرية. ثانياً: كانوا يغيرون شهر ذي الحجة إلى شهر آخر حيث شأؤوا، ويسمون ذلك الشهر بذى الحجة، وهدفهم من ذلك هو أن يحجوا مرتاحين حتى لا توجد مشكلة من جهة الحرّ والبرد.

١: التحقيق في الاحتمالات وبيان الرأي المختار:

ماهو المراد من «النسيء» في الآية الشريفة: «﴿إِنَّمَا النِّسْيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾»؟^٢

وهل ترتبط هذه الآية بمسألة الحج وروايات أهل المدة أم لا؟

هناك رأيان حول الآية الشريفة:

الرأي الأول: إن «النسيء» لا ربط له بالحج، لأن معناه هو تأخير الحكم التحريمي من شهر

١. المصدر نفسه ٩ : ٢٧٥ .

٢. سورة التوبة : ٣٧ .

إلى شهر آخر. (حرمة الحرب مثلاً من شهر محرم الحرام يتأخر إلى شهر صفر، وفي السنة القادمة يأتي شهر محرم إلى مكانه الأصلي، يعني يبادرون في تأخير الحكم). وكثير من روايات الفريقين يحكي ذلك.

الرأي الثاني:

إنَّ «النسيء» مرتبط بالحج، فإنَّ عرب الجاهلية يحجون هكذا. هنا مطلبان: المطلب الأول: إنَّ عرب الجاهلية زادوا السنة القمرية بـ ١٣ شهراً بدلاً من ١٢ شهراً وهذه الزيادة في كلِّ ثلاث سنوات صارت ١٣ شهراً، وانجرت هذه الزيادة بتداخل الأشهر كما قاله السيد الخوئي، فلم يحج الناس في بعض السنوات، كما يحجون مرتين في سنة واحدة، لأنَّ شهر ذي الحجة الحرام صار شهرين في سنة واحدة!! على أيِّ حال، فإنَّ عرب الجاهلية أضافوا إلى السنة القمرية كما يدل عليه بعض الأخبار فصارت السنة القمرية ١٣ شهراً!

المطلب الثاني: إنَّ عرب الجاهلية لم يزدوا إلى السنة القمرية شيئاً بل سمّوا شهر رجب شهر شعبان، وسمّى شهر شعبان برمضان! فبما أنهم يريدون الطقس الجيد والبارد، سمّوا شهر رجب بذي الحجة وإن كان بحسب الواقع شهر رجب! أو سمّوا شهر رمضان بذي الحجة من دون أن يزدوا شهراً.

أشكل العلامة الطباطبائي عليه السلام على هذا الرأي الثاني: أولاً: «النسيء» والتأخير ليس عمل عرب الجاهلية، بل غيَّروا التركيب الأصلي للسنة، وليس عملهم تأخيراً. وثانياً: هذا المعنى للنسيء يخالف الروايات والآثار المنقولة، والحال أنَّ الدليل لهذا الرأي الثاني رواية مجاهد ورواية عمرو بن شعيب فقط وكلتاها مضطربتان.

أقول (والكلام للسيد العلامة الطباطبائي عليه السلام):

«... ومحصله على ما فيه من التشويش والاضطراب أن العرب كانت قبل الإسلام

يحج البيت في ذي الحجة غير أنهم أرادوا أن يحجوا كل عام في شهر فكانوا يدورون بالحج الشهور شهراً بعد شهر وكل شهر وصلت إليه النوبة عامهم ذلك سموه ذا الحجة وسكتوا عن اسمه الأصلي.

ولازم ذلك أن يتألف كل سنة فيها حجة من ثلاثة عشر شهراً، وأن يتكرر اسم بعض الشهور مرتين أو أزيد كما يشعر به الرواية، ولذا ذكر الطبري أن العرب كانت تجعل السنة ثلاثة عشر شهراً، وفي رواية اثني عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً.

ولازم ذلك أيضاً أن تتغير أسماء الشهور كلها، وأن لا يواطئ اسم الشهر نفس الشهر إلا في كل اثنتي عشرة سنة مرة إن كان التأخير على نظام محفوظ، وذلك على نحو الدوران. ومثل هذا لا يقال له الانسواء والتأخير فإن أخذ السنة ثلاثة عشر شهراً وتسمية آخرها ذا الحجة تغيير لأصل التركيب لا تأخير لبعض الشهور بحسب الحقيقة. على أنه مخالف لسائر الأخبار والآثار المنقولة، ولا مأخذ لذلك إلا هذه الرواية وما ضاهاها كرواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت العرب يحلون عاماً شهراً وعاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل ستة وعشرين سنة مرة وهو النسيء الذي ذكر الله تعالى في كتابه فلما كان عام الحج الأكبر ثم حج رسول الله صلى الله عليه وآله من العام المقبل فاستقبل الناس الأهل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض». وهو في الاضطراب كخبر مجاهد.

على أن الذي ذكره من حجة أبي بكر في ذي القعدة هو الذي ورد من طرق أهل السنة أن النبي صلى الله عليه وآله جعل أبا بكر أميراً للحج عام تسع فحج بالناس، وقد ورد في بعض روايات أخر أيضاً أن الحجة عامئذ كانت في ذي القعدة.

وهذه الحجة على أي نعت فرضت كانت بأمر من النبي صلى الله عليه وآله وإمضائه، ولا يأمر بشيء ولا يمضي أمراً إلا ما أمر به ربه تعالى، وحاشا أن يأمر الله سبحانه بحجة في شهر نسيء ثم يسميها زيادة في الكفر.

فالحق أن النسيء هو ما تقدم أنهم كانوا يتخرجون من توالي شهور ثلاثة محرمة

فينسؤون حرمة الحرم إلى صفر ثم يعيدونها مكانها في العام المقبل.
وأما حجهم في كل شهر سنة أو في كل شهر سنتين أو في شهر سنة وفي شهر سنتين فلم يثبت عن مأخذ واضح يوثق به، وليس من البعيد أن تكون عرب الجاهلية مختلفين في ذلك لكونهم قبائل شتى وعشائر متفرقة وكل متبع لهوى نفسه غير أن الحج كان عبادة ذات موسم لا يتخلفون عنه لحاجتها إلى أمن لنفوسهم وحرمة لدمائهم، وما كانوا يتمكنون من ذلك لو كان أحل الشهر بعضهم وحرمه آخرون على اختلاف في شاكلة التحريم، وهو ظاهر^١.

وعلى ذلك فالحق هو نفس القول الذي قاله العلامة الطباطبائي بأن العرب يصعب عليهم عدم الحرب ثلاثة أشهر متواليات، (لأنهم كانوا قبل الإسلام أهل الحرب والغارة)، إنهم جعلوا الحرمة التي في الشهر الثالث في شهر صفر لكي يستطيعوا للحرب في شهر محرم؛ وهذا هو «النسيء» ولا معنى له غير ذلك.
وملخص القول إنه بعد الفحص والتحقيق في التاريخ والتفاسير، توجد ههنا نظريتان حول «النسيء»:

الأولى منهما:

أهل الجاهلية كانوا يقولون: إنا لانحرم شهر المحرم في هذه السنة وننقل الحرمة إلى شهر صفر، و به قال أكثر المؤرخين والمفسرين، وتدلل على هذه النظرية روايات كثيرة.
والثانية:

في صقع الواقع فإن «النسيء» يكون في الحج. والاشكالات الواردة للسيد العلامة الطباطبائي عليه السلام واردة جداً على هذه النظرية.

١. تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي ٩ : ٢٧٥ - ٢٧٧ .

ب: إرتباط آية «النسيء» مع روايات أهل الجدة

المطلب الثاني هو أنه هل ترتبط هذه الآية الشريفة بالبحث (يعني أهل الجدة) أم لا؟
 إنَّ المحقق الخوئي رحمته الله قال: «الأولى في توجيه هذه الروايات أن يقال: إنها ناظرة إلى ما كان يصنعه أهل الجاهلية من عدم الاتيان بالحج في بعض السنين، لتداخل بعض السنين في بعض بالحساب الشمسي، فإنَّ العرب كانت لا تحج في بعض الأعوام وكانوا يعدون الأشهر بالحساب الشمسي ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ...﴾^١ وربما لا تقع مناسك الحج في شهر ذي الحجة، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم بأنَّ الحج يجب في كل عام وأنه لا تخلو كل سنة عن الحج. وبالجمله كانوا يؤخرون الأشهر عما رتبها الله تعالى، فربما لا يحجون في سنة وقد أوجب الله تعالى الحج لكل أحد من أهل الجدة والثروة في كل عام قمري ولا يجوز تغييره، وتأخيره عن شهر ذي الحجة. فالمنظور في الروايات أن كل سنة قمريه لها حج ولا يجوز خلوها عن الحج، لا أنه يجب الحج على كل واحد في كل سنة. ولعل هذا الوجه الذي ذكرناه أحسن من المحامل المتقدمة ولم أر من تعرض إليه»^٢.

ويرد على هذا القول (القول للسيد الخوئي رحمته الله) أولاً:

لا ترتبط آية «النسيء» بمسألة الحج، لأنَّ زمان الأئمة المعصومين عليهم السلام متأخر عن زمن قريش، والروايات الصادرة عنهم عليهم السلام لا تشمل النسيء القريشي. ثمَّ إنَّ هذه الروايات جاءت لتفسير آية الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾، ولذلك فالإشكال غير وارد.
 وثانياً:

إنَّ المفروض في كلام المحقق الخوئي رحمته الله أنَّ أهل الجاهلية تركوا الحج في بعض السنين

١ . سورة التوبة: ٣٧ .

٢ . معتمد العروة الوثقى ١ : ١٦ .

بسبب النسيء؛ ولكن لم يبين هذا الادعاء من وجهة نظر التأريخ، بل الواقع ربما يكون عكس ذلك، لأنهم أخذوا شهراً معيناً للحج، يكون الطقس جيداً فيه فيحجون؛ وعلى ذلك لو قلنا بأنهم لم يحجوا فهذا لم يكن في كنه معنى النسيء، بل هم سمّوا المحرم باسم ذي الحجة فيحجون في شهر المحرم، فكيف يمكن القول بالملازمة بهذا المعنى وأنهم لم يحجوا في بعض السنين؟

توضيح ذلك: إن المحقق الخوئي قال: بما أن عرب الجاهلية أضافوا ١١ يوماً بالسنة القمرية، ينتج أن في كل ثلاث سنوات توجد سنة تكون أشهرها ١٣ شهراً ولازم ذلك أن يحجوا مرة واحدة قهراً. وقد كان هذا المعنى غير «النسيء»، لأنهم لم يحجوا منذ ١٢ شهراً، والرواية التي تقول: «في كل عام»، ناظرة إلى ذلك؛ وهذه النظرية منوطة بأن العرب فعلوا ذلك والحال أنهم لم يفعلوا. نعم، جاء في التأريخ أن الأعراب تعلّموا ذلك من اليهود المجاورين لهم، ولكن لم يثبت هذا المعنى كعادة للعرب.

إن الوالد المرحوم ناقش كلام المحقق الخوئي، وقال بأن الحج يجب في كل عام وأنه لا يخلو كل سنة عن الحج وبالجمله كانوا يؤخرون الأشهر عما رتبها الله تعالى فربما لا يحجون في سنة، فالمنظور في الروايات أن كل سنة قمرية لها حج ولا يجوز خلوها عن الحج، لا أنه يجب الحج على كل أحد في كل سنة. واللازم أولاً توجيه هذا الكلام بأن تركهم الحج في بعض الأعوام ليس لأجل عدّهم الأشهر بالحساب الشمسي، فإن الظاهر عدم كون هذا الحساب معروفاً عند الأعراب حتى في زماننا هذا، بل لأجل ما وقع في تفسير الآية المسبوقة بما يدل على أن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، من أن العرب كانت تحرم الشهور الأربعة وذلك مما تمسكت به من ملّة إبراهيم وإسماعيل

١. ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ...﴾، سورة التوبة : ٣٦.

وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فربما كان يشق عليهم أن يكتثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا للتجارة فلا يسعه...^١
إن قلت:

جاء في كتاب «المفصل في تاريخ العرب»، أن الأعراب أضافوا ١١ يوماً من السنة الشمسية إلى السنة القمرية ولذلك صار بعض الأعوام القمرية ١٣ شهراً.
قلت:

ليس هذا العمل ملاكاً للحج، فإنهم فعلوا ذلك في بعض الأحيان، ولكن سموا بعض الأشهر القمرية بذى الحجة لأهداف أخرى.
جاء في التاريخ أن شخصاً معيناً كان مسؤولاً «للإنساء»، وكان يجيء الناس إليه ويطلبون منه الإنساء؛ وهذه العملية مخصوصة بأشهر الحرم لا إنساء الحج.
ولذلك قال المرحوم الوالد: عدم كون هذا الحساب معروفاً عند الأعراب حتى في زماننا هذا.

وحينئذ يكون أهم الإشكال على قول المحقق الخوئي هو أن «النسيء» كان في تأريخ العرب (تبديل عنوان الشهور)، وهم رأوا أن أي شهر يكون طقسه جيداً لعملية الحج فسموا ذلك الشهر بذى الحجة، وقد يسمون بعد مضي سنتين شهراً واحداً بذى الحجة وقد يكون ذلك عند ثلاث سنوات، ولكن ليس هذا مستلزماً بأن يصير سنة قمرية ١٣ شهراً.
نعم، إن العرب كانوا متوجهين للحساب الشمسي وليس هذا ملاكاً لإنساء الحج.
وبالنتيجة، هذا الطريق الثاني لوجه الجمع ليس جيداً، بما فيه من الإشكال.

٣: الوجه الثالث للجمع للشيخ الطوسي رحمته الله:
هذا الطريق الثالث، قد سلكه المحقق الطوسي رحمته الله في الاستبصار، والمحقق الحلي رحمته الله في المعبر،

١. تفصيل الشريعة في شرح تحرير الوسيلة، الحج ١: ١٩-٢٠.

وكذلك صاحب المدارك رحمته الله، وصاحب الجواهر رحمته الله، وصاحب المستمسك رحمته الله وقال السيد الحكيم رحمته الله صاحب المستمسك بأنه أقرب الوجوه. ^١ ويحمل روايات «مرة واحدة» على الوجوب، وروايات «أهل الجدة» على الاستحباب، بأن روايات «مرة واحدة» وجوبه عيني، وروايات «أهل الجدة» تقول: إن أهل الجدة يستحب أن يحجوا كل عام؛ ولا ينتهي ذلك الاستحباب بأداء حج واحد بل الاستحباب باق طول العمر.

يقول هؤلاء الفقهاء قدس الله أسرارهم لتوجيه هذا الجمع بأن روايات «مرة واحدة» نص في الوجوب وأما روايات «أهل الجدة» لها ظهور في الوجوب، لأنه جاءت في روايات أهل الجدة كلمة «فرض» وهذه الكلمة ليس نصاً في الوجوب بل لها ظهور فيه، وأما في روايات «مرة واحدة» جاءت هذه العبارة: «كلّهم مرة واحدة» وكانت نصاً في الوجوب وعند التعارض بين النص والظهور نتصرف في روايات الظهور وتحمل على الاستحباب.

معنى كلمة «الفرض» في القرآن والروايات

قبل التحقيق حول هذا الجمع لابد وأن نبحت في معنى كلمة «فرض» وأين تستعمل هذه الكلمة؟ هل يتغير معنى «فرض» في مكان دون مكان أم لا؟ حتى يتبين معناه. ^٢
قد تستعمل كلمة الفريضة «ما فرضه الله» في مقابل كلمة السنة «ما فرضه النبي صلّى الله عليه وآله» ما شرّعه النبي صلّى الله عليه وآله وهذا نوع اصطلاح، ولذلك جاءت في روايات القرعة «القرعة سنة»؛ وليس بمعنى الاستحباب بل تكون هذه العبارة بمعنى «ما شرّعه الرسول صلّى الله عليه وآله» في مقابل «ما شرّعه الله».

بعد الرجوع إلى اللغة تبين لنا أن المعنى الحقيقي لـ «فرض»، ليس الوجوب

١. المستمسك في شرح العروة ١٠ : ٨ .

٢. نكتة: يحمل «فرض» في الروايات بالمستحب المؤكد يعني هذا العمل الاستحبابي كان مهماً عند الشارع؛ قال المحقق في المعتبر: «ومعنى فرض: قدر و بين لا بمعنى أوجب».

التكليف، بل تكون كلمة: «فرض» بمعنى «ثبت»، «بين»، «قَدَّرَ». فقد تكون كلمة: «قَدَّرَ» بعنوان الزوم تكون واجباً، وكلمة: «قَدَّرَ» بعنوان الاستحباب تكون مستحباً وعلى ذلك نبحت عن القرينة فإن توجد قرينة على الوجوب نحملها عليه. وإن توجد قرينة على الاستحباب، نحملها على الاستحباب. وتكون هذه النظرية أقرب إلى الواقع بمقداراً. ففي ما نحن فيه توجد قرينة بأن روايات: «إن الله فرض الحج على أهل الجدة»، تحمل على الاستحباب وقرينتها هي: «كلّفهم مرّة واحدة»، وهي نصّ على الوجوب ونتصرّف بها في روايات الظهور ونحملها على الاستحباب.

إشكال الوالد رحمته الله على هذا الجمع:

بقي إشكال على هذا الطريق الثالث للجمع، وهو أن في صحيحة علي بن جعفر عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إن الله فرض الحج على أهل الجدة في كل عام»، يقول الإمام عليه السلام: «وذلك قوله»: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾. فإن حمل الفرض على الاستحباب فلا معنى للاستشهاد بالآية أو التفسير.

توضيح ذلك: من المسلم أن الآية الشريفة تدل صريحاً على الوجوب وهذا واضح لاشكّ فيه، فكيف يمكن حمل هذه الجملة: «إن الله فرض» على الاستحباب والحال أن الإمام عليه السلام استشهد بالآية الشريفة؟^١

وبالنتيجة، هذا الطريق الثالث كالطريق الثاني لوجه الجمع ليس جيداً، بما فيه من الإشكال ولا نقبله.

٤. الوجه الرابع للجمع: الوجوب البدلي

الشيخ الطوسي رحمته الله سلك هذا الطريق الرابع للجمع في التهذيب^٢، واستحسنه العلامة الحلي رحمته الله

١. تفصيل الشريعة في شرح تحرير الوسيلة، الحج ١: ١٨.

٢. تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي رحمته الله ٥: ١٧ - ١٦.

في التذكرة وهو حمل روايات أهل الجدة (الطائفة الثانية) على الوجوب البدلي، يعني إن حُججت فيها وإلا فإذهب السنة القادمة، وإلا السنة الثالثة، وإلا السنة الرابعة. لأنه يمكن أن يقول شخص: إني كنت مستطيعاً ولم أحجّ فعصيت، وإثر ذلك سقط عني التكليف، (لأنّ التكليف يسقط بسبب العصيان كما يسقط بسبب الامتنال). ولا يخفى أنّ هذه الروايات جاءت لدفع هذا التوهم، فإن عصيت ولم تذهب إلى الحجّ فإذهب السنة القادمة.

وعلى ذلك، فأهل الجدة هم الذين قالت لهم الآية الشريفة: ﴿... مَنِ اسْتَطَاعَ...﴾، ولكن «في كلّ عام على سبيل البدلية»، إن وفقت هذه السنّة فيها، وإلاّ إن عصيت ولم تذهب إلى الحجّ ففي السنة القادمة وهكذا حتى تحجّ.

إشكال المحقق الخوئي رحمته الله والوالد المعظم رحمته الله على الطريق الرابع للجمع:

أشكل المحقق الخوئي رحمته الله على هذا الطريق في كتاب المعتمد طبقاً لمبناه الأصولي وقال: ... إن الوجوب البدلي بهذا المعنى مما يقتضيه طبع كلّ واجب ولا يحتاج إلى أن يبينه الإمام عليه السلام فإن الواجب يجب الإتيان به متى أمكن فإن عصى ولم يأت به في الآن الأول يجب امتثاله في الآن الثاني وهكذا والعصيان في الزمان الأول لا يوجب سقوط الوجوب ولزوم الإتيان به في الزمان الثاني.^١

وقال: ... ولا يخفى بعده لأنه خلاف ظاهر قوله عليه السلام «فرض الله الحج على أهل الجدة»، أو صريحه خصوصاً بعد استشهاده عليه السلام بالآية الكريمة. وقد جوز حملها على إرادة الوجوب على البدل بمعنى أنه يجب عليه الحج في السنة الأولى، وإذا تركه يجب عليه في الثانية وهكذا. وهذا بعيد أيضاً فإن الوجوب البدلي بهذا المعنى من طبع كلّ واجب، فإنّ

١. المعتمد في شرح المناسك ٣ : ١٢ .

الواجب يجب الإتيان به متى أمكن، ويجب تفريغ الذمة عنه، ولا يسقط الواجب بالعصيان.^١
ولا يخفى أن هذا الإشكال غير تامّ لأنه مبنيّ، ولذلك قال بعض الفقهاء والأصوليين
بأنه كما يسقط التكليف بالإمتثال يسقط بالعصيان أيضاً ويقولون: إن عصي المستطيع ولم
يحجّ ثم سقطت عنه الاستطاعة، لا يجب عليه الحج حينئذ طبقاً للقاعدة، إلا إذا وجد
الاستطاعة ثانية فيجب عليه الحج بالتكليف الجديد، فلا وجه أن نقول بأن الحج واجب
عليه.

والوالد المعظم عليه السلام أشكل أيضاً على هذا الطريق وقال: إن المراد من «كلّ عام» في
الرواية التي أشير إليها أن فرض الحج على أهل الجدة إنما يكون على سبيل القضية
الحقيقية لا القضية الخارجية بمعنى أن وجوب الحج لا يختص بزمان نزول الآية بل هو حكم
ثابت إلى يوم القيامة على المستطيع فليس المراد أن المستطيع يجب عليه الحج في كلّ عام
بل المراد ثبوت الحكم إلى يوم القيامة ويؤيد هذا الوجه بل يدل عليه التأمل في الرواية
المزبورة فإنه قد وقع فيها الاستشهاد لفرض الحج على أهل الجدة في كل عام بقوله تعالى :
﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾، مع أن مقتضى الاستشهاد الإستناد إلى ظاهر الآية وما
كان يفهمه أهل العرف منها لأنه لا معنى للاستشهاد بتفسير الآية الذي يكون على خلاف
ظاهرها ومن المعلوم عدم دلالة الآية على الوجوب في كل عام بمعناه الظاهر الذي ينسب
إلى الذهن ابتداءً، فالجمع بين التعرض لهذه الجهة وبين عدم دلالة الآية بالظهور على ذلك
يقتضي الحمل على معنى يستفاد من ظاهر الآية وهو ليس إلاّ ما ذكرنا من كون المراد به
هي القضية الحقيقية التي هي ظاهر الآية أيضاً فتدبر جيداً.^٢
الإشكال على الطريق الرابع للجمع (الوجوب البدلي): إن عصي المكلف ولم يحج فيجب

١. معتمد العروة الوثقى ١ : ١٥ .

٢ . تفصيل الشريعة في شرح تحرير الوسيلة - الحج ١ : ١٩ .

عليه الحج في السنة القادمة، والعصيان ليس مسقطاً للتكليف، بمعنى أنه إن فقد المال والاستطاعة للحج (لزم عليه بيع داره إن كان له دار)، فيجب عليه أن يحجّ. وهذا هو الإشكال الأصلي.

ولا يخفى أنه ليس فيما نحن فيه مكان للوجوب البدلي لأنّ المكلف إن استطاع في هذا العام يجب عليه الحج فإن لم يحج فقد عصى، ويجب عليه الحج في العام القابل إن بقيت الاستطاعة، وأمّا إذا لم تبق الاستطاعة فلا معنى للوجوب البدلي؛ لأنه كان ذلك الواجب على سبيل البدلية.

بيان آخر: إذا حملنا جملة: «في كلّ عام» الموجودة في الروايات «إنّ الله فرض الحجّ على أهل الجدة في كلّ عام»،^١ على الحج البدلي، وجب عليهم الحج في كلّ عام وإن لم يكونوا من أهل الجدة (يعني لم يكونوا مستطيعين!). والروايات ظاهرة في أنّ الحجّ وجب عليهم إذا كانوا مستطيعين.

توضيح ذلك: إنّ لأهل الجدة موضوعية في الروايات، لأننا نعلم أنّ الشارع طلب الحجّ من شخص مستطيع ومن أهل الجدة، ولم يطلب الحجّ بدلياً أو كفائياً. فمن قال بالحجّ البدلي هكذا يقول: إذا كان المكلف مستطيعاً ولم يحجّ، ففي السنة القادمة وجب عليه الحجّ وإن لم يكن مستطيعاً!

وعلى ذلك فإنّ لأهل الجدة عنواناً موضوعياً في الروايات، فمن أراد الجمع لا يصح له أن يقول بأنّ الحجّ ههنا صلاة أو زكاة (لأنه لم يقبله العرف). ويحفظ هذا العنوان ويتصرّف في «كلّ عام». لأنّ من قال بالحجّ البدلي لا بدّ وأن يقول: إذا كان المكلف مستطيعاً ولم يحجّ، ففي السنة القادمة وجب عليه الحجّ وإن لم يكن مستطيعاً!

أللهمّ إلاّ أن يقال: إنّ الفقهاء لم يفتوا بالحجّ الخيالي البدلي، كما لم يفت الشيخ

١. الكافي ٤ : ٢٦٥ - ٥؛ عنه وسائل الشيعة ١١ : ١٦، ح ١٤١٢٨ - ١.

الطوسي رحمته الله والعلامة الحلبي رحمته الله، بل توجد هناك فتوى مسلّمة أنه إذا كان المكلف مستطيعاً ولم يحجّ، ففي السنة القادمة وجب عليه الحجّ وإن لم يكن مستطيعاً، وهذا خلاف الفرض، فلاستطاعة إن كانت موجودة في السنة الثانية يترتب وجوب جديد، وإلاّ فالطريق الوحيد هو الوجوب البدلي.

والمُلخّص أنّ هذا الطريق (الوجوب البدلي) تحميل على الروايات، فلزم حفظ عنوان «أهل المدة»، كما يلزم حفظ عنوان «الحجّ»، وحفظ هذين العنوانين لايتلائم مع الوجوب البدلي.

قلت: هذا الإشكال من أهمّ الإشكالات على الوجوب البدلي، وأما إشكال المحقق الخوئي رحمته الله فمبنائي، لأنه يقول بأنّ العصيان غير مسقط للتكليف، وكثير من الفقهاء قائلون بأنه المسقط.

وأما إشكال الوالد المعظم رحمته الله، فهو جيّد؛ لأنّ الجمع بين شيئين يلزم أن يكون مقبولا عند العقلاء والوجوب البدلي غير مقبول عندهم لأنه يحتاج إلى مؤونة زائدة خاصّة.^١

٥. الوجه الخامس للجمع: طريق المحقق الخوانساري رحمته الله

سلك المحقق الخوانساري رحمته الله طريقاً آخر للجمع وقال: نعم يظهر من بعض الأخبار وجوبه على أهل المدة في كل عام كخبر علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام: «إنّ الله تعالى فرض الحجّ على أهل المدة في كلّ عام وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

١. قلت: إذا كان التكليف مقيّداً بزمان، فالعصيان مسقط للتكليف. مثلاً: إن نذرت أن تصوم يوم الاثنين، فجاء ذلك اليوم ولم تصم، لم يقل فقيه بأن تصوم في الأسبوع القادم يوم الاثنين؛ لأنه سقط التكليف بالعصيان. وأما في باب الحجّ فنفس وجوب الحجّ مطلب، والمطلب الآخر وجوب الحجّ في هذه السنة. فإن قلنا إنّ الحجّ واجب «في سنة الاستطاعة»، فمن استطاع ولم يحجّ، سقط عنه الحجّ، وفي السنة القادمة فإن استطاع جديداً وجب الحجّ عليه، فإن لم يستطع فمع العصيان يسقط عنه الحجّ.

حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»، قال: قلت: من لم يحج منا فقد كفر؟ قال: لا ولكن من قال: ليس هذا هكذا فقد كفر.^١ وقد حمل على الوجوب على البدل بمعنى أن من وجب عليه الحج فلم يفعل في السنة الأولى وجب عليه في الثانية وهكذا في كل عام أو الندب أو تأكده ولا يبعد أن يكون نظير ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾،^٢ من باب تلاقي الجمع بالجمع، فلا يجب على كل أحد من أهل الجدة الحج في كل عام كما لا يجب على كل واحد غير غسل وجهه للوضوء.^٣

فالمحقق الخوانساري رحمته الله يقول بأن روايات أهل الجدة تكون من قبيل تلاقي الجمع بالجمع، فمعنى: «إن الله فرض الحج على أهل الجدة» يعنى: «على كل مستطيع في كل عام»، فلا يكون معناه أن لكل مستطيع أن يحج كل عام. وبالنتيجة يرفع إشكال التعارض بين روايات أهل الجدة و روايات «مرة واحدة».

التحقيق في كلام المحقق الخوانساري رحمته الله

والذي يخطر بالبال أن كلامه رحمته الله غير تام، لأن نتيجة تلاقي الجمع بالجمع هي وجوب الحج على المستطيعين في عام استطاعتهم، فالحج غير واجب لشخص حينما وجب الحج على شخص آخر من المستطيعين ولا يفهم من ذلك «مرة واحدة» قطعاً، وعلى قول المحقق الخوانساري رحمته الله فلو استطاع شخص عشر سنوات فيجب عليه الحج عشر مرات طبق هذا القول؛ كما أن غسل الوجه لشخص آخر في الوضوء غير مرتبط لمن يتوضأ ويغسل وجه نفسه، فالإشكال باق ولم يرفع ذلك بسبب هذا الطريق من الجمع.

٦. الوجه السادس للجمع: طريق الوالد المعظم رحمته الله، سلك الأستاذ الوالد المعظم رحمته الله طريقاً

١. الكافي ٤ : ٢٦٥ - ٥؛ عنه وسائل الشيعة ١١ : ١٦، ح ١٤١٢٨ - ١.

٢. سورة المائدة : ٦ .

٣. جامع المدارك في شرح مختصر النافع ٢ : ٢٥٥ - ٢٥٤ .

سادساً وهو: إن المراد من «كلّ عام» في الرواية التي أشير إليها أن فرض الحج على أهل الجدة إنما يكون على سبيل القضية الحقيقية لا القضية الخارجية بمعنى أن وجوب الحج لا يختص بزمان نزول الآية بل هو حكم ثابت إلى يوم القيامة على المستطيع فليس المراد أن المستطيع يجب عليه الحج في كلّ عام بل المراد ثبوت الحكم إلى يوم القيامة ويؤيد هذا الوجه بل يدل عليه التأمل في الرواية المزبورة فإنه قد وقع فيها الاستشهاد لفرض الحج على أهل الجدة في كل عام بقوله تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾، مع أن مقتضى الاستشهاد الإستناد إلى ظاهر الآية وما كان يفهمه أهل العرف منها لأنه لا معنى للاستشهاد بتفسير الآية الذي يكون على خلاف ظاهرها ومن المعلوم عدم دلالة الآية على الوجوب في كل عام بمعناه الظاهر الذي ينسب إلى الذهن ابتداءً، فالجمع بين التعرض لهذه الجهة وبين عدم دلالة الآية بالظهور على ذلك يقتضي الحمل على معنى يستفاد من ظاهر الآية وهو ليس إلا ما ذكرنا من كون المراد به هي القضية الحقيقية التي هي ظاهر الآية أيضاً فتدبر جيداً.^١

إنه ﷺ ذكر شاهدين ومؤيدين على قوله:

المؤيد الأول: إن الإمام عليّاً عليه السلام تمسك بالآية الشريفة ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾، وجعل «في كلّ عام»، تفسيراً لها، واستشهد بها بأن العرف يفهم أن هذا الحكم باق إلى يوم القيامة.

المؤيد الثاني: جاء في بعض الروايات حينما حجّ رسول الله ﷺ قال له سراقه بن مالك بن خثعم الكناني: يا رسول الله علمنا ديننا، كأنا خلقنا اليوم، فهذا الذي أمرتنا به لعامنا هذا أم لما يستقبل؟ فقال له رسول الله ﷺ: «بل هو للأبد إلى يوم القيامة. ثم شبك

١. تفصيل الشريعة في شرح تحرير الوسيلة - الحج ١ : ١٩ .

أصابه بعضها إلى بعض وقال: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة»^١.

التحقيق في الطريق السادس للجمع:

لهذا الجمع يوجد مبعّد واحد فقط وهو: إنّ الناس قد علموا في زمان الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام بأنّ الحجّ واجب إلى يوم القيامة؛ نعم ربما لم يعلم ذلك في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله ولذا سئل سراقبة بن مالك عنه صلى الله عليه وآله، ولكن لم يكن هذا التوهم في زمانهما عليهما السلام.

فإنّ أجيب عن هذا الإشكال، يمكن قبول هذا الجمع بين الطائفتين من الروايات وإلاّ فلا.

خاتمة :

قلت: قد بيّنا ستة طرق للجمع بين الطائفتين من الروايات، (وجوب الحجّ مرّة واحدة، و وجوبه لأهل الجدة في كلّ عام). وقد وردت إشكالات على الطريق الأول (الواجب الكفائي)، يمكن الدفاع عنه، وقد أيد صاحب الوسائل، وكذلك صاحب الحقائق والسيد اليزدي رحمهم الله هذا الجمع، ونحن نؤيده أيضاً.

وعلى ذلك لكلّ مستطيع وجوب عيني طول عمره، ووجوب كفائي للحج أيضاً كان ملاكه عدم خلوّ البيت من الحاجّ، وتحمل روايات: «إنّ الله فرض الحج على أهل الجدة في كلّ عام» على هذا الوجوب الكفائي.

ثمّ ينتج بأنّه لا يستفاد عن الآية الشريفة: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾^٢ إلّا وجوب عيني واحد، مع قطع النظر عن روايات: «مرّة واحدة طول العمر». ولكن مع

١. تفصيل الشريعة في شرح تحرير الوسيلة - الحج ١ : ٢١-٢٠ .

٢. سورة آل عمران، آية : ٩٧.

التوجه إلى خبرين معتبرين لابد وأن نقول بتوسعتين هنا:
التوسعة الأولى:

إنَّ الإمامَ ع قَالَ: «الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ جَمِيعاً لَأَنَّهُمَا مَفْرُوضَانِ»،^١ ولآية ظهور في الحج فقط، وقد بيّن الإمام ع لجميع الناس كمفسّر للآية الشريفة أن الحج والعمرة كليهما مفروضان.

التوسعة الثانية:

وفي خبر موسى بن جعفر ع أَنَّ الإمامَ ع قد قال ابتداءً: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ الْحَجَّ عَلَى أَهْلِ الْجَدَةِ فِي كُلِّ عَامٍ»، ثم قال: وذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾. فمع التأمل في أخبار الباب يبدو أَنَّ الإمامَ ع في مقام التفسير يقول: انتبهوا إِنَّ في الآية وجوبين، وجوب عينيٍّ ووجوب كفائيٍّ لأهل الجدة، وتقول الروايات الأخرى بأنه يشترط لهذا الوجوب الكفائي خلوّ البيت.

وبالنتيجة، هذا الطريق للجمع تامّ لا غبار عليه وأما الإشكالان:

١. إشكال صاحب الجواهر ع بأن أخبار أهل الجدة مختصة لهم، وأخبار خلوّ البيت غير مرتبطة لأهل الجدة.

فقلنا بتقييد أخبار أهل الجدة في جواب هذا الإشكال.

٢. وأما الإشكال الثاني: إِنَّ الوجوب الكفائي لا يساعد مع خبر موسى بن جعفر ع، لأنَّ الإمامَ ع استشهد بالآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾، واستدل بها على الوجوب العيني للحج وكان الإجماع عليه.
فقد أجبنا نعم، يستفاد الوجوب العيني منها إجماعاً، ولكنَّ الإمامَ ع قال بالوجوب

١. الكافي (ط - الإسلامية) ٤ : ٢٦٥، ح ١.

الكفائي أيضاً إضافة على الوجوب العيني.

وعلى ذلك، فالجمع الأول بين الطائفتين من الأخبار هو الطريق الذي سلكه صاحب الوسائل رحمته الله وتبعه صاحب الحقائق رحمته الله والسيد اليزدي رحمته الله أيضاً، بأن «مرة واحدة» مربوط بالوجوب العيني، و«يجب على أهل الجدة في كل عام» مربوط بالوجوب الكفائي، ونحن نؤيد ذلك أيضاً.



المصادر:

القرآن الكريم.

١. الاصفهاني، المجلسي الأول، محمدتقي، روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، المحقق / المصحح: السيد حسين الموسوي الكرمانى - علي بنه الاشتها ردي - السيد فضل الله الطباطبائي، قم: مؤسسة كوشان پور الثقافية، الطبع الثاني، ١٤٠٦ هـ ق.
٢. البحراني، آل عصفور، يوسف بن أحمد بن إبراهيم، الحقائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، المحقق / المصحح: محمدتقي الإيرواني - السيد عبدالرزاق المقرم، قم: المطبعة الإسلامية التابعة لجامعة المدرسين، الطبع الأول، ١٤٠٥ هـ ق.
٣. البرقي، أبوجعفر أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، المحقق / المصحح: المحدث جلال الدين، قم، دار الكتب الإسلامية، الطبع الثاني، ١٣٧١ هـ ق.
٤. الحكيم، السيد محسن الطباطبائي، مستمسك العروة الوثقى، قم: مؤسسة دارالتفسير، الطبع الأول، ١٤١٦ هـ ق.
٥. الحلّي، العلامة، حسن بن يوسف بن مطهر الأسدي، منتهى المطلب في تحقيق المذهب، محقق / مصحح: المشهد المقدس: مجمع البحوث الإسلامية، الطبع الأول، ١٤١٢ هـ ق.

٦. الخميني، السيد روح الله الموسوي، تحرير الوسيلة، قم، مؤسسة دار العلم للطبع، الطبع الأول، بدون تاريخ.
٧. الخوانساري، السيد أحمد بن يوسف، جامع المدارك في شرح مختصر النافع، المحقق / المصحح: علي أكبر الغفاري، قم، مؤسسة إسماعيليان، الطبع الثاني، ١٤٠٥ هـ ق.
٨. الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي، معتمد العروة الوثقى، المقرر: السيد رضا الموسوي الخلخالي، قم، مدرسة دار العلم - لطفي، الطبع الثاني، ١٤١٦ هـ ق.
٩. _____، المعتمد في شرح المناسك، المقرر: السيد رضا الموسوي الخلخالي، قم، مدرسة دار العلم - لطفي، الطبع الأول، ١٤١٠ هـ ق.
١٠. الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن حسين الطاهر ذو المناقب، نهج البلاغة، المترجم: محمد الدشتي، قم: انتشارات طليعه نور، الطبع الثاني، ١٣٨٠ هـ ش.
١١. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم، جماعة المدرسين، الطبع الخامس، ١٤١٧ هـ ق.
١٢. الطوسي، أبو جعفر، محمد بن الحسن، الاستبصار فيما اختلف من الأخبار، تهران: دار الكتب الإسلامية، الطبع الأول، ١٣٩٠ هـ ق.
١٣. _____، تهذيب الأحكام، تهران: دار الكتب الإسلامية، الطبع الرابع، ١٤٠٧ هـ ق.
١٤. العاملي، الحرّ، محمد بن حسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، المحقق / المصحح: مؤسسة آل البيت للإسلام، قم: الطبع الأول، ١٤٠٩ هـ ق.
١٥. القمي، الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، علل الشرائع، قم: مكتبة الداوري، الطبع الأول، ١٣٨٦ هـ ق.
١٦. _____، عيون أخبار الرضا عليه السلام، المحقق / المصحح: اللاجوردي، مهدي، تهران، نشر جهان، الطبع الأول، ١٣٧٨ هـ ق.
١٧. _____، من لا يحضره الفقيه، قم: المطبعة الإسلامية التابعة

- لجامعة المدرسين، الحوزة العلمية، قم، الطبع الثاني، ١٤١٣ هـ ق.
١٨. الكليني، أبوجعفر محمد بن يعقوب، الكافي، تهران: دار الكتب الإسلامية، الطبع الرابع، ١٤٠٧ هـ ق.
١٩. اللكراني، محمد الفاضل الموحد، تفصيل الشريعة في شرح تحرير الوسيلة - الحج، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، الطبع الثاني، ١٤١٨ هـ ق.
٢٠. محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الفخر الرازي الشافعي، مفاتيح الغيب المسمى بـ «التفسير الكبير»، بيروت، دار الفكر، الطبع الثالث، ١٤٠٥ هـ ق.
٢١. النجفي، محمد حسن، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، المحقق/المصحح: عباس القوجاني - علي الآخوندي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبع السابع، ١٤٠٤ هـ ق.
٢٢. النووي، يحيى بن شرف، كتاب المجموع شرح المذهب للشيرازي، چاپ محمد نجيب مطيعي، جدة: مكتبة الإرشاد، بدون تاريخ.
٢٣. اليزدي، السيد محمد كاظم الطباطبائي، العروة الوثقى فيما تعم به البلوى، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبع الثاني، ١٤٠٩ هـ ق.





وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

معالم الحجّ الإبراهيمي

الشيخ علي فاضل الصدديّ

الحجّ الإبراهيميّ في صورته الموسّعة التي لا تقف عند شخص إبراهيم الخليل - على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام - (هذا الحجّ) شخوصه وروّاده وأبطاله ثلاثة، أوّلهم إبراهيم عليه السلام، وثانيهم إسماعيل عليه السلام، وثالثهم هاجر عليه السلام، فلتكن نظرتنا للحجّ الإبراهيميّ نظرة مستوعبة لهؤلاء الثلاثة، بل أكثر من هذا إنّ الحجّ الإبراهيميّ - كما سيّضح - ليس مشروعاً يقف عند فعل إبراهيم عليه السلام لهذا المشروع وإيجاده له، بل إبراهيم عليه السلام مكلف برعاية هذا المشروع وأن يوصله يداً بيدٍ إلى الأجيال من بعده.

وهذا ما سنحاول تعرّفه من خلال الآيات التالية وغيرها، يقول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ
إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا
بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ
افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ
يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ *
وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ^١
وذلك في عناوين سبعة:

العنوان الأول: ما هو الحجّ في نظر إبراهيم؟

العنوان الثاني: ما هو المشروع الإبراهيمي؟

العنوان الثالث: قيمة العمل.

العنوان الرابع: النداء الإبراهيمي.

العنوان الخامس: العامل الخالد.

العنوان السادس: الرجاء الأكيد.

العنوان السابع: لماذا الحجّ؟



العنوان الأول :

ما هو الحجّ في نظر إبراهيم عليه السلام؟

الحجّ في صورته الساذجة هو عبارة عن زيارة بيت الله سبحانه، إلا أنّ الحجّ في

١. سورة الصافات : ٩٩ - ١١١ .

منظور إبراهيم عليه السلام أبعد من ذلك بكثير؛ لأنه عليه السلام يرى أنّ هذا الحجّ هو هجرة إلى الله سبحانه، بحيث إذا نزل العبد بيته نزل عنده تعالى، ونزل ضيفاً عليه سبحانه، وليس ذلك فحسب بل الحجّ في نظر إبراهيم في مضمونه الدقيق جداً هو هجرة إلى الربّ سبحانه، هذه الهجرة - التي اتخذ قرارها النبي إبراهيم عليه السلام إلى جوار بيت الله سبحانه - عبّر عنها بأنها هجرة إلى الربّ ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وهذا يوقفنا على معلّم مهمّ ومُلهِم من معالم التوحيد، وهو توحيد الربوبية لله سبحانه.

وحريّ بنا أن نعرض بعض ما يتّصل بمظاهر التوحيد وأنحاءه، وكيف أنّ التوحيد في مظاهره وأنحاءه هو عبارة عن منظومة متكاملة، فالمؤمن بالله سبحانه - بما في ذلك أهل الشرك - يعتقدون بأنّ الخالق هو الله سبحانه، وقد قرّره الله على ذلك في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^١ ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^٢.

ليسأل كلّ واحد منّا نفسه، هل خُلِقَ من غير شيء، ومن غير خالق؟ والجواب الفطري سيكون بالنفي. وهل بوسع أحدنا أن يدّعي أنّه قد أوجد نفسه؟ والجواب الفطري: كلاّ. فإذا هناك موجد، فمن هو؟ وهل ادّعى مدّع غير الله أنّه الموجد والخالق؟ كلاّ، لم يدّع أحد ذلك إلاّ الله، وما نازع الله أحدٌ في الخالقية.

وهذا مظهر من مظاهر التوحيد، وهو التوحيد في الخالقية، ويتفرّع عنه توحيد في الربوبية والتدبير لله تعالى. يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ^٣. وهنا يتّضح أنّ كونه مدبّراً وربّاً متفرّع على كونه خالقاً.

١ . سورة لقمان : ٢٥ ؛ وهذا الإقرار متكرر كما في سورة العنكبوت : ٦١ ؛ وسورة الزمر : ٣٨ ؛ وسورة الزخرف : ٩ .

٢ . سورة الطور : ٣٥ .

٣ . سورة طه : ٤٩ - ٥٠ .

وكيف لا يكون هو المدبّر، والحال أنّ الخالق محيط بما خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ﴾^١.

فالله تبارك وتعالى هو الخالق، وهذا توحيد في الخالقية، ويتفرّع عن كونه خالقاً أنّه
مدبّر، وهذا توحيد له في الربوبية، ويتفرّع عن كونه مدبّراً كونه المعبود، وهذا توحيد
العبودية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^٢. فالرب هو الحقيق بالعبودية دون سواه. ويقول الله تعالى: ﴿سَبِّحْ
اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^٣. والتسبيح ضرب من ضروب العبودية لله تعالى، وهو يعني تنزيهه تبارك
وتعالى وتقديسه. والملاحظ هنا أنّ التعبير لم يكن سبّح لله تعالى، بل كان التسبيح للرب،
ولماذا هو رب؟ قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾^٤، فلمّا كان خالقاً فله
الربوبية، ولما كان ربّاً فله وحده العبودية.

ويتفرّع على توحيد الربوبية لله تعالى توحيد الحاكمية؛ فإذا كان الله تبارك وتعالى
ربّاً على مستوى التكوين فهو ربّ ومدبّر على مستوى التشريع.
فمن له الحكم؟ قال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾^٥.

فمن يحكم ويدبّر على مستوى التكوين؟ يقول: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ
وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^٦. فمسألة أنّه يصيبهم حسد وما شاكل فهذا إنّما هو

١. سورة الملك: ١٤.

٢. سورة البقرة: ٢١.

٣. سورة الأعلى: ١.

٤. سورة الأعلى: ٢ - ٣.

٥. سورة الأنعام: ٥٧.

٦. سورة يوسف: ٦٧.

بإذن الله تبارك وتعالى.

وإلى جانب ذلك يقول سبحانه فيما يرجع إلى مستوى التشريع: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^١.

ويلزم أيضاً من كونه سبحانه حاكماً وأن الحكم له وحده أنه هو الذي يلزم أن يطاع وأن لا يطاع غيره، وهذا ما يعرف بالتوحيد في مقام الطاعة، يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^٢.

هذه المعالم لابد من أن نتجلاها في حجنا بعد معرفة كيف أنها تجلت في حجّه عليه السلام؟ إذن حج إبراهيم عليه السلام هو هجرة إلى الرب والمدبر سبحانه. فأنا عندما أهاجر إليه، فذاك لأنه يقوم على أمري ويدبرني على مستوى التكوين والتشريع معاً؛ فهو مدبري على مستوى التكوين بحيث لا أخلو من تدبيره لحظة، فحقيق أن لا أرى ولا أحب ولا أقدم على تدبيره تدبير غيره بل حتى تدبير نفسي، وهذا إنما يكون في النظر الصافي الصحيح. وأما على مستوى التشريع فإن إبراهيم عليه السلام كان طوع أمره تعالى بحيث إنه عليه السلام ما كان يجحد عن أمره ونهيه قيد أنملة، وسنتعرف ذلك إن شاء الله في العنوان السادس. إذن تجلّى التوحيد في الربوبية من إبراهيم عليه السلام في تعريفه إيانا بحجّه وأنه عبارة عن هجرة إلى الرب سبحانه.

وبعد هذا كله نسأل إبراهيم عن المنفعة التي يجنيها بهذا الحج إلى هذا الرب. قال: ﴿سَيَهْدِين﴾، فهو عليه السلام ينشد الهداية من الله تبارك وتعالى عبّر هذه الزيارة إلى الرب تبارك وتعالى.

وكيف لا يجني هذه الهداية والله تبارك وتعالى يتحدث عن بيته، ويقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

١. سورة يوسف : ٤٠ .

٢. سورة الأحزاب : ٣٦ .

بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِكَعَّةً مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ^١. فهذا البيت مصدر بركة وهداية، بل يفيض بهما.

هذا فيما يرجع إلى ماهية حج إبراهيم عليه السلام، وأنه هجرة إلى الرب، لا أنه هجرة إلى بيته فقط.

العنوان الثاني :

ما هو المشروع الإبراهيمي؟

إبراهيم عليه السلام ما إن وطأت قدمه أرض الحجاز وتحديداً مكة قبل أن تكون مكة كذلك قال - كما حكاها الله تعالى على لسانه - : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ^٢﴾.

فإلى زمان إبراهيم عليه السلام لم تكن مكة مكاناً صالحاً للسكنى، فكان دعاؤه عليه السلام بأن يجعل هذا المكان بلداً فيه عدد من الامتيازات بحيث يرغب الناس في سكناه، ومنها أن يكون آمناً، وأن يرزق المؤمن من أهله من الثمرات.

وفي آية أخرى تتشابه في بعض التعابير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ^٣﴾. ويتضح من هذا الآية أن هذا الدعاء كان بعد أن صار بلداً؛ وذلك لتعريف البلد في الآية. ومن ثم قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ

١. سورة آل عمران : ٩٦ .

٢. سورة البقرة : ١٢٦ .

٣. سورة إبراهيم : ٣٥ .

وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ^١، والتأكيد في هذه الآيات والتي قبلها وبعدها على الربوبية لا يكاد يخفى؛ لكثرة تكرار قوله: ﴿رَبِّ، رَبَّنَا﴾.

ومشروع إبراهيم عندما نزل مكة وقد صارت بلداً آمناً بعد دعائه هو: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^٢.

ولكن هنا تساؤل وهو: من الذي يقيم الصلاة؟

والجواب: هم بعض ذرية إبراهيم، وحرف (من) يفيد ذلك، ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وهذا يعني أن الناس يحتاجون إلى من يقيم لهم الصلاة.

فخلاصة المشروع الإبراهيمي يكمن في إقامة الصلاة،^٣ وأرضية هذا المشروع هو البلد الآمن الذي فيه الخيرات والثمرات، ومن أهم معوّقات وجود هذا المشروع هو عبادة الصنم ﴿وَاجْتُنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ودعامة هذا المشروع هم ذريته ^{عليه السلام}، ولا يمكن لمشروع إبراهيم أن يستمر إلا بوجود هذه الذرية، ورجوع الناس إليهم، فقال: ﴿فَأَجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، وهنا قال: تهوي إليهم، أي: إلى هذه الذرية، ولم يقل تهوي إلى البيت أو الكعبة. ولابدّ من إلفات النظر إلى أن دعوة إبراهيم كانت دعوة عاقلة واقعية، حيث إنه يعلم باستحالة انصياح كل الناس إليهم؛ نظراً لاختلاف معادتهم ومشاربهم، لذا قال: ﴿أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾.

وذرية إبراهيم المناطق بهم إقامة الصلاة والذين هم دعامة إقامة الصلاة، والذين وشج بينهم وبين من تقام لهم الصلاة بأن جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، ولم تقتصر

١. ن. ف : ٣٧ .

٢. وهذا يعطينا أن في كل مشروع لابدّ من أن ينتهي إلى إقامة الصلاة لهذه الآية ولقوله تعالى في سورة الحج آية ٤١: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. وإقامة الصلاة لا بمعنى أداء الصلاة.

٣. سيأتي أن من مشروعه الطواف أيضاً.

على إبراهيم وحده، بل سرى في ذريته؛ لأنّ مشروعه ليس آتياً، بل هو مشروع مستمر حتى قيام الساعة، فهو يبدأ من إبراهيم مروراً بإسماعيل وهكذا حتى يعبر من خلال النبيّ الأعظم ﷺ والأئمة الطاهرين ﷺ، وانتهاءً بصاحب الأمر الإمام المهدي المنتظر ﷺ، وهؤلاء هم صفوة أولاد إبراهيم من إسماعيل ﷺ، وهؤلاء هم من جعل الله أفئدة من الناس تهوي إليهم؛ لضمان استمرار هذا المشروع. ولذا جاءت عددٌ من الآيات التي تؤكد هذا المعنى حيث قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾، ولا يراد بإقامة الصلاة هي أداء الصلاة ولو بالصورة الجماعية المعبر عنها بصلاة الجماعة، بل هي مشروع استثنائي يتقوم بالإمامة بحيث إنّ إقامته يقيم الناس الصلاة وينبعثون نحوها.

العنوان الثالث :

قيمة العمل

إنّ إبراهيم ﷺ لما حلّ بجوار البيت كانت من وظائفه المناطة به من قبل الله تعالى أن يرفع قواعد البيت الحرام - لا أن يبنيه؛ لأنه كان موجوداً، بل كان يُحجُّ إلى البيت قبل آدم بألفي عام،^١ وهكذا كان بمعية ابنه إسماعيل. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.^٢

ورفع القواعد من البيت فعلٌ عظيم جداً، لا يصحّ أن يقاس به بناء مسجد أو مأتم

١. في من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق ٢ : ٥١٩ ، باب نوادر الحج، ح ١. روي عن بكير بن أعين، عن أخيه زرارة قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: جعلني الله فداك أسألك في الحجّ منذ أربعين عاماً فتفتني، فقال: «يا زرارة بيت يحج قبل آدم عليه السلام بألفي عام تريد أن تفتني مسائله في أربعين عاماً».

٢. سورة البقرة : ١٢٧ .

أو دار للأيتام أو دار لمحتاج وما شاكل مما يراه الناس أموراً كبيرة - وهي كذلك عند الله - ، ومع عظيم فعله هذا إلا أنه لم يرَ هذا الفعل شيئاً، بل لا يستحق الذكر أصلاً، كما نراه جلياً في قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، حيث دعا ربه بأن يتقبل منه، ولم يذكر عمله؛ لأنه لا يرى لعمله قيمة إلا بشيء واحد، وهو قبوله، وحيث لا يقبل فلا قيمة له، فالعمل حتى لو كان كبيراً لكنّه منقوص بل لا شيء ما دام لم يقبل، وفي المقابل العمل المقبول حتى لو كان قليلاً فهو كثير، فهو **إِثْبَاتٌ** يتمنى على الله تعالى أن يكون هذا العمل مرفوعاً عنده، ومقبولاً لديه.

العنوان الرابع :

النداء الإبراهيمي

إن إبراهيم **عليه السلام** بعد رفعه القواعد من البيت أمره الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج، فقال سبحانه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^١. فإيا إبراهيم ارفع صوتك بالنداء مخاطباً الناس على مرّ العصور بالحج، وهذا الذي كان، ومن يطيع ويستجيب سوف يأتي راجلاً سائراً على قدميه أو راكباً، ولن يأتي القريب فحسب، بل ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، أي: من الأماكن البعيدة جداً، وإذا لبوا هذا النداء سيشهدون منافع لهم، وليذكروا الله في هذه الأيام المعلومة والمعدودة،^٢ إلى أن يقول: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

فالنداء الإبراهيمي كان لغرض أن يُحجَّ البيت، وكان مشروعه - إلى جانب إقامة

١. سورة الحج : ٢٧ - ٢٩ .

٢. معلومات كما في سورة الحج في الآية ٢٨ : ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾، معدودات كما في سورة البقرة في الآية ٢٠٣ : ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾.

الصلاة - أن يطاف بالبيت.

وإبراهيم عليه السلام وإن بنى البيت، وأذن في الناس ليحجوا البيت، إلا أن وظيفته لم تنته، فمن وظائفه رعاية هذا المشروع والقيام عليه، لذا صدر التكليف من الله تعالى بهذا الأمر حيث قال: ﴿وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^١ وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^٢.

فإبراهيم عليه السلام لم ينته دوره ووظيفته بإقامة الصرح المبارك ورفع القواعد، ولا بالنداء في الناس بحجّه وزيارته، بل لابدّ من أن يقوم على هذا المشروع وأن يرعاه، وعلى حدّ تعبير القرآن أن يطهره.

العنوان الخامس :

العامل الخالد

إن إبراهيم عليه السلام ما أراد من رفعه القواعد من البيت إلا وجه الله تبارك وتعالى، وكان تعامله معه سبحانه.

ولما رفع القواعد من البيت ما كان يرى عمله شيئاً - كما أسلفنا - ، فأراد الله تخليده عليه السلام وتخليد عمله، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ...^٣ فجعل الحجر - الذي كان مرتقى ومقام إبراهيم في بناء البيت - آية خالدة؛ لتكون علامة على إخلاص هذا العمل وشاهداً على ذلك حتى قيام الساعة، وأثر قدميه الطاهرتين لا يزال طابعاً على هذا الحجر. وسبب هذا

١. سورة البقرة : ١٢٥ .

٢. سورة الحج : ٢٦ .

٣. سورة آل عمران : ٩٦ - ٩٧ .

التخليد هو أنه عليه السلام أضاف عمله إلى الله تعالى، وما رأى عمله شيئاً، ولم يقف الأمر عند تخليد الحجر، بل قال الله تعالى في التشريع لأمة محمد صلى الله عليه وآله «...وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى...». وهذا يعني أنه تبارك وتعالى أراد أن يخلد إبراهيم عليه السلام، بأن يصلي الناسك إلى هذا المقام؛ حيث إن المكان الذي يصلي فيه يسمى مصلى، وكذا المكان الذي يصلي باتجاهه يسمى مصلى، فالكعبة مصلى ومقام إبراهيم - وهو الآخر - مصلى، فيصلّي الطائف إليه - لزماً - بعد طوافه الواجب بأن يوسط هذا المقام بينه وبين الكعبة، فيصلّي إليهما معاً.

العنوان السادس :

الرجاء الأكيد

إن السعي بين الصفا والمروة والتطوّف بهما - والذي هو من شعائر الله، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^١ - هذا التطوّف الذي ألزمتنا به هو تمثّل لتطوّف كريم في نفس هذا الموضع، هو تطوّف يراد منه تلقين النفس برجاء الله والثقة به وحسن الظنّ به، وهذا الصنيع تخليد للرجاء الصادق والأكيد لهاجر والدّة إسماعيل، حيث تطوّفت لمراتٍ تؤمّل شيئاً تحيله الأسباب الطبيعيّة، ولكّنها انقطعت إلى الله تعالى، وانقطع رجاءها عن جميع الأسباب الطبيعيّة؛ إذ رغم عدم وجود شيءٍ منها علّقت رجاءها وأملها بالله سبحانه، ولم يتسلّل القنوط واليأس إلى قلبها، هذا.

وفي الرواية عن محمد بن عمر بن يزيد عن بعض أصحابه قال: كنت في ظهر (وراء) أبي الحسن موسى عليه السلام على الصفا وعلى المروة (أو على المروة) وهو لا يزيد على حرفين: «اللهم إني أسألك حسن الظنّ بك في (على) كلّ حال، وصدق النّيّة في التوكّل عليك»^٢.

١. سورة البقرة : ١٥٨ .

٢. وسائل الشيعة ١٣ : ٤٨١ ب ٥ من أبواب السعي، ح ٦.

العنوان السابع :

لماذا الحجّ ؟

ما هي الغاية من الحجّ؟ فنحن إذا ما نظرنا إلى مناسك الحجّ فإننا سنجدّها كثيرة، من الإحرام والطواف وركعتيه والسعي والوقوفين والرمي والذبيح، والحلق أو التقصير، فقد نبحت عن فلسفة كلّ عملٍ على حدة، وقد نبحت عن فلسفة مجموع أعمال الحجّ، فما هي العلة أو الحكمة العامّة لمناسك الحجّ؟ وما الذي يريده الله منّا من خلال هذا النسك؟

يقول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^١.

من ذهب إلى الحجّ وأكثر من العبادات وتزوّد منها، فطاف بالبيت ما شاء الله، وصلى وختم القرآن وفعل غيرها من الأعمال - فإنه لن يصل إلى عبادة إبليس؛ إذ قد عبد الله ستة آلاف سنة،^٢ ولم تنفعه عبادته في ساعة الامتحان الإلهي وعندما طلب منه السجود لآدم عليه السلام؛ لأنه كان يتصوّر أنّه يكفي أن يكون عابداً، والحال أنّه لا بدّ أن يكون عبداً. فليس الهدف أن أكون عابداً، بل الهدف أن أكون عبداً، وإن كانت كثرة العبادة ممهّدة لأن أكون عبداً، لكنّها ليست هي الهدف الأخير.

وتبرز حالة العبودية إذا كان العبد ينصاع إلى مولاه تعالى حتى لو كان العمل المطلوب منه على خلاف هواه ومزاجه.

وقد برزت حالة العبودية عند إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه

١. سورة البقرة : ١٩٧.

٢. ففي نهج البلاغة: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهميد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سنيّ الدنيا أم سنيّ الآخرة - عن كبر ساعة واحدة». نهج البلاغة: ٣٨، ٣٩ (الخطبة القاصعة).

الوحيد الذي طال انتظاره له، وذبحه المأمور به يشكّل تحدياً لهواه، فهذا أمر الله تعالى بأن يذبح هذا الولد بيده والحال أنه طالما ترقّب وجوده لا سيّما وأن إسماعيل قد صار فتى ممّا يجعل الأب يؤمل فيه الآمال ويعلق به الأمان، إلا أن العبوديّة قد تجلّت في هذا الموقف من إبراهيم بأجلى صورها عندما انصاع إلى أمر الله تعالى من دون أدنى اعتراض، وما كان منه ومن إسماعيل إلا أن أسلما لأمر الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهنا لم يتحقّق الذبح من إبراهيم، ولكنه ^{عليه السلام} اجتاز الاختبار الإلهي، وتجلّى مقام إبراهيم إلى نفسه، وإلى غيره.

لذا ورد عن الإمام الصادق ^{عليه السلام}: «إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذ نبياً قبل أن يتخذه، رسولاً، وإن الله اتخذ رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذ خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون السفيه إمام التقي». ^١ وهنا مقام أعلى وهو أن الله تعالى اتخذ إبراهيم عبداً، ونبّهه إلى نفسه من دون أن يدّعي إبراهيم كونه عبداً لله تعالى.



١. الكافي، للكليني ١: ١٧٥، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة ^{عليهم السلام}، ح ٢.

وَادِّ يَرْصَعُ اِيْرَاقِيْمُ الْفَوَاعِدُ
مَنْ الْبَيْتِ وَالْاِسْمَاعِيْلُ رِيَا
تَقِيْلُ مَا اِنَّكَ اَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيْمُ (البقرة 127)

أثر الكفر (١)

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

الأستاذ: محسن الأسدي

هذا الختامُ للآية المباركة ٩٧ من سورة آل عمران وهي من آيات فريضة الحج، استوقفني طويلاً، لا أدري لأنَّ فريضة الحج هي الوحيدة بين العبادات، التي ذُيل وجوبها في التنزيل العزيز بمثل هذه الخاتمة، أو لأنَّ مفهوم الكفر خطير بما له من آثار وخيمة على الناس؛ على فطرتهم وعقائدهم واجتماعهم، وعلى أمانهم وسلامتهم في الدنيا والآخرة، أو لأنَّ الذين تصدوا لرسالات السماء ولم يؤمنوا بها، وقتلوا الأنبياء والصالحين هم أولئك

الذين وصفهم التنزيل العزيز بالكافرين، أو لأنَّ الكثير من آيات القرآن العزيز توعَّد أُمَّة الكفر وأتباعه ومريديه بخزي في الدنيا، وأما في الآخرة: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^١ أو لأنَّ معرفة الكفر موضوع مهم بل هو الأهم للإنسان؛ لكيلا يقع فريسةً له، فيردى؟!

فهذا الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، وقد كان من الوعي بدرجة عالية، جعلته يقول: «كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ؛ مخافة أن يُدركني»^٢.

وذاك الشاعر الكبير أبو فراس الحمداني يقول:

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشرَّ من الخير يقع فيه

وهل هناك شرُّ أكثر قُبْحاً وظلماً وفساداً وخطورةً من الكفر والشرك بالله عزَّ وجلَّ؟! لهذه الأسباب ولغيرها صرتُ أقف قليلاً عند الآيتين المباركتين:

الأولى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^٣.

والثانية :

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾^٤.

١. سورة مريم : ٣٧ .

٢. الأُمالي، الشيخ الطوسي : ٢٢٢؛ بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٢٨ : ٤٢؛ مسند أحمد بن حنبل ٤ : ١٥٤.

٣. سورة آل عمران : ٩٦ .

٤. سورة آل عمران : ٩٧ .

وهي الأهم في دلالتها على وجوب الحج تهيئاً بل لضرورة الوقوف عند جزئها الأخير: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

والذي بدوره يستدعي أولاً لمعرفة الكفر في القرآن الكريم معني ومفهوماً وأنواعاً...

الآية الأولى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^١.

سبب النزول :

ولعلَّ قراءتنا لسياق الآيات السابقة واللاحقة لهاتين الآيتين ٩٦-٩٧ تدلنا على

أنهما من ضمن ما تهدفان إليه هو الردُّ على أهل الكتاب .

السيد العلامة الطباطبائي في الميزان: «الآيتان جواب عن شبهة أخرى كانت اليهود

توردها على المؤمنين من جهة النسخ وهي ما حدث في أمر القبلة بتحويلها من بيت

المقدس إلى الكعبة...».

وقد ذكر أن نزول هذه الآية المباركة، وما تحمله من الأوليّة ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ وهو لغة:

(ابتداء الشيء، أو هو الذي لم يسبقه غيره...) ومن كونه ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾، كان

بسبب تفاخر جرى بين اليهود من جهة والمسلمين من الجهة الأخرى، فقالت اليهود: بيت

المقدس قبلتنا، وهو أفضل وأعظم من الكعبة وأقدم؛ لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض

المقدسة! وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل!

وهناك شبه أخرى أثارها اليهود حين رأوا رسول الله ﷺ وقد حوّل القبلة من بيت

المقدس إلى الكعبة، فعدّوا عمل رسول الله ﷺ باطلاً وهو موجب للطعن بنبوته ﷺ.

لماذا ؟

يأتي جوابهم بأن بيت المقدس وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبله الأنبياء،

٢. آل عمران : ٩٦ .

فهو أفضل من الكعبة وأحقُّ بالاستقبال، وبالتالي فتحويل القبلة منه إلى الكعبة يعدُّ باطلاً؛
فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^١
الأولى في الروايات ، منها :

ما روي عن رسول الله ﷺ حين سئل عن أول مسجد وضع؟
فقال ﷺ: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس».

وسئل الإمام علي عليه السلام أهو أول بيت؟

قال عليه السلام: «لا، قد كان قبله بيوت، لكنه أول بيت وضع للناس، وأول من بناه
إبراهيم عليه السلام ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم فبنته العمالة، ثم هدم فبناه
قريش».

الواحد في البسيط: عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان
الله تعالى عليهم أجمعين عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مَلَائِكَتَهُ فَقَالَ: ابْنُوا
لِي فِي الْأَرْضِ بَيْتًا عَلَى مِثَالِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ كَمَا
يَطُوفُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَهَذَا كَانَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ».

وروي أيضاً عن علي أنه سأله رجل: أهو أول بيت؟ فقال علي: «لا؛ قد كان قبله
بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، فيه الهدى والرحمة والبركة».

من أقوالهم :

وأما الأقوال في كونه ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ...﴾، فهي كثيرة؛ تدور حول كونه الأول
الذي لم يسبقه غيره سواء أكان موضعاً؛ فموضع الكعبة أول بقعة خلقها الله من الأرض، أو
قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين، أم كان بناءً فهو أول بيت بناه آدم أو الملائكة في الأرض،

١. انظر الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي؛ أسباب النزول، للواحدي؛ تفسير مجمع البيان للشيخ
الطبرسي؛ التفسير الكبير للرازي (ت ٦٠٦ هـ) وغيرها؛ الآية. بتصرف بسيط .

أو كان ظهوراً؛ فهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق الله تعالى السماء ثم دحيت الأرض من تحت الكعبة، أو كان فضيلةً، فهو الأول في كونه مباركاً وهدىً وأماناً للعالمين، أو هو أول بيت رغب فيه وطلب منه البركة. أو الأول للعبادة: أول المساجد على وجه الأرض؛ أول بيت طيف به، أول بيت حُجَّ بعد الطوفان، أو بعد الأذان الخالد للنبي إبراهيم عليه السلام وهو الأرجح قرآنياً...

وأما عن فضائله :

فللمفسرين كلام طويل فيها، وبالذات الرازي ذكر كلاماً مفصلاً حول أولية البيت وفضائله، ليخلص إلى أن الكعبة أشرف من بيت المقدس، وبالتالي بطلان شبه اليهود وأقوالهم، منها:

أن باني هذا البيت هو الخليل عليه السلام بأمر من الله تعالى، الآية ٢٦ الحج. والخليل أعظم درجة وأكثر منقبة من سليمان عليه السلام باني بيت المقدس. أن الكعبة كانت موجودة في زمان آدم عليه السلام، وهذا هو الأصوب ويدل عليه وجوه:

الأول: أن تكليف الصلاة كان لازماً في دين جميع الأنبياء عليهم السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾^١ فدلّت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله، والسجدة لابد لها من قبله، فلو كانت قبله شيث وإدريس ونوح عليهم السلام موضعاً آخر سوى القبلة؛ لبطل قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾؛ فوجب أن يقال: إن قبله أولئك الأنبياء المتقدمين هي الكعبة، فدل هذا على أن هذه الجهة كانت أبداً مشرفة مكرمة.

١. سورة مريم : ٥٨ .

الثاني: أن الله تعالى سَمَّى مكةَ أمَّ القرى، وظاهر هذا يقتضي أنها كانت سابقة على سائر البقاع في الفضل والشرف..

وأما كون بيت المقدس يشارك البيت الحرام في الطاعات والعبادات بدليل قوله عليه الصلاة والسلام:

«لا تشدُّ الرحال إلاَّ إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا».

فلا يدل على أنه مشارك له في جميع الأمور حتى في وجوب الحج، فهذا غير لازم...^١

﴿لِلنَّاسِ﴾

فالبيت الحرام هو للناس جميعاً، هكذا رسم دوره من قبل السماء أن يتسع هذا الدور بحقوقه على الناس وبواجباته عليهم وبمنافعه لهم بأفرادهم وشعوبهم وقبائلهم؛ فهو ليس لفرد دون آخر أو لفئة دون أخرى، أو لقبيلة دون غيرها أو لأمة دون أخرى.... فهو مأمّن وموئل وموضع عبادة لهم.

﴿سَوَاءٌ أُنْعَاكِفُ فِيهِ وَأَلْبَادٌ﴾.^٢

وهكذا أسس لهم جميعاً للمقيم به والقريب منه والمجاور له، وللطارئ والنازع إليه والقاصده من غربته ومن بلد بعيد، ومن هذا تُعلم مكانة هذا البيت وتُعرف منزلته التي أنزله

١. انظر في هذا كله الواحدي في تفسيره: البسيط، وفي الهامش: جزء من أثر طويل، أخرجه الأزرق في «أخبار مكة» ١، ٣٢ - ٣٤؛ وورد في «تفسير البغوي» ٢، ٧٠؛ وكنز العرفان للسيوري ١، ٢٥٩؛ ومجمع البيان للطبرسي؛ والبحث الروائي في تفسير الميزان للسيد الطباطبائي؛ وتفسير معالم التنزيل، البغوي (ت ٥١٦ هـ)؛ وتفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ)؛ وتفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ) وله كلام مفصل، ذكرنا شيئاً يسيراً ملخصاً منه: الآية .

٢. سورة الحج : ٢٢ .

الله تعالى فيها، وتدرك فضائله على من انفتح عليه من الناس، وعلى الموحدين من جميع بقاع الأرض.

أما ﴿بِكَّة﴾ ففي تسميتها هذه ذكروا وجوهاً كثيرة، منها :

إنها مرادفة لمكة فأبدلت ميمها باءً، والعرب تُعاقِبُ بين الباء والميم في مواضع، قالوا: هذا عليٌّ ضَرْبُهُ لازم ولازِب، ... تَبَاكَ الناسُ: ازدحموا، فسُمِّيَتْ بِكَّةً، لازدحام الناس بها، يَبْكُ بعضهم بعضاً، يبكُّ بها الرجال والنساء، يدفع ويصلي بعضهم بين يدي بعض والمرأة تصلِّي بين يديك وعن يمينك وعن شمالك وعن يسارك ومعك، وَيَمُرُّ بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلاَّ هناك؛ لأنه إنما يحرم أو يكره في سائر البلدان.. أو تَبْكُ أعناق الجبابرة، أي تدُقُّها..

وبكَّة ومكَّة مترادفتان، فبكَّة: اسم لبطن مكة، أو لموضع البيت والمطاف، وقيل: للمسجد نفسه، وأيدوا هذا بأن التباكَّ وهو الازدحام إنما يحصل عند الطواف، ومكَّة تمام البلد.^١

﴿مُبَارَكًا وَهَدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾

وهما من أعظم فضائل البيت الحرام، فكونه ﴿مُبَارَكًا﴾؛ لأنَّ فيه لمن حجَّه واعتمره وطاف به وعكف عنده: الخير الكثير.. مضاعفة الثواب.. تكفير الذنوب والسيئات.. نفي الفقر.. كثرة الرزق.. وأيضاً من دخله أمن.. وبما أنَّ البركة لها معنيان: أحدهما: النمو والتزايد، والآخر: الثبوت أو البقاء والدوام.. فالطاعات فيه يزداد أجرها ويتضاعف ثوابها للناس فيه وهم بين طائف وقائم وراكع وساجد ومتأمل ناظر للبيت وآياته، وثبوت العبادة فيه دائماً، حتى يحكى أن الطواف به لا ينقطع أبداً، فبركته دوام العبادة فيه ولزومها، ولمن

١. انظر تفسير الدر المصون، السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ)؛ والتفسير البسيط للواحدي؛ ومجمع البيان للطبرسي وغيرها: الآية .

أراد المزيد فللرازي كلام مفصل نافع حول هذين المعنيين للبركة.
﴿وَهْدَى﴾ :

يقول ابن عاشور: وإذا كان أول بيت عبادة حق، كان أول معهد للهدى، فكان كل هدى مقتبساً منه فلا محيص لكل قوم كانوا على هدى من الاعتراف به وبفضله، وذلك يوجب اتباع الملة المبنية على أسس ملة بانيه.. ووصفه بالمصدر في قوله ﴿وَهْدَى﴾ مبالغة لأنه سبب هدى. وجعل هدى للعالمين كلهم لأن شهرته وتسامع الناس به، يحملهم على التساؤل عن سبب وضعه، وأنه لتوحيد الله، وتطهير النفوس من خبث الشرك فيهدي بذلك المهتدي، ويرعوي المتشكك...

فهو بيان ودلالة على الله بما فيه من الآيات والأحكام والآداب، يهتدون بها إلى جهة صلاتهم وأدعيتهم، يهتدون بها إلى الجنة بحجّه وطوافه والاعتكاف فيه.. وبالتالي فهو رحمة وصلاح ومزيد هداية لهم.. ويجوز في ﴿مُبَارَكاً وَهْدَى﴾ حمله على جميع ألوان الخير والعطاء والزكاة والرشاد، إذ لا تنافي. هذا إضافة إلى كونه ﴿.. مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾.. ﴿.. قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾^١. والآية الأخرى :

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾
وهذه الآية تتضمن :

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾

فلا بن عاشور كلام طويل نكتفي منه بقوله: «ووصف الآيات ببيّنات لظهورها في علم المخاطبين. وجماع هذه الآيات هي ما يسره الله لسكان الحرم وزائريه من طرق

١. التحرير والتنوير؛ وانظر مجمع البيان وغيرهما : الآيات .

الخير... وبقوله: إنه آيات؛ لدلالته على نبوة إبراهيم بمعجزة له وعلى علم الله وقدرته، وإن بقاء ذلك الأثر مع تلاشي آثار كثيرة في طيلة القرون آية أيضاً.. وقد أضاف عبارته الأخيرة هذه لما ذكره الزمخشري من اشتماله على آيات: لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة أوف سنة آية. ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله... ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما. دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، وكثير سواهما...^١

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

فمن دخل هذا البيت المقيد بتلك القيود من البركة والهدى والآيات البينات من مقام إبراهيم وغيره، مراعيًا لها، كان آمناً! وبلا ريب أن هذا الأمان جاء استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾

ولعل الآية جاءت مذكرةً العرب بفضل الله عليهم أن جعل بقعة مباركة بينهم تتصف بالأمان، فيما الآخرون من حولهم يعانون من فقدانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾^٢.

وهذه الآيات الثلاث بذكرها لصفة الأمان تُبين أهميته في حياة الناس تطوراً وتكاملاً، وضرورته لمسيرتهم العبادية خاصة في هذه البقاع المباركة!

ولعل من دخله، وقد ولج الإيمان قلبه، يؤدي فيه مناسكه وعباداته بنية صادقة

١. تفسير التحرير والتنوير؛ وتفسير الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) وغيرهما: الآية .

٢. سورة العنكبوت : ٦٧ .

خالصة لله تعالى، كان آمناً من الكفر وسيئاته؛ ومما يترتب عليه من عذاب أليم ومهين، جديراً بأجره وثوابه وإحسانه!
وعن السلمي في تفسيره:

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، قال: من دخله على الصفة التي دخلها الأنبياء والأولياء والأصفياء كان آمناً من عذابه كما آمنوا!
وفي قول: من دخله كان آمناً من عقابه، والله في الدنيا ثواب وعقاب، فثوابه العافية وعقابه البلاء، فالعافية أن يتولى عليك أمرك، والعقوبة أن يكللك إلى نفسك!
وفي قول آخر: كان آمناً من هواجس نفسه ووساوس الشيطان!

ثم اختصَّ هذا البيت المبارك بمشيئة الله أن يعبدوه فيه، فرُفعت قواعده - بعد أن اندرست واختفت بالطوفان إن صحَّ الخبر - من قبل إبراهيم؛ وابنه إسماعيل كان هو الآخر ملازماً له في هذا المشروع المبارك خطوة بخطوة، يُعينه بدءاً بقواعد البيت حين رفعها، وبوضع الطين والحجارة في جدرانها، والحجر الأسود في مكانه، وبتطهيره، وهما يرددان معاً ذلك الدعاء المبارك، الذي راح من بعدهما يردده الصالحون في أعمالهم وعباداتهم..:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^٢

ثم أمر نبيه إبراهيم عليه السلام، وفي قول: إن المأمور هو نبينا ﷺ في حجة الوداع؛ أن يُنادي داعياً الناس بأن الله أوجب عليهم حجَّ بيته الحرام: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ

١. انظر حقائق التفسير، السلمي (ت ٤١٢ هـ): الآية .

٢. سورة البقرة: ١٢٧ .

أَلْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ...^١

وهذا الإيجاب بأوامره العديدة على لسان نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام يُعدُّ الأقدم؛ ليعاد، ويقع مثله في آيات قرآنية مباركة أخرى على لسان خاتم الأنبياء رسول الله محمد صلوات الله تعالى عليه:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^٢

﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^٣
ليكون: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^٤
﴿... لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^٥

وهم قاعدة مشروع العبادة هذه في بقعة الله المباركة هذه، حيث بيته الطاهر ومسجده الحرام وكعبته المباركة، التي ظلَّ يحجُّ إليها المسلمون بأعداد مليونية في عبادة وجبت على كل من توفرت فيه الاستطاعة بقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾^٦

إذن؛ فبعد ذكر منزلة هذا البيت المبارك، وفضائله وما فيه من آيات، نحن أمام رحلة عبادية واجتماعية وثقافية وتعارفية نافعة تتحدث عنها تلك الآيات وهذه الآية المباركة،

١. سورة الحج : ٢٧ - ٣٠ .

٢. سورة البقرة : ١٩٦ .

٣. سورة البقرة : ١٥٨ .

٤. سورة البقرة : ١٢٥ .

٥. سورة الحج : ٢٦ .

٦. سورة آل عمران : ٩٧ .

ولتدخلها في المنظومة العبادية للإسلام، وتتميز هذه العبادة بأهمية كبرى، خاصة إذا لاحظنا وجوبها المستفاد من آيات عديدة كما ذكرنا أعلاه؛ فضلاً عن السنّة، ووجوبها المؤكّد في الآية المباركة: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾، بأعلى مراتب التوكيد، وبأبلغ ألفاظ الوجوب؛ تأكيداً لحقّه وتعظيماً لحُرْمَتِهِ، التي ذكرت في آيات عديدة: ﴿الْبَيْتُ الْحَرَامُ﴾، ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾...

﴿وَلِلّٰهِ﴾

القرطبي: ﴿وَلِلّٰهِ﴾ اللام في قوله ﴿وَلِلّٰهِ﴾ لام الإيجاب والإلزام، ثم أكدّه بقوله تعالى: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أوكّد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربي: لفلان عليّ كذا؛ فقد وكّده وأوجبه...

ابن عاشور: وفي هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتان (لام الاستحقاق) وحرف (على) الدال على تقرّر حقّ في ذمة المجرور بها... مما يعني أنه لا فقط حجّ واجب بل حقّ لله تعالى لازم في رقاب جميع الناس وبالذات ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

الرازي: اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من التوكيد أحدها: قوله ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، والمعنى أنه سبحانه لكونه إلهاً ألزم عبّيده هذه الطاعة فيجب الانقياد سواء عرفوا وجه الحكمة فيها أو لم يعرفوا. وثانيها: أنه ذكر ﴿النَّاسِ﴾ ثم أبدل منه ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وفيه ضربان من التأكيد، أما أولاً فلأن الإبدال تنبيه للمراد وتكرير، وذلك يدل على شدة العناية، وأما ثانياً فلأنه أجمل أولاً وفصل ثانياً وذلك يدل على شدة الاهتمام. وثالثها: أنه سبحانه عبّر عن هذا الوجوب بعبارتين إحداهما: لام الملك في قوله ﴿وَلِلّٰهِ﴾ وثانيتها: كلمة ﴿عَلَى﴾ وهي للوجوب في قوله ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ﴾. ورابعها: أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام... وثامنها: أن في أول الآية قال: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ﴾ فبيّن أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الإلهية وكبرياء الربوبية، لا لجرّ نفع ولا لدفع ضرر، ثم أكدّ هذا في آخر الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

فالتنزيل العزيز في آية وجوب الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾ ذكر أموراً كما يقول السيوري: تدل على تأكيد هذه الفريضة وأهميتها ما لم يذكره في غيرها من وجوه: إيراده بصيغة الخبر.. إيراده في صورة الاسمية.. إيراده على وجه يفيد أنه حق لله في رقاب الناس.. تعميم الحكم أولاً ثم تخصيصه وهو كإيضاح بعد إبهام وتثنية وتكرار للمراد فهو أبلغ من ذكره مرة واحدة.. تسمية ترك الحج كفراً من حيث إنه فعل الكفرة، وأن تركه من أعظم الكبائر؛ ولذلك قال ﷺ: «...فليمت...». ذكر الاستغناء ... وسيأتي الكلام عنه.^١ لهذا فلا ينفكون عن ذلك الوجوب وعهدة هذا الحق إلا بأدائه وفق شروط وأحكام تكفلت بها كتب الفقه عند المسلمين. يضاف إلى هذا كله ما سيأتي الكلام عنه في الجزء الأخير من الآية.

﴿لِلنَّاسِ﴾

فكما البيت الحرام ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾، ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾،^٢ ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾.^٣ وكلُّ منها يحمل تعميماً واضحاً ومن خلاله يفهم أن هذا البيت هو للناس جميعاً، ولجميع الديانات؛ بوصفه بيت إبراهيم عليه السلام الذي تنتسب له الديانات، فإن هذا العموم نجد أيضاً في الأذان الأول للحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ...﴾، وكذلك نجد ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ عاماً أبداً منه ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ﴾ وهو بدل بعض من كل... إذن؛ فالناس مطالبون باحترام البيت الحرام، الذي ﴿وُضِعَ﴾ لهم جميعاً، وجعله الله ﴿قِيَامًا﴾ و ﴿مَثَابَةً﴾ لهم، بكل ما تحمله هذه المفردات من المعاني الكبيرة والمنافع الجليلة..

١. تفسير الجامع، القرطبي؛ تفسير التحرير والتنوير: الآية؛ التفسير الكبير / الرازي، وبقية كلامه يأتي في جزء الآية الأخير؛ تفسير الكشاف؛ تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل / النسفي (ت ٧١٠هـ)؛ وانظر كنز العرفان في فقه القرآن، للشيخ السيوري (ت ٨٢٦هـ) ١ : ٢٦٧ .
٢. سورة المائدة : ٩٧ .
٣. سورة البقرة : ١٢٥ .

والإقرار بالبيت وبأوليئته وبمعالمه وبأنَّ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وبأداء الحج المفروض عليهم بالأذان الأول لنبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وبالآيات الأخرى والتي منها هذه الآية المباركة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾.

وكلا مفردتي (الحج والعمرة) الواردتين في الآيات تحملان لغةً معنى القصد إلى مكان عامر؛ وكثرة التردد والاختلاف إليه وزيارته، وهما هنا المراد منهما التردد على بيت الله الحرام حجاً وعمرةً، وهما نوعا عبادة وزيارة، كانتا تؤديان حتى قبل البعثة النبوية الشريفة.. فشكَّلت هذه الآيات والأحاديث النبوية كقوله: «خذوا عني مناسككم» وما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، وبعض الصحابة كجابر بن عبد الله الأنصاري وروايته في حجة الوداع مشروعاً عبادياً عظيماً وأخلاقياً كبيراً واجتماعياً واسعاً.. وليجعل الله تعالى عبادته في هذا البيت المبارك، وفيما حوله من البقاع دائمةً نافعةً، تتجلى درجاتها، وتسمو أجورها، وتتضاعف حسناتها، وتُغفر فيه الذنوب وإن عظمت، وتزكو فيه النفوس وإن كدرت، دون بقاع الأرض، عبر فريضة حجٍّ شملت الناس كافة؛ شرطها الاستطاعة؛ ولتؤسس حلقة متميزة في منظومة عبادية، تُعدُّ رحلةً هي الأعظم نفعاً والأكثر هداية والأشمل بركةً، لها أزمدة وأمكنة خاصة، ولها مناسك متميزة متعددة.. فالصلاة بأوقاتها المعروفة فرائضها ومستحباتها يمكن للإنسان المكلف أن يؤديها في بيته أو في مسجد أو في أي مكان آخر، وكذا الصيام واجباً كان كـشهر رمضان أو مستحباً يمكن للإنسان المكلف الإتيان به في أي مكان يشاء ويتوفر شروطه،.. وهكذا الواجبات المالية كالزكاة.. أي أنَّ هذه الأمور ليس أداؤها والعمل بها مخصوصاً بمكان معين. أما فريضة الحج بركنيتها: عمرة التمتع؛ ومتعة الحج بمناسكهما المخصوصة؛ فلها لا فقط مكان مخصوص بل ووقت مخصوص، لا تصحُّ في غيرهما، فلا بدَّ للمسلم المكلف أن يرحل في ذلك الوقت المحدد عن وطنه وأهله وعمله وماله وتجارته إلى حيث شهر ذي الحجة وتلك المنازل والمشاعر المباركة في مكة المكرمة؛ ليؤدي مناسك فريضة الحج ومناسك العمرة.. وحتى العمرة المفردة، وإن كان وقتها طيلة السنة، إلاَّ أنها لا تؤدي إلاَّ في مكان مخصوص؛ البيت الحرام

بعد الإحرام من أحد المواقيت. هذا أولاً.

وثانياً: أن الفرائض العبادية كالصلاة والصيام لا يُكفَى منها بمرّة واحدة في العمر، بل هي مستمرة مادام المكلف حيّاً تتوفر فيه شروطها، فيما فريضة الحج على الإنسان المسلم المكلف المستطيع، تكون مرّة واحدة وإن طال عمره؛ ويبدو أنّها إما كافية لإمداد الإنسان بآثارها المعنوية .. وإما لأنّ فيها تعباً ومشقةً وسفرّاً بعيداً ومالاً كثيراً مبدولاً، وفراقاً للأحبة والأهل، وتعطيلاً للعمل.. فجعلتها السماء مرّة واحدة، ولعلّ هذا - والله أعلم بمراده - رحمةً بالعباد ورفقاً بهم، وتيسيراً لهم، ورفعاً للحرَج والمشقة والمسؤولية، فهي رحلة لها متاعبها وأثامها من مال وجهد وفراق فضلاً عما قد يحدث من مخاطر، ولكنّ عطاءه تعالى يكون أضعافاً كثيرةً حتى روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى، إلّا كتب الله بها له حسنة ورفع له بها درجة».

وهذا جزء من كون هذا البيت ﴿مباركاً﴾!

المهم أنها عبادة العمر؛ فرضت لمرّة واحدة في حياة الإنسان. فيما الصيام فرض لشهر واحد وهو شهر رمضان المبارك من كلّ سنة، والصلاة لخمس أوقات يومياً فيما صلاة الجمعة ليوم واحد في الأسبوع، وهذا التنوع في العبادات؛ فرائضها ومستحباتها، أشكّالها وكيفياتها وأعدادها وأزمنتها وأماكنها يصنع لنا هذه المنظومة العبادية الكبرى، التي تحتاجها النفس الإنسانية في يومها وسنتها وعمرها؛ لرقّيتها الروحي والنفسي؛ ولاستقامتها؛ ولتكمّل به درجاتها؛ وهي تشقّ طريقها نحو بارئها سبحانه وتعالى، وما أعدّه لها هناك حيث الدار الآخرة من حياة طيبة تتصف بالخلود والبقاء؛ بالخير والعطاء، والأجر والثواب، والمغفرة والرحمة، وتتوفر على نعيم يُوصف بأنّه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ...!!

فكم هي عظيمة الديانات وبعثة الرسل والأنبياء وإنزال الكتب وبيان الشرائع الحقّة، وكم هو عظيم هدفها؛ هداية الناس إلى وحدانية الله وعبادته وحده وحده، وما يترتب على ذلك من خير وعطاء وأمن وسلام في الحياة الدنيا وفي الآخرة!

وهذا المشروع بكل ما يحمله من البيت الحرام وآياته وبحجّه، يدخل في ملّة إبراهيم عليه السلام، التي أمر الله الناس جميعاً باتباعها.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

والإفّ هو الكفر لمن أنكر تاريخ البيت وآياته ومناقبه، ولمن امتنع وتمرد عن أداء حجّه، فالكفر الذي ألفته نفوس كثيرة جداً وكرهت مفارقتها؛ وبأنواعه ومصاديقه؛ هو على الضدّ من ذلك كلّ، وليس هذا فقط، فقد استبسل أئمة الكفر وزعماءه في مقاومة كلّ مشاريع الأنبياء التي هي مشاريع ومناهج السماء ومنها هذا البيت بفضائله ومعالمه وآياته وحجّه والاعتماد به، حتى جاء: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، صريحاً في مواجهة معارضتهم وتمنعهم وتعاليمهم وإنكارهم ..

فهذا وغيره الكثير من مواقف الكافرين كما تحدث عنها التنزيل يدفعنا إلى معرفة معنى الكفر في اللغة والاصطلاح وفي التنزيل العزيز؛ وسنتنهي إلى معانٍ عديدة تدور لغة حول: الستر والتغليف والتغطية والكتمان ...

فالكفر لغةً :

مصدر من الفعل كَفَرَ يَكْفُرُ كُفْرًا وكُفْرَانًا وكُفُورًا؛ يقال: كَفَرَ بِاللَّهِ، يَكْفُرُ كُفْرًا وكُفُورًا وكُفْرَانًا، فهو كَافِرٌ، والجمع: كُفَّارٌ، وكَفَرَةٌ. وهو: كَفَّارٌ أَيْضًا، وهو: كُفُورٌ، والجمع: كُفْرٌ. وهي: كافرة، والجمع: كَوَافِرٌ؛ ... وكَفَرَ الشَّيْءُ وعليه كُفْرًا: سَتَرَهُ، وَغَطَّاهُ، وَكَفَرَ الْجَهْلُ عَلَى عِلْمِهِ: غَطَّاهُ .. فالكفر، بالفتح: التغطية، تغطيةٌ تامةٌ كثيفة لا يظهر معها شيءٌ من المغطّى. وكفرت الشيء أكفره، بالكسر، أي سترته ... وكَفَرَ اللَّيْلُ الْحُقُولَ: غَطَّاهَا بِظُلُمَتِهِ وَسَوَّاهُ.. وإنما قيل لليل: كافر، لأنه يغطي الأشياء بظلمته .. قال لبيد:

يعلو طريقة مَتنِها متواترٌ

في لُبلة كَفَرَ التُّجُومَ غَمَامُهَا

غَمَامُهَا: أي سَتَرَ، غَطَّى.

حتى إذا أُلْقَتْ يداً في كافرٍ

وأَجَنَّ عوراتِ الثُّغُورِ ظلامُها

وقال الآخر:

فَوَرَدَتْ قَبْلَ انبِلاجِ الفجرِ وابنُ ذُكَّاءٍ كامنٌ في كُفْرِ

ابن ذكاء: الصبح. وذكاء: الشمس.

والكافر: البحر لستره ما فيه، ويجمع الكافر كَفَّاراً؛ وقالوا:

وشُقَّ البحرُ عن أصحابِ موسى وغُرِّقَتِ الفراعنةُ الكُفَّارُ

وهكذا كلُّ من ستر أو غطى شيئاً، فقد كفره وكفره.. فكَفَرْتُهُ إِذَا غَطَيْتُهُ، وكَفَرْتُهُ كَفْراً سَتَرْتُهُ، كَفَرَ النَّعْمَةَ أَي غَطَّاهَا مُسْتَعَارٌ مِنْ كَفَرَ الشَّيْءِ إِذَا غَطَّاهُ..، وكَفَرَهُ بِالتَّشْدِيدِ نَسَبَهُ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ قَالَ لَهُ: كَفَرْتُ..

ومما قاله الراغب الأصفهاني، وله كلام طويل، فبعد أن يذكر أن الكُفْرَ في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، يقول: والزَّارِع لستره البذر في الأرض، فكَفَرَ الزَّارِعُ البَذَرَ بالتراب فهو كافرٌ، وكَفَرَ الترابُ ما تحته: غَطَّاهُ؛ ولهذا يُقَالُ لِلْفَلَّاحِ أَوْ لِلزَّارِعِ كَافِرٌ، وللزَّارِع: الكَفَّار.. وتقول العرب للزارع: كافر؛ لأنه يكفر البذر المبذور بتراب الأرض المثارة إذا أمرَ عليها ماله؛ أو لَأَنَّهُ يَكْفُرُ الْبَذَرَ أَي يَسْتُرُهُ..

قال تعالى: ﴿... كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ...﴾، أي أعجب الزَّرَّاع نباته، وإذا أعجب الزَّرَّاع نباته مع علمهم به فهو غاية ما يستحسن، والغيث المطر ههنا؛ وقد قيل: الكفار في هذه الآية الكفار بالله وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين.

وعن قدم هذه المفردة يقول الفراهي في الفائدة ٦ من مفرداته: اعلم أن هذه المادة قديمة جداً، فتوجد في غير اللغة السامية، مثلاً: كَوَرٌ في الإنجليزية: cover بمعنى ستر وغطى. وفي العربية «كُور»: لف...

ثلاثة مصادر :

كثيرة هي الآيات القرآنية، التي وردت فيها كلمة الكفر بمشتقاتها، حتى بلغت أكثر

من خمسمائة مرة، ولعلها بلغت ٥١٧ مرة، منها هذه المصادر:
 الْكُفْرَانُ. الْكُفْرُ. الْكُفُورُ، تقول: كَفَرَ نِعْمَةً اللَّهُ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ كُفْرًا وَكُفْرَانًا وَكُفُورًا..
 وفي استعمال هذه المصادر الثلاثة في التنزيل العزيز ذكروا فروقاً:
 فَالْكُفْرَانُ فِي جُحُودِ النِّعْمَةِ أَكْثَرَ اسْتِعْمَالًا؛ وَلَكِنهَا لَمْ تَأْتِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَذَلِكَ قَوْلُهُ
 تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾^١
 وَالْكُفْرُ فِي الدِّينِ أَكْثَرَ اسْتِعْمَالًا، وَهِيَ الْأَكْثَرُ وَرُودًا فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمِنْهَا:
 ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا
 يَجْعَلَ لَهُمْ حِزَابًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^٢

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
 الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾^٣
 فِيمَا الْكُفُورُ فِي الْاِثْنَيْنِ مَعًا أَيِ فِي جُحُودِ النِّعْمَةِ وَفِي الدِّينِ، وَقَدْ جَاءَ خَمْسُ عَشْرَةَ
 مَرَّةً، مِنْهَا فِي الْآيَةِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾^٤

إِذْنُ فَمَعَانِي الْكُفْرِ عَدِيدَةٌ كَمَا لَاحِظْنَا، تَدُورُ حَوْلَ التَّغْطِيَةِ وَالسِّتْرِ وَالتَّغْلِيفِ
 وَالْكَتْمَانِ... وَهُوَ تَقْيِيزُ الشُّكْرِ وَهُوَ جُحُودُهُ، وَهُوَ الْعَصْيَانُ وَالْامْتِنَاعُ، وَهُوَ الْبَرَاءَةُ... وَهَذِهِ
 الْمَعَانِي تَتَفَعَّلُ فِيهَا يَأْتِينَا مِنَ الْمُرَادِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكَافِرِ اصْطِلَاحًا، وَالَّذِي لَا يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ

١. سورة الأنبياء : ٩٤ .

٢. سورة آل عمران : ١٧٦ .

٣. سورة محمد : ٣٢ .

٤. سورة الإسراء : ٩٩ .

معاني الكفر لغةً.

الكفر اصطلاحاً :

وبعد أن اتضح لنا معنى الكفر لغةً وهو ستر الشيء وتغطيته.. نأتي إلى المراد منه اصطلاحاً، والذي لا يتعد كثيراً عن الدلالة اللغوية، لكن ستر ما هو حقٌّ، أو ستر كلِّ ما ثبت أنه حقٌّ وعدل وصدق هو من الخطورة بمكان، وبالتالي فهو على الضدِّ من الإيمان وآياته ومعالمه ونعمه، التي حملتها كتب السماء وصدق بها أنبياؤها ورسُلها، فالكافر جادٌ في تغطيتها وإخفائها عن الأنظار؛ بل هو نشط وجاد في إنكارها وجحودها مع وصولها وظهور أدلتها له واضحة جليّة؛ وأيضاً الكافر هو المغطّي على قلبه إلى الدرجة التي يمنع الإيمان من الوصول إليه، فالكافر من لم يؤمن بالوحدانيّة، أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها، أو من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد مجتمعة أو واحدة منها، أو من كفر بالله أو بنعمته وجحدها... وألحقَ الفقهاء بالكافر من أنكر ضرورياً - أي بديهياً كالصلاة والحج، مع التفاته إلى كونه ضرورياً..؛ لذلك يذكر كلُّ من الخليل الفراهيدي أن الكفر هو: نقيض الإيمان. ويقال لأهل دار الحرب: قد كفروا، أي عصوا وامتنعوا.

وابن الفارس: بعد أن يخلص من تعريفه للكفر، وأنه هو الستر والتغطية... يقول: والكُفر: ضدُّ الإيمان، سُمِّيَ؛ لأنه تَغْطِيَةُ الْحَقِّ. وَكَذَلِكَ كُفْرَانُ النُّعْمَةِ: جُحُودُهَا وَسَتْرُهَا. وتبعهم ابن منظور حيث يقول: الكفر، نقيض الإيمان. آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت؛... ويقال لأهل دار الحرب: قد كفروا أي عصوا وامتنعوا...

ثم يواصل قائلاً: وسمي الكافر كافراً؛ لأنه ستر نعم الله عزَّ وجلَّ؛ ونعمه: آياته الدالة على توحيده، والنعم التي سترها الكافر هي الآيات التي أبانت لذوي التمييز أن خالقها واحد لا شريك له؛ وكذلك إرساله الرسل بالآيات المعجزة والكتب المنزل والبراهين الواضحة نعمة منه ظاهرة، فمن لم يصدق بها و ردّها، فقد كفر نعمة الله أي سترها وحجبها عن نفسه.

وقال الراغب: والكافرُ على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانيّة، أو التّبوءة، أو

الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كَفَرَ لِمَنْ أَخْلَى بِالشَّريعةِ، وترك ما لزمه من شكر الله عليه.
قال: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾^١.

فمعاني الكفر إذن عديدة كما لاحظنا لغةً واصطلاحاً، فبعد كونه التغطية والستر والكتمان، فهو تقيض الشكر وهو جحود النعمة وإنكار الحق، وهو العصيان والامتناع، وهو البراءة...

وعند المفسرين والفقهاء :

تعددت أقوالهم وتعريفاتهم للكفر، ويمكن إيجازها بأنه يدور حول إنكار الأركان العقائدية الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، فمن أنكر هذه الثلاثة أو واحدة منها، أو أنكر ضرورياً من ضروريات الشريعة كالصلاة والصيام والحج مع إلتفاته إلى كونه ضرورياً؛ عدَّ كافراً.

وهذه بعضها :

الطبرسي: والكفر في الشرع عبارة عن جحد ما أوجب الله تعالى معرفته من توحيدهِ وعدله ومعرفة نبيه وما جاء به من أركان الشرع فمن جحد شيئاً من ذلك كان كافراً.
الرازي: الكفر عدم تصديق الرسول في شيء مما علم بالضرورة بحقيقته، ومثاله من أنكر وجود الصانع، أو كونه عالماً قادراً مختاراً، أو كونه واحداً أو كونه منزهاً عن النقائص والآفات، أو أنكر نبوة محمد ﷺ أو صحة القرآن الكريم، أو أنكر الشرائع التي علمنا بالضرورة كونها من دين محمد ﷺ كوجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج وحرمة الربا والخمر، فذلك يكون كافراً؛ لأنه ترك تصديق الرسول فيما علم بالضرورة أنه من دينه...
القرطبي: وأصل الكفر في كلام العرب: الستر والتغطية؛ والكفر ضد الإيمان وهو المراد

١. سورة الروم : ٤٤ .

في الآية. وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان.^١
وفي الموسوعة: وَالْكَفْرُ شَرْعًا: هُوَ إِنْكَارُ مَا عَلِمَ ضَرُورَةً أَنَّهُ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ،
كَإِنْكَارِ وجود الصَّانِعِ، ونبوته عليه الصلاة والسلام، وحرمة الزنا ونحو ذلك...
السيد اليزدي: والمراد بالكافر شرعاً: من كان منكراً للألوهية أو التوحيد أو الرسالة،
أو ضرورة من ضروريات الدين، مع الالتفات إلى كونه ضرورياً بحيث يرجع إنكاره إلى
إنكار الرسالة.^٢

وقفة قصيرة :

بما أننا نقرأ في اللغة أن من مصادر كفر: التكفير؛ من كفره بالتشديد أي نسبته إلى
الكفر، أو قال له: كفرت.. فهذه مسألة خطيرة جداً فيما تحمله من تبعات تركت آثارها
السلبية على الاجتماع الإنساني، والسلم الأهلي، والتعايش مع المختلف، فلطالما تقع في
التعامل مع الآخر المختلف كلياً أو جزئياً في رأي أو قول أو موقف، وبالذات على الجماعة
المسلمة والأمة المسلمة، وكما يعبر على أهل القبلة الواحدة، استخدمت حتى أسىء
استخدامها لدرجة أن يُعطي شخص أو فئة لنفسها الحق في سلب حياة آخرين مختلفين
عنها؛ لأنهم في منظورها لا يستحقونها، وإن كانوا أبرياء إلا من نقد وجهوه أو رأي حملوه،
فخلف ضحايا كثيرة لا في التاريخ البعيد والقريب بل وفي الحاضر، فآلسنة الاتهام بالكفر

١. تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)؛ تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير،
الرازي (ت ٦٠٦ هـ)؛ وتفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت ٦٧١ هـ) الآية ٦ البقرة.
٢. انظر في هذا كله مصادر اللغة ومنها كتاب العين، مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن
زكريا (ت ٣٩٥) : كفر، ولسان العرب لابن منظور: كفر؛ والزاهر في معاني كلمات الناس؛ أبو بكر الأنباري
(المتوفى: ٣٢٨ هـ) : ١ : ١٢٩-١٢٨؛ المعجم الاشتقاقي المؤصل للدكتور محمد حسن حسن جبل :
١٩٠٧-١٩٠٩؛ ومفردات القرآن، لعبد الحميد الفراهي (ت ١٣٤٩ هـ) : ٣٠٦؛ مفردات القرآن، للراغب
الأصفهاني: كفر؛ الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٥ : ١٤؛ العروة الوثقى، للسيد كاظم اليزدي ١ : ٦٧ .

جاهزة لكي مخالف في فكرة أو موقف أو قول، حتى غدت مسألة التكفير مرضاً ووباءً خطيراً ابتليت به الساحة المسلمة عبر تاريخها وحاضرها، ووسيلة سهلة للسذج وذوي الأفق الضيق، ومرتعاً لمرضى القلوب والمتعصبين، فراحو يلوذون بها؛ لتسقيط الآخر المختلف معهم باتهامه بالكفر أو بالشرك أو بتضليله وتفسيره وتبديعه، دون معرفة بأن هذه المفردات حتى وإن وردت في التنزيل العزيز والسنة الشريفة فمراداتها تتعدد تضيق وتتسع أخرى، ويحدد ذلك أهل الخبرة والاختصاص ممن يُشهد له بالعلم والورع والتقوى، فهم الأعراف بضوابط ذلك، لا كلُّ من هبَّ ودبَّ، أو كلُّ ملاكه لباس أهل العلم لا غير، وجعل نفسه بكلِّ جرأة وصياً على عباد الله، يُقيّمهم، يصفهم بالضلال والكفر والفسوق، دون أن ينظر لنفسه، ويكتفي بعيوبه، فيصلحها، وكأنه خلق وعقيدته وسيرته من غير عيب، وكأنه أصاب الواقع الذي يريده الله تعالى، وهو محال إلا على المعصوم إن أذن الله تعالى.

وعليه أن يلتفت إلى أنه إن ساقه الدليل العلمي للإيمان، فليعلم أن للعامل الوراثي دوراً أساسياً في إسلام عموم الناس، إلا النادر منهم الذي كان للدليل العلمي أثره في إيمانه، فلا يمينٌ عليهم بذلك وليتق الله فيهم، وليبتعد عن العصبية فهي تنته، وأن يلتفت إلى خطورة فتاويه بتكفير المختلف وتضليله وتنجيسته، وما يترتب على ذلك من أحكام فقهية وكلامية كثيرة.. وما يستتبعها من فرقة وتشتت بل وصراع دام يعجز كلُّ خير بجميع أدواته عن إحصاء مخلفاته وآثاره السيئة، والتي تركتها الفتاوى غير المسؤولة فيما مضى على الناس أفراداً وجماعات وأماً عبر تاريخنا البعيد والقريب، وفي واقعنا وحاضرنا. لقد جاءت فتاواهم إما منطلقة من ضيق أفق وقلة معرفة، وإما مبنية على تأويل متعسف للنصوص، وإما جاءت لتحقيق مصالح المتنفيين من رجال سلطة وفقهاء سلطان، أو لأغراض شخصية وأحقاد وضغائن لوثت القلوب، فوجدت في ذلك متنفساً لها، أو لأن نفوسهم المتصفة باللؤم والجهل والتعصب، صارت تُسيء إلى منهج السماء، فالله يوسع رحمته ومغفرته:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً...﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ﴾.

ومن نصب نفسه متحدثاً باسمه تعالى يُضيّقها! فضلاً عن كونها فتاوى صدرت بغير

هدى، يكتنفها الجهل بوسائل الدعوة إلى الله تعالى والمحافظة على دينه، والتي تتصف بالبصيرة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^١.

وإن السماء بكتابها المبارك وإن أقرت الوحدة في الخلق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾^٢. ودعت إلى أمة واحدة متقية معتصمة بحبل الله تعالى، ذاكرة لنعمه تعالى عليها، محذرة من الفرقة والتشتت والتناحر: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^٣. فقد أقرت التنوع والاختلاف بل أسست لهما بين المخلوقات سواء أكانت نباتاً أو أنعاماً وطيوراً وهكذا في الملائكة: كما في الآيات: (٢ - ٤، ١٤ الرعد)، (١٤١، ٣٨-١٤٤، الأنعام)، (١ فاطر).

أما في البشر، فتعال معي إلى هذه الآيات المباركة، وهي تبين لنا هذا التنوع العجيب في النسب واللغة والرزق وفي الفضل والعلم وفي العقيدة...
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^٤.
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^٥.

١. سورة يوسف : ١٠٨ .

٢. سورة النساء : ١ .

٣. سورة آل عمران : ١٠٢-١٠٣ .

٤. سورة الحجرات : ١٣ .

٥. سورة الروم : ٢٢ .

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ﴾^١

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^٢

﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^٣
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ﴾^٤

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^٥
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^٦

جميع هذا وغيره جاء دليلاً على قدرته تعالى وعظمته وحكمته، وجلال الخلق وجماله، وديمومته وبقائه، ولو لم يكن هذا التنوع ضرورياً للحياة واستمرارها، ولسنتي التدافع والابتلاء، وحتى لثواب الآخرة وعقابها: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾. لكان عبثاً، تعالى الله عنه علواً كبيراً.. ولا أحد يستطيع أن يوقف هذا الاختلاف أو يلغي ذاك التنوع، كما أن أي محاولة للوقوف ضد ذلك لا تعدُّ خلاف مشيئته وإرادته وحكمته في خلقه فقط بل عمل مضاد وعدواني على سلطانه

١. سورة المجادلة : ١١ .

٢. سورة الزخرف : ٣٢ .

٣. سورة يوسف : ٦٧ .

٤. سورة يونس : ٩٩ .

٥. سورة القصص : ٥٦ .

٦. سورة هود : ١١٨ - ١١٩ .

تعالى، فالتنوع والاختلاف في الآفاق والأنفس آيات وسُنَّة كونية بلا شك، وظاهرة طبيعية بلا ريب؛ ثم كيف يصحُّ الإيمان بوحداية الله تعالى دون الإيمان بقدرته وتقديره، وقد خلق كل شيء مقدراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾؟!^١

فضلاً عن أن تكفير الناس وملاحقة عقائدهم يخلُّ بالأمن والسلام بينهم، ويعرض الحياة إلى مزيد من الدماء والدمار... ويبقى الدليل الهادئ، والحجة الواضحة، والبرهان الصادق، عبر حوار متزن ومنضبط؛ لبيان الفكرة الصائبة، والرأي الحق، والعقيدة الصحيحة، هو سيد الموقف: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.^٢

وليكن كلُّ ذلك: ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾.^٣

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.^٤

وقالوا: و ﴿أَحْسَنُ﴾ من أفعال التفضيل، جاءت وصفاً لأسلوب المجادلة المنشود؛ ويدل على اشتراك اثنين في صفة ما وزيادة أحدهما على الآخر، بمعنى أنه لا يكفي المجادلة بطريقة حسنة بل لابد من البحث عن طريقة أحسن!

فكم هو جميل ورائع أن يعرض كلُّ طرف حُجَّتَه برفق ولين بعيداً عن أي تشجُّع أو إكراه أو تسقيط، وبالتالي:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.^٥

١. سورة القمر : ٤٩ .

٢. سورة النمل : ٦٤ .

٣. سورة النحل : ١٢٥ .

٤. سورة العنكبوت : ٤٦ .

٥. سورة النحل : ١٢٥ .

و: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^١

متى بدأ الكفر في الناس؟

صحيح أن إبليس كان أول من كفر، وأول من وصف بالكفر من المخلوقين، وقد وقع كفره استكباراً وعصياناً...

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^٢

أما الكفر في الناس فيبدو أنه قديم جداً في عمق القرون الأولى للبشرية، وقد تكون بدايته بوقوع الاختلاف بعد أن كانوا أمةً واحدةً:

﴿...وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾^٣

وفي الآية: ﴿...كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾^٤

وقد تكون بدايته في قوم نبي الله نوح عليه السلام، فهم أول من كان فيهم الكفر كظاهرة واسعة وخطيرة جداً، حتى امتلأت الأرض بكفرهم وعنادهم، وكان نوح أول نبي رسول؛ جمعت له النبوة والرسالة، بعث إليهم، فكانت دعوته الأكثر معاناةً، والأطول مدةً؛ كما يظهر ذلك - بعيداً عن الأخبار وتضاربها - من لبثه في قومه كما في الآية:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^٥

١. سورة الحج : ٦٩ .

٢. سورة البقرة ٣٤ .

٣. سورة يونس : ١٩ .

٤. سورة البقرة : ٢١٣ ؛ انظر أقوالهم وأدلتها في كتب التفسير للآيتين، لم نذكرها خوف الإطالة .

٥. سورة العنكبوت : ١٤ .

والعجيب أنَّ لكفرهم القدرة المؤثرة على خلق بيئة وأجواء حتى على أجيالهم الآتية من بعدهم، كما يظهر من دعائه عليه السلام، الذي لم يكتف بأن وصفهم بالكفر، بل وصف كلَّ من يلدوه ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، بما يصيرون إليه، ولعلَّ هذا حصل له من تجربته معهم، والكفار مبالغة في الموصوف بالكفر، أي من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^١

وقرآنيًا :

مما لا شك فيه أنَّ مفردة الكفر ومشتقاتها مصطلح قرآني راحت آيات قرآنية كثيرة تفيض بالكلام عنه، ولا غرابة في هذا إذا ما عرفنا أنَّ كلَّ الرسائل السماوية بكتبها وأنبيائها جاءت لإنقاذ الناس جميعاً من الكفر ووبائه، حتى غدا الكفر وأهله موضوع وهدف كلِّ دعوة سماوية، راحت تطالب بنبذه والإطاحة به، وتدعو إلى توحيد الله تعالى والإيمان برسالاته... لهذا احتل الحديث عن الكفر والكافرين مكانةً واسعةً من التنزيل العزيز، فكثرت ورود كلمة الكفر ومشتقاتها ومواضيعه في آيات قرآنية كثيرة؛ تاريخه، أسباب الوقوع في دائرة الكفر، تحذير التنزيل العزيز من الانصاف به، أنواعه المستفادة من موارد استعماله في الآيات القرآنية، ما يتركه الكفر بأشكاله: الأكبر والأصغر أو الاعتقادي والعملية من آثار سلبية على الإنسان فرداً كان أو مجتمعاً أو أمةً، الخزي والعذاب على أمم وأقوام وقرى فأهلكهم الله بسبب كفرهم به وبرسله وأنبيائه وكتبه، وبسبب ما ارتكبوه وزعمائهم من قتل وظلم خاصة للأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين والصالحين، هذا من عواقب الكفر في الدنيا، وفي الآخرة ينتظرهم عذاب أليم. وغير ذلك الكثير مما لا تتسع له هذه المقالة...

١. سورة نوح : ٢٧ - ٢٨ .

ولفظَةُ الكُفر ما إن تُسمع أو تُطلق؛ إلّا ويتبادر إلينا هو الكُفر بالله سبحانه وتعالى؛ ولا يعني تغطيته فهو أمر مستحيل، بل إنكاره أو اختلاق أندادٍ له وشركاء، ويشكل هذا أهم وأخطر أنواعه؛ لأنّها اللفظ الأوضح والمضاد للإيمان به تعالى، والذي اتّفقت كلّ الكتب السماوية وأنبيائها عبر البعثات الإلهية الكثيرة على توحيدهِ والدعوة إلى عبادته وحده عزّ وجلّ، والكُفر هذا هو فعلاً الأصل الرئيس الذي تحدث عنه التنزيل العزيز، وصار يدعو إلى نبذه وتركه؛ لأنّه على النقيض من دعوة السماء إلى كلّ الأمم، وما من رسالة سماوية ولا رسول ولا نبيٍّ إلّا وهدفه الإطاحة بالكُفر وإزالته من أن يكون معتقداً للإنسان فرداً كان أو جماعةً أو أمةً، وبديلاً عن: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^١ ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾^٢ حتى صارت هذه الدعوة هدف كلِّ نبيٍّ ورسولٍ صلوات الله عليهم، فهي دعوة نوح:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَأْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^٣.

وهي دعوة هود:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَأْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^٤.

وهي دعوة صالح:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَأْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^٥.

وهي دعوة إبراهيم: ﴿...إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾^٦.

١. سورة المؤمنون : ٣٢ .

٢. سورة النساء : ٣٦ .

٣. سورة الأعراف : ٥٩ .

٤. سورة هود : ٥٠ .

٥. سورة الأعراف : ٧٣ ؛ سورة هود : ٦١ .

٦. سورة العنكبوت : ١٦ .

وهي دعوة شعيب:

﴿... قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^١.

وهي دعوة عيسى:

﴿... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...﴾^٢.

وهكذا هي دعوة باقي الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^٣.

وهو منهج السماء إلى الناس جميعاً: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^٤، وإلا أنهم

﴿قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾^٥. ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^٦. صحيح أن هذه

الآية جاءت في النبي نوح عليه السلام وفي قومه، والتي تحمل نتيجة تلك الدعوة المباركة، إلا أنها تصلح نتيجة لكل دعوات الرسل والأنبياء، فلم يؤمن بها إلا قليل!

هذا؛ ولكن التنزيل العزيز لم يحصر الكفر بهذا الموضوع على خطورته وأهميته، فقد وسعه ليشمل أنواعاً أخرى؛ يؤدي الكفر بها إلى الكفر بالله أيضاً، وهذا يعني أن هناك كفراً مباشراً وهو الكفر بالله، وهناك ما يؤدي إليه عبر الكفر بآياته؛ الدلائل والبراهين على وحدانيته وخالقيته لكل شيء، ولا خالق غيره، والكفر بملائكته وبما بعث من كتب ومن رسل، وباليوم الآخر، وهي أسس الإيمان:

١. سورة الأعراف : ٨٥ .

٢. سورة المائدة : ٧٣ .

٣. سورة الأنبياء : ٢٥ .

٤. سورة التوبة : ٥٤ .

٥. سورة التوبة : ٧٤ .

٦. سورة هود : ٤٠ .

﴿ءَاْمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ ...﴾^١
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُوْلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي اُنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾^٢

فتوفرت الآيتان المباركتان على ما يجب الإيمان به، وبيّنتا بشكل جليّ: الإيمان بالله، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، وهي من أركان الإيمان، ولا بدّ من الاعتقاد بها، وإلاّ فهو الكفر كما في الآيات التالية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾^٣

وكذا يقع الكفر حين لا إيمان بلقائه تعالى ولا باليوم الآخر:
 ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾
 فأهوال يوم القيامة يُنكرونها؛ فلا يعتقدون بحياة بعد الموت، فلا بعث ولا عقاب ولا ثواب.

* ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾
 * ﴿قَالُوا أَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾
 * ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^٤
 * ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ...﴾

١. سورة البقرة : ٢٨٥ .

٢. سورة النساء : ١٣٦ .

٣. سورة النساء : ١٥٠-١٥١ .

٤. سورة المؤمنون : ٨١ - ٨٣ .

﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾.

﴿هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا مَوْتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.^١

وغاية اعتقادهم وعنادهم في إبطال ذلك أن قال بعضهم لبعض أو قال القادة للأتباع على وجه الاستبعاد وسبيل التعجب والإنكار:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.^٢

يعنون بقولهم هذا محمداً رسول الله ﷺ، أي يزعم أنكم تبعثون بعد أن فرقتم كل تفريق وقطعتم كل تقطيع، وأكلتكم الأرض والسباع والطيور، أو بعد أن تكونوا عظاماً ورفاتاً وتراباً، والجديد المستأنف المعاد والمعنى أنكم يجدد خلقكم بأن تنشروا وتبعثوا. ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

هل كذب على الله متعمداً حين زعم أنا نبعث بعد الموت وهو استفهام تعجب وإنكار!

﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾، أي جنون فهو يتكلم بما لا يعلم؟!^٣

إذن فهم فريق من الناس، من المشركين لا يريدون الاعتراف والاعتقاد بيوم المعاد، فمثل هكذا اعتقاد يقيّد حركتهم؛ ويجعلهم يحاسبون أنفسهم، ويراقبون أنشطتهم في الحياة

١. سورة المؤمنون : ٣٣ - ٣٧ .

٢. سورة سبأ : ٧ .

٣. انظر الآية ٧ سورة سبأ؛ وتفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ بتصرف.

الدنيا، وهم لا يريدون ذلك، ولا يريدون لأنفسهم أن تُبنى وفق ذلك، بل يرفضونه مجرد تصور؛ حتى تبقى أفعالهم وأيديهم وألسنتهم طليقة؛ يفعلون ما يتفق ومصلحتهم، يقولون ما يحلو لأنفسهم؛ فلا من رقيب ولا من حسيب، وبالتالي لا يُحبون لقاء الله تعالى، ففي الآخرة لا فقط أجر وثواب، بل هناك لقاء مبارك تنتظره النفوس المؤمنة؛ فإن «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»!

فلقاء الله تعالى الناس إزاءه فريقان:

* فريق يحب لقاء الله تعالى ويرجو ذلك، ويعمل له صالحاً، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً، وقد جاءت الآية التالية لتبين شرطي تحقق ذلك الرجاء، وحصول ذلك اللقاء والمحبة: العمل الصالح وعدم الشرك بالله تعالى:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^١

يذكرون في سبب نزولها أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني أتصدق وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه، فيسرني ذلك وأعجب به! فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فنزلت الآية.

يقول الشيخ الطبرسي :

أي فمن كان يطمع في لقاء ثواب ربه ويأمله ويقرّ بالبعث إليه والوقوف بين يديه، أو فمن كان يخشى لقاء عقاب ربه. وقيل: إن الرجاء يشتمل على كلا المعنيين الخوف والأمل وأنشد في ذلك قول الشاعر:

فَلَا كُلُّ مَا تَرْجُو مِنَ الْخَيْرِ كَائِنٌ وَلَا كُلُّ مَا تَرْجُو مِنَ الشَّرِّ وَاقِعٌ

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ خالصاً لله تعالى يتقرب به إليه... ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ غيره من ملك أو بشر أو حجر أو شجر.

١. سورة الكهف : ١١٠ .

* فيما هناك فريق يُنكر الآخرة، ويكره ذلك اللقاء المبارك بالله تعالى، وهم أولئك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فيكره الله لقاءهم! ويا له من خسران عظيم وخطير لو كانوا يعقلون! إذن فالكفر كما وردت به آيات قرآنيّة أخرى يحمل الضديّة:

* للإيمان :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾^١

* للشكر :

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^٢

* للإحسان :

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ * بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين^٣

* للعمل الصالح :

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْدُونَ﴾^٤

* للتقوى :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾^٥

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾^٦

فهم فريقا الآخرة: المتقون والكافرون.

١. سورة التغابن : ٢ .

٢. سورة الإنسان : ٣ .

٣. سورة الزمر: ٥٨ - ٥٩ .

٤. سورة الروم: ٤٤ .

٥. سورة الزمر: ٧٣ .

٦. سورة الزمر: ٧١ .

كما أن هناك آيات قرآنية توضح العلاقة بين الكفر وكل من قتل الأنبياء ونقض الميثاق والتكذيب بالآيات:

* ﴿فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^١
* ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾^٢

ظواهر خطيرة :

مما تحدث عنه التنزيل العزيز، وتعطي معنى التغطية والستر وهي من أهم معاني الكفر: (المحود والكتمان والتليس)، وتعدُّ من أخطر وأقبح ما واجهته جميع النبوات ورسالاتها ومنها الرسالة الخاتمة ونبينا الخاتم هو تغطيتها وإخفاء آياتها وأحقيتها بل وكتمان حتى صفات النبي ومناقبه من قبل أعدائها والمناوئين لها؛ كبار قريش وعلماء اليهود والنصارى وغيرهم، وانطلاقاً من المعنى اللغوي لكلمة الكفر وهو التغطية والستر، فهي تلتقي مع المعنى اللغوي لكلمة (كتم) التي تعني الإخفاء والستر والطمس، فإنهم استحقوا وصفهم بالكفر، فكل من كتم أو غطى حقاً أو آيةً من آيات الله تعالى، أو بعثته ونبوته ﷺ، وهم يعلمون بأنه حق، فهو كافر.

وقد غدت من أخطر وأغلب معاني الكفر أسلوباً لمحاربة الرسالة حتى صار ظاهرة في مجتمع مكة والمدينة من قبل رؤساء قريش ورؤساء اليهود، يغطّون ويكتمون ما علموه حقاً، والله تعالى يحثُّ على إظهار الحق وبيانه وإيضاحه، وينهى عن إخفائه وكتمانه وتخليطه؛ والأولى صفة حسنة جميلة يُدّاع بها الحق وتوسع مساحته ويكثر به المؤمنون، فيما الثانية صفة سيئة قبيحة يضيق فيها على الحق وينتشر بسببها الباطل، وتضطرب بها الأمور

١. سورة النساء : ١٥٥ .

٢. سورة التغابن : ١٠ .

وتختلط على الناس...

وقد تناولت آيات قرآنية هذه الظواهر :

التلبيس ... الكتمان ... المجحود، وهي مظاهر الكفر ومعانيه الأكثر شيوعاً وخطورةً،

تناولتها بالنهي عنها، ورفضاً وتوبيخاً لأهلها

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^١

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٢

كتم الشيء كتماناً وكتماناً: ستره وأخفاه... كتم الشيء: بالغ في كتمانته .. فالكتم،

والكتمان: الإخفاء، وضده: الإظهار، ومنه الكتم: ورق يصبغ به الشيب...

وألبس الشيء الشيء: غطّاه، وألبس النبات الأرض والغيم السماء...

اللبس: الخلط، تقول العرب: لبست الشيء بالشيء: خلطته، والتبس به: اختلط،

وقال العجاج:

لما لبسن الحق بالتجنى

وجاء ألبس بمعنى لبس وقال آخر:

وكتيبة ألبستها بكتيبة حتى إذا التبت نفضت لها يدي

وهكذا لبس عليه الحقائق: خلطها وستر حقيقتها وأظهر خلافها، جعلها غير

واضحة، واللبس خلط الأمور بعضها ببعض: نهوا عن أن يخلطوا الحق بالباطل، الصدق

بالكذب، الأمانة بالخيانة...

ولخطورة اللبس هذا فقد تمّ إضلال كثير من الناس على مرّ التاريخ.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «... فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخفَ

١. سورة البقرة : ٤٢ .

٢. سورة آل عمران : ٧١ .

على المرتادين، ولو أن الحقَّ خلص من الباطل، انقطعت عنه ألسنُ المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضِغْثٌ ومن هذا ضِغْثٌ، فيمزجان...»^١.

ولا يقع لبس الحقِّ بالباطل إلا ويكون الحقُّ مكتوماً، وقد نعى الله عليهم كتمهم الحقَّ مع علمهم أنه حقٌّ. فأخبار اليهود وعلماء النصارى ألبسوا على الناس دينهم، وكتبوا ما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ مع أنهم يعلمون أنه الحقُّ الذي جاءت به كتبهم، فنبوته وصفته في كتبهم.. فاللبس والكتمان وكذا المحجود وسائل ضدَّ ما أنزل الله تعالى؛ وما اتصف به رسول الله ﷺ، استخدمهما علماء اليهود والنصارى مثل كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وابن سوريا وزيد بن التابوه وغيرهم في حربهم ضدَّ رسالة السماء التي حملها رسول الله ﷺ فخلطوا لهم الغث بالسمين والسقيم بالسليم حتى ألبسوا على الناس دينهم وكتبوا أمر ﴿...الْنَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾^٢. مثبتاً فيهما... فهم علموا الحقَّ ولكنهم أنكروه، وغطَّوا ما هو ظاهر ومذكور في كتبهم. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^٣.

فأهل الكتاب: أخبار اليهود وعلماء النصارى، إما أنهم كتموا نبوة محمد ﷺ وستره عن الناس وكتبوا أمره؛ وهم ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. وإما أنهم كتموا أن البيت الحرام قبلتهم وقبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء؛ وهم ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، وإما أنهم كتموا الاثنين معاً.

يقول الطبري: وقوله: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ وذلك الحقُّ هو القبلة التي وجه الله عزَّ وجلَّ إليها نبيه محمد ﷺ، يقول: فولَّ وجهك شطر المسجد الحرام التي كانت

١. معاجم اللغة، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ)؛ نهج البلاغة: الخطبة: ٥٠.

٢. سورة الأعراف: ١٥٧.

٣. سورة البقرة: ١٤٦.

الأنبياء من قبل محمد ﷺ يتوجهون إليها. فكتمتها اليهود والنصارى، فتوجه بعضهم شرقاً وبعضهم نحو بيت المقدس، ورفضوا ما أمرهم الله به، وكتموا مع ذلك أمر محمد ﷺ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. فأطلع الله عز وجل محمد ﷺ وأمته على خيانتهم الله تبارك وتعالى، وخبانتهم عباده، وكتمانهم ذلك، وأخبر أنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك على علم منهم بأن الحق غيره، وأن الواجب عليهم من الله جل ثناؤه خلافه فقال: ليكتُمون الحق وهم يعلمون أن ليس لهم كتمان، فيتعمدون معصية الله تبارك وتعالى.

يقول الطبرسي: أخبر الله سبحانه بأنهم يعرفون النبي ﷺ وصحة نبوته فقال ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ أي أعطيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾ وهم العلماء منهم ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي يعرفون محمداً وأنه حق ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾، قيل والضمير في يعرفونه يعود إلى العلم من قوله من العلم يعني النبوة وقيل الضمير يعود إلى أمر القبله أي يعرفون أن أمر القبله حق عن ابن عباس، فإن قيل: كيف قال يعرفونه كما يعرفون آبائهم وهم كانوا يعرفون آبائهم من جهة الحكم ويعرفون أمر النبي ﷺ من جهة الحقيقة؟ قيل: إنه شبه المعرفة بالمعرفة ولم يشبه طريق المعرفة بطريق المعرفة وكل واحدة من المعرفتين كالأخرى وإن اختلف الطريقان: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، إنما خص الفريق منهم؛ لأن من أهل الكتاب من أسلم كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما.^١

وقال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.^٢

يقول أبو حيان: والظاهر أنه أنكر عليهم لبس الحق بالباطل، وكتم الحق، وكأن الحق

منقسم إلى قسمين:

١. تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ): الآية .

٢. سورة آل عمران: ٧١ .

قسم خلطوا فيه الباطل حتى لا يتميز، وقسم كتموه بالكلية حتى لا يظهر.
 ﴿... وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية تنعي عليهم ما التبسوا به من لبس الحق بالباطل
 وكتمانه، أي: لا يناسب من علم الحق أن يكتمه، ولا أن يخلطه بالباطل، والسؤال عن
 السبب سؤال عن المسبب، فإذا أنكر السبب فبالأولى أن ينكر المسبب، وختمت الآية قبل
 هذه بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وهذه بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، لأن المنكر عليهم في تلك هو
 الكفر بآيات الله، وهي أخص من الحق، لأن آيات الله بعض الحق، والشهادة أخص من
 العلم، فناسب الأخص الأخص، وهنا الحق أعم من الآيات وغيرها، والعلم أعم من
 الشهادة، فناسب الأعم الأعم.

وقالوا في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنه نبي حق، وإن ما جاء به من عند الله حق.
 وقيل: قال: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ليتبين لهم الأمر الذي يصح به التكليف، ويقوم عليهم
 به الحجة. وقيل: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الحق بما عرفتموه من كتبكم وما سمعتموه من السنة
 أنبيائكم. وفي هذه الآيات أنواع من البديع. الطباق في قوله: الحق بالباطل، والطباق المعنوي
 في قوله: لم تكفروا وأنتم تشهدون، لأن الشهادة إقرار وإظهار، والكفر ستر.^١
 وهكذا كان موقفهم حين يسألهم المشركون عن رسول الله ﷺ وعن دعوته المباركة.

ففي سبب النزول :

إن رؤساء مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد، أما وجد الله رسولا غيرك؟ أو ما
 نرى أحداً يصدقك فيما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا
 أنه ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد أنك رسول الله كما تزعم، فأنزل الله
 تعالى هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا

١. تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ).

أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^١.

وبالتالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ^٢﴾.

قيل في سبب النزول :

إنَّ المعنيَّ بالآية اليهود والنصارى مثل كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وابن سوريا وزيد بن التابوه وغيرهم من علماء النصارى الذين كتموا أمر محمد ونبوته وهم يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل مثبتاً فيهما عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر أهل العلم.

وقيل: إنه متناول لكل من كتم ما أنزل الله وهو اختيار البلخي وهو الأقوى لأنه أعم فيدخل فيه أولئك وغيرهم.

لقد حثَّ الله سبحانه على إظهار الحق وبيانه، ونهى عن إخفائه وكتمانه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ أي يخفون ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي من الحجج المنزلّة في الكتب ﴿وَالْهُدَىٰ﴾ أي الدلائل؛ فالأول علوم الشرع والثاني أدلة العقل فعمّ بالوعيد في كتمان جميعها.

وقيل: أراد بالبينات الحجج الدالة على نبوته عليه السلام وبألهدى ما يؤدّيه إلى الخلق من الشرائع.

وقيل: البينات وألهدى من الأدلة وهما بمعنى واحد وإنما كرر لاختلاف لفظيهما. ﴿من بعد ما بيّنناه للناس في الكتاب﴾ يعني في التوراة والإنجيل من صفته عليه السلام ومن

١. سورة الأنعام : ٢٠ .

٢. سورة البقرة : ١٥٩ .

الأحكام...

﴿... وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^١

مما ذكر في المراد بهذه الشهادة أن الله تعالى بين في كتابهم صحة نبوة محمد ﷺ والبشارة به، وقيل: المراد بها أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كانوا حنفاء مسلمين، فكتموا هذه الشهادة وادعوا أنهم كانوا على دينهم. فهذه شهادة من الله عندهم كتموها...^٢

وأما مشركو مكة، سواء أكانوا أولئك الذين هم أهل التوراة والإنجيل، أم هم مشركو مكة، فهم يعرفون أنما هو إله واحد لا آلهة متعددة، وأن محمداً ﷺ نبي مبعوث من قبل الله الواحد، وبالتالي فكلا الفريقين ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

فقد أطلقت عليهم مفردة (الكفر)، نظراً لتغطيتهم على الحق الذي عرفوه، ولأنهم لا فقط كتموا ما علموه، بل صدّوا الناس عنه، وشوّهوه، وقتلوا أتباعه بدءاً برسول الله ﷺ الذي خبروه وعرفوه بالصدق والأمانة، فهذا عمرو بن هشام كبيرهم، وقد كان يُكنى بأبي الحكم، فكناه النبي ﷺ أبا جهل؛ لسوء مواقفه منه ولشدة عداوته وإيذائه له ولمن أسلم، وصفه التنزيل بالكفر وهو وصف دقيق بسبب ما كان يعتزل في صدره من كتمان للحق الذي نزل على قلب النبي ﷺ عناداً وجحوداً واستكباراً ودفاعاً عن مصالحهم وتسلطهم، حتى مع وضوحه أمام عينيه وأعين أتباعه من مشركي قريش، انظره في مواقفه الظالمة لرسول الله ﷺ وتنكره لدعوته، وكان من مواقفه العديدة؛ أن طاف بالبيت ذات ليلة، وكان معه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ.

فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق! فقال له: مه! وما ذلك على ذلك؟! قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تمّ عقله وكمل رشده

١. سورة البقرة: ١٤٠.

٢. انظر تفسير مجمع البيان، للطبرسي: الآيتان. بتلخيص.

نسميه الكذاب الخائن؟ والله إني لأعلم أنه لصادق!

قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟

قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة،

واللات والعزى، لا أتبعه أبداً فنزلت:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ

وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^١

وللبحث صلة...



١. سورة الجاثية : ٢٣ .





فضائل الحرمين الشريفين

في تراث أهل البيت عليهم السلام (١٣)

محمد علي المقدادي

تمهيد:

بفضل من الله سبحانه وتعالى نواصل ما ذكرناه في الأعداد السابقة: (٣٧ إلى ٤٨) من هذه المجلة حول ما يتعلق بفضائل حرمي مكة والمدينة، اللذين احتلت فضائلهما وأحكامهما وآدابهما مساحةً واسعةً في التراث الإسلامي، وعند جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، وبالذات فيما وصل إلينا من أحاديث أهل البيت عليهم السلام، والتي تتميز بأنها الأفضل والأصح؛ لأنها تصدر عن الثقل الثاني بعد التنزيل العزيز، اللذين هما مصدر العقيدة والتشريع، وفقاً

لما جاء به الحديث النبوي المعروف بحديث الثقلين، الذي رواه أصحاب الصحاح والمسانيد عن النبي الأكرم ﷺ بألفاظ عديدة لكنها متقاربة، منها: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله؛ وعترتي أهل بيتي»^١.
«إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^٢.

وكيف لا تتوفر للحرمين تلك المساحة اللاتقة، وهما يشكلان وجودين مباركين في حياة المسلمين في دينهم ودنياهم؛ لما يتمتعان به من خصائص نفتقدها في غيرهما، ولما أسند إليهما من دور في بناء الإنسان المسلم روحياً وأخلاقياً واجتماعياً...، ولما سنّ لهما وخاصةً للحرم المكي بمواقيته المتعددة من شرائع ومناسك وآداب بين ما يجب على المسلم أدائه، وما ينبغي ويستحب له ذلك، حين تواجهه فيهما في فريضة أو مستحب يؤديه، وأيضاً لفريضة الحج، وهي السبب الأهم، حين أذن لها نبي الله إبراهيم عليه السلام، بأمر من الله سبحانه وتعالى، فأحيا به هذه البلاد يوم أن بث فيها الخير والعطاء، وغدا الناس يأتونها من كل مكان في عالمنا قديماً وحديثاً، ومنذ ذلك الوقت الذي شرع فيه منسك الحج المبارك، وصار يؤديه أنبياء وصالحون...، وما زال وسيبقى هذا المنسك يتوجه نحوه المسلمون والمؤمنون لأدائه، حتى يأذن الله تعالى بنهاية دار الابتلاء والتكاليف، فينتقل الجميع إلى دار الجزاء والأجر والثواب؟!

فقداسة الحرمين الشريفين «مكة المكرمة و المدينة المنورة» وما لهما من وظائف جليلة،

١. كمال الدين، الشيخ الصدوق : ٢٣٨؛ بحار الأنوار ٢٩ : ٣٤٠؛ مسند الرضا عليه السلام، داود بن سليمان الغازي : ٢٠٣.

٢. أنظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ للشيخ منصور علي ناصف، من علماء الأزهر الشريف ١: ٤٧؛ كتاب الإسلام والإيمان. ٣: ٣٤٨ كتاب الفضائل، وغيره من المصادر.

أمرٌ أجمع عليه أهل التوحيد، مما جعلهما محلّ اهتمام أحاديث كثيرة ومواقف جليّة لأهل البيت عليه السلام، وهم الأدرى بفضائل هذين الحرمين، وما لهما من دور كبير ومبارك في حياة المسلمين في البناء الإيماني لهم، أو الروحي والأخلاقي، فضلاً عما تتركه مناسك الحج واجتماعه السنويّ الحاشد من آثار في ثقافتهم، وتوحيد صفوفهم، وما يتمخض من منافع جليّة.. وقد شكلت تلك الأحاديث والأقوال والمواقف تراثاً كبيراً، صار مورد عناية ودراسة من قبل المسلمين، وبالذات أتباع مدرسة أهل البيت عليه السلام، على المستوى الفقهي والروحي والخلقي... ونحن هنا نقتبس ما يتيسر لنا منه، وبما يتعلق بفضائل هذين الحرمين المباركين مكة والمدينة، وقد نشرناه - والحمد لله تعالى - على شكل حلقات في هذه المجلة.



٢٧ - ٢. فيمن دفن بالبقيع :

عبدالله بن مسعود

أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن عامل بن حبيب الهذلي، جليل القدر، كبير الشأن، عظيم المنزلة، كان من فقهاء الصحابة، وأحد حفاظ القرآن، قرأ القرآن والسنة، روي أنه أخذ سبعين سورة من القرآن من في رسول الله صلى الله عليه وآله، وبقيته من أمير المؤمنين عليه السلام. كان مع النبي صلى الله عليه وآله ليلة الجن وأنه صلى القبلتين وشهد بدرأً واحداً والخنديق وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وشهد يرموك بعد النبي صلى الله عليه وآله وبعثه عمر إلى الكوفة ليقراءهم القرآن، ويعلمهم الشرائع والأحكام، فكتب إلى أهلها: «إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله من أهل بدر، فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي». فبث عبد الله فيهم علماً كثيراً وفقه منهم جداً غفيراً. وكان من الذين شهدوا جنازة أبي ذر وباشروا تجهيزه. وهو من المعروفين بولاية أهل البيت، وشهد الصلاة على فاطمة عليها

السلام ودفنها. وكان من الذين أنكروا على أبي بكر خلافته. ونكيره على الثالث [عثمان بن عفان] وما جرى عليه من الضرب والإهانة مسطور في السير والتواريخ. مات سنة ٣٢ الهجرية، وصلى عليه الزبير بن العوام ودفن بالبقيع، وله أخ يقال له: عتبة بن مسعود، كان قديم الإسلام، ولكن لم يرو عن النبي ﷺ. ومات في خلافة عمر.^١

عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، من أكابر الصحابة وهو من أهل مكة، ومن المقربين من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن الكريم بمكة، وكان خادماً رسول الله الأمين، يدخل عليه كل وقت، وكان له مصحف يعرف باسمه، ويقال: إنه نظر إليه عمر يوماً وقال: وعاء ملئ علماً، ولي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بيت مال الكوفة، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً، وكان قصيراً جداً، يكاد الجلوس يوارونه، وكان يحب الإكثار من التطيب، فإذا خرج من بيته عرف جيران الطريق أنه مرّ، من طيب رائحته.^٢

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمع بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل الهذلي، الكوفي، حليف بني زهرة، وأمّه أم عبد بنت عبدود بن سواد، وكان يعرف بابن مسعود، وابن أم عبد. صحابي جليل، ومن الرعيل الأول الذين أسلموا، وقيل: كان سادس ستة منهم. كان أول من جهر بقراءة القرآن بمكة بعد النبي ﷺ، وحفظ القرآن، وأصبح من مشاهير حفاظه وقُرّائه. قام بخدمة النبي ﷺ، ويقال: شهد له بالجنة. كان من رعاة أهل مكة.

هاجر إلى الحبشة والمدينة المنورة، وصلى القبلتين، وشهد مع النبي بدرًا وما بعدها

١. تحف العقول عن آل الرسول ﷺ: ٤٢٨، الهامش.

٢. تفسير جوامع الجامع، الفيض الكاشاني رحمه الله: ١: ٩٧ نقلاً عن الإصابة: ت ٤٩٥٥؛ وغاية النهاية ١: ٤٥٨؛ والبدء والتاريخ ٥: ٩٧؛ وصفة الصفوة ١: ١٥٤؛ وحلية الأولياء ١: ١٢٤.

من المشاهد، وشهد بعد النبي واقعة اليرموك. روى عن النبي أحاديث، وروى عنه جماعة، وعُرف بحفظ أحاديث النبي. في أيام حكومة عمر بن الخطاب تولّى إمارة الكوفة، ولم يزل عليها حتّى أيام حكومة عثمان بن عفان، فعزله وأمره بالعودة إلى المدينة. كان من نفر القليل الذين حضروا الصلاة على جنازة فاطمة الزهراء عليها السلام، وشهد جنازة أبي ذر الغفاري وباشروا تجهيزه. كان من الذين أنكروا خلافة أبي بكر.

اختلف العلماء في ولائه للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته، فمنهم من قال: كان موالياً لأعدائهم ومناوئهم، ومنهم من قال: كان معروفاً بولائه لهم. آخى النبي صلى الله عليه وآله بينه وبين الزبير بن العوام. قال النبي في حقّه: من أراد أن يسمع القرآن غضاً فليسمعه من ابن أمّ عبد. أنكر على عثمان بن عفان خلافته وتصرفاته، وكان يقول: إنّه سمع النبي صلى الله عليه وآله يُصرّح بأن عثمان من أهل النار.

فكان يلعن عثمان وينتقصه، فأمر عثمان بضربه وإهانته، وقيل: اشترك في قتله. توفي بالمدينة المنورة، وقيل: بالكوفة سنة ٣٢ هـ، وقيل: سنة ٣٣ هـ، ودُفن في البقيع، وكان عمره يوم توفيّ بضعا وستين سنة... اتفق هو وجماعة أن يترهبوا ويتركوا أهلهم ويمتنعوا عن أكل الطيبات والنوم والراحة، وانكبوا على الصلاة والصيام، فنزلت فيهم الآية ٨٧ من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾^١

عبد الله بن مسعود: من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، (رجال الشيخ). سئل الفضل بن شاذان عن ابن مسعود وحذيفة، فقال: لم يكن حذيفة مثل ابن مسعود، لأنّ حذيفة كان زكياً وابن مسعود خلط ووالى القوم ومال معهم وقال لهم، (رجال الكشي).^٢

عبدالله بن مسعود، قاتلُ أبي جهل :

١. أعلام القرآن حرف العين ٣ / ٢٦ : ١ .

٢. نقد الرجال، التفرشي ٣ : ١٤٢ .

...انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحط بدمه فقلت: الحمد لله الذي أخزأك، فرفع رأسه. فقال: إنما أخزى الله عبداً ابن أم عبد لمن الدين؟ ولمن الملك، ويملك؟ قلت: لله ولرسوله وإني قاتلك ووضعت رجلي على عنقه، فقال: قد ارتقيت مرتقياً صعباً يا رويحي الغنم، أما إنه ليس شيء أشد من قتلك إياي في هذا اليوم ألا يتولى قتلي رجل من المطلبين أو رجل من الأحلاف؟ فانقلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله البشرى هذا رأس أبي جهل بن هشام. فسجد لله شكراً.^١

عبدالله بن مسعود قد روى :

حدثنا أبي رحمه الله، قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن عبد الله بن سنان، عن محمد بن المنكدر، قال: مرض عون بن عبد الله بن مسعود فأتيته أعوده، فقال: أفلا أحدثك بحديث عن عبدالله بن مسعود؟ قلت: بلى. قال: قال عبد الله: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ تبسم، فقلت: ما لك يا رسول الله تبسم؟ قال: عجبت من المؤمن وجزعه من السقم، ولو يعلم ما له في السقم من الثواب لأحب أن لا يزال سقيماً حتى يلقي ربه عز وجل.^٢

عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الأئمة بعدي اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين والتاسع مهديهم».^٣
عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيعجز أحدكم أن

١. تفسير الصافي ٢ : ٣٣٣ .

٢. الأمالي، الشيخ الصدوق : ٥٩٠ .

٣. كفاية الأثر، الخزاز القمي : ٢٣ .

يقرأ كل ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: ومن يطيق ذلك؟ قال: قل هو الله أحد ثلث القرآن»^١.

وعن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة»^٢.

الطبرسي في مكارم الأخلاق: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا بن مسعود، لا تكونن ممن يهدي الناس إلى الخير ويأمرهم بالخير، وهو غافل عنه، يقول الله تعالى: ﴿اتَّأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، إلى أن قال عليه السلام: يا بن مسعود، فلا تكن ممن يشدد على الناس ويخفف على نفسه، يقول الله تعالى: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»^٣.

عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من زعم أنه آمن بي وبما جئت به، وهو يبغض علياً، فهو كاذب ليس بمؤمن»^٤.

عن عبد الله بن مسعود قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي والحسن والحسين عليهما السلام يصعدان على ظهره»^٥.

عن عبد الله بن مسعود قال: «أمر علي عليه السلام بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»^٦.

دعوات الراوندي: [عن عبدالله بن مسعود] قال النبي صلى الله عليه وآله: «ما

١. وسائل الشيعة ٦ : ٢٢٥ .

٢. مستدرک الوسائل، النوري الطبرسي ٤ : ٣٨٧ .

٣. مستدرک الوسائل، النوري الطبرسي ١٢ : ٢٠٢ .

٤. الأمالي، الشيخ الطوسي : ٢٤٩ .

٥. معجم الرجال والحديث، الأنصاري ٢ : ١٢٦ .

٦. معجم الرجال والحديث، الأنصاري ٢ : ١٨٢ .

أصاب أحداً همٌّ ولا حزنٌ فقال: «اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسئلك بكل اسم سميت به نفسك، وأنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي»، إلا أذهب الله همه، وأنزل مكانه فرحاً.^١

وروي أن عبد الله بن مسعود لما بلغه خبر نفى أبي ذر إلى الريدة وهو إذ ذاك بالكوفة؛ قال في خطبة بمحفل من أهل الكوفة: فهل سمعتم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾، يعرض بذلك بعثمان فكتب الوليد بذلك لعثمان فأشخصه من الكوفة فلما دخل مسجد النبي صلى الله عليه وآله أمر عثمان غلاماً له أسود، فدفع ابن مسعود وأخرجه من المسجد ورمى به الأرض وأمر بإحراق مصحفه وجعل منزله حبسه وحبس عنه عطاءه أربع سنين إلى أن مات.^٢

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «خلقت الأرض لسبعة بهم يرزقون، وبهم يظرون، وبهم ينصرون: أبوذر، وسلمان، والمقداد، وعمار، وحذيفة، وعبد الله بن مسعود، قال عليه السلام: وأنا إمامهم، وهم الذين شهدوا الصلاة على فاطمة عليها السلام».^٣

ثم إنه قد اعتنى علماء العامة بشأنه، وهو متسلم عليه عندهم في الفضل والتقوى، قال ابن حجر في تقريبه: «عبد الله بن مسعود بن غافل (بمعجمة وفاء) ابن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن، من السابقين الأولين، ومن كبار العلماء من الصحابة، مناقبه جمّة وأمره عمر على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين أو في التي بعدها بالمدينة».

أقول: على هذا الأساس أثني عليه السيد المرتضى في الشافي، واستدل برواياته على

١. بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٩٢ : ٢٧٩ .

٢. الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، السيد علي خان المدني الشيرازي : ٢٥٠ .

٣. مستدركات علم رجال الحديث، الشيخ علي النمازي الشاهرودي ١ : ٢٦ .

المخالفين جدلاً^١

يونس بن يعقوب :

يونس بن يعقوب، قال: دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام، قال: فقلت له: جعلت فداك إن أباك كان يرق عليّ ويرحمني فإن رأيت أن تنزلي بتلك المنزلة فعلت، قال: فقال لي: يا يونس إني دخلت على أبي وبين يديه حيس أو هريسة، فقال لي: أدن يا بني فكل من هذا، هذا بعث به إلينا يونس إنه من شيعتنا القدماء، فنحن لك حافظون». قال أبو النضر: سمعت علي بن الحسن يقول: مات يونس بن يعقوب بالمدينة فبعث إليه أبو الحسن الرضا عليه السلام بجنوطه وكفنه وجميع ما يحتاج إليه، وأمر مواليه وموالي أبيه وجده أن يحضروا جنازته، وقال لهم: هذا مولى لأبي عبدالله عليه السلام كان يسكن العراق، وقال لهم: إحفروا له في البقيع فإن قال لكم أهل المدينة: إنه عراقي ولا ندفنه في البقيع، فقولوا لهم: هذا مولى لأبي عبدالله عليه السلام وكان يسكن العراق، فإن منعتمونا أن ندفنه بالبقيع منعناكم أن تدفنوا مواليكم في البقيع، فدفن في البقيع، ووجه أبو الحسن علي بن موسى عليه السلام إلى زميله محمد بن الحباب...^٢

يونس بن يعقوب بن قيس أبوعلى الجلاب البجلي الدهني الكوفي مولى نهد، له كتب وكان ثقة يتوكل لأبي الحسن عليه السلام واختص بأبي عبدالله صلوات الله عليه، ومات في أيام أبي الحسن الرضا عليه السلام بالمدينة فبعث إليه أبو الحسن عليه السلام بجنوطه وكفنه وجميع ما يحتاج إليه، وأمر مواليه وموالي أبيه أن يحضروا جنازته، وأمر محمد بن الحباب أن يصلي عليه وقال: إحفروا له في البقيع وإن منعكم أهل المدينة وقالوا: إنه عراقي لا ندفنه في البقيع فقولوا لهم: هذا مولى أبي عبدالله عليه السلام وكان يسكن العراق، فإن منعتمونا أن ندفنه بالبقيع

١. معجم رجال الحديث، السيد الخوئي ١١ : ٣٤٦ .

٢. خاتمة المستدرک، الميرزا حسين النوري ٥ : ٣٩٤ .

منعناكم أن تدفنوا موالیکم، فدفن في البقیع، وروی الکشی بإسناده عن محمد بن الولید قال: رآنی صاحب المقبرة - وأنا عند القبر بعد ذلك - فقال: من هذا الرجل؟ فإنّ أبا الحسن علي بن موسى عليه السلام أوصاني به، وأمرني أن أرش قبره شهراً أو أربعين يوماً في كلّ يوم، وقال لي أيضاً: إن سریر رسول الله صلى الله عليه وآله عندي، فإذا مات رجل من بني هاشم صر السریر - أي صوت - فأقول أيهم مات؟ حتى أعلم بالغداة، فصر السریر في الليلة التي مات فيها یونس، فقلت: لا أعرف أحداً من بني هاشم مريضاً فمن ذا الذي مات؟ فلما أن كان الغد جاؤوا فأخذوا السریر مني وقالوا: مولی لأبي عبد الله عليه السلام مات كان یسكن العراق، وبالجملّة كانت أمه أخت معاوية بن عمار وإسمها منیة بنت عمار.^١

مات یونس بن یعقوب بالمدينة، فبعث إليه أبو الحسن الرضا علیه السلام بحنوطه وكفنه وجميع ما يحتاج إليه، وأمر موالیه وموالي أبيه وجده أن یحضروا جنازته، وقال لهم: هذا مولی لأبي عبد الله علیه السلام وكان یسكن العراق، وقال لهم: إحفروا له في البقیع، فإن قال لكم أهل المدينة إنه عراقي ولا ندفنه في البقیع، فقولوا لهم: هذا مولی لأبي عبد الله عليه السلام وكان یسكن العراق، فإن منعتونا أن ندفنه في البقیع منعناكم أن تدفنوا موالیکم في البقیع، فدفن في البقیع، ووجه أبو الحسن علي بن موسى إلى زميله محمد بن الحباب وكان رجلاً من أهل الكوفة، فقال: صلّ علیه أنت. علي بن الحسن قال: حدثني محمد بن الولید قال: رآنی صاحب المقبر؟ وأنا عند القبر بعد ذلك، فقال لي: من هذا الرجل صاحب هذا القبر؟ فإنّ أبا الحسن علي بن موسى عليهما السلام أوصاني به وأمرني أن أرش قبره أربعين شهراً أو أربعين يوماً.^٢

یونس بن یعقوب بن قیس أبو علي الجلاب البجلي الدهني أمه منیة بنت عمار بن أبي معاوية الدهني أخت معاوية بن عمار. اختص بأبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام،

١. الغيبة النعماني ٦ : ٤ .

٢. بحار الأنوار ٧٩ : ٢٦ نقلاً عن التهذيب ١ : ١٣٠ ؛ رجال الکشي : ٣٣٠ .

وكان يتوكل لأبي الحسن عليه السلام، ومات بالمدينة في أيام الرضا عليه السلام، فتولى أمره. وكان حظياً عندهم، موثقاً. وكان قد قال بعبد الله ورجع. له كتاب الحج. أخبرنا أحمد بن محمد، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد قال: حدثنا محمد بن الفضل بن إبراهيم الأشعري قال: حدثنا الحسن بن فضال عن يونس بكتابه.^١

حدثني أحمد بن محمد، عن موسى بن طلحة، عن أبي محمد أخي يونس بن يعقوب، عنه، قال: كنت بالمدينة فاستقبل جعفر بن محمد عليهما السلام في بعض أزقتها، قال، فقال: «أذهب يا يونس فإنَّ بالباب رجلاً منا أهل البيت». قال: فجئت إلى الباب فإذا عيسى بن عبد الله القمي جالس، قال: فقلت له من أنت؟ فقال له: أنا رجل من أهل قم، قال: فلم يكن بأسرع من أن أقبل أبو عبد الله عليه السلام، قال: فدخل على الحمار الدار، ثم التفت إلينا فقال: «أدخلا». ثم قال: يا يونس بن يعقوب أحسبك أنكرت قولي لك أن عيسى بن عبد الله منا أهل البيت! قال قلت: أي والله جعلت فداك لأنَّ عيسى بن عبد الله رجل من أهل قم. فقال: «يا يونس! عيسى بن عبد الله هو منا حي وهو منا ميت».^٢

يونس بن يعقوب بن قيس، أبو علي الجلاب البجلي الدهني. اختلف علماؤنا فيه: فقال الشيخ الطوسي رحمه الله: إنه ثقة، مولى نهد، له كتب، وعدله في عدة مواضع. وقال النجاشي: إنه اختص بأبي عبد الله عليه السلام وأبي الحسن عليه السلام وكان يتوكل لأبي الحسن عليه السلام، ومات في المدينة قريباً من الرضا عليه السلام فتولى أمره وكان حظياً عندهم موثقاً، وكان قد قال بعبد الله، ثم رجع.

وقال أبو جعفر بن بابويه: إنه فطحي، هو وأخوه يوسف. قال الكشي: حدثني حمدويه، عن بعض أصحابنا أن يونس بن يعقوب فطحي كوفي، مات بالمدينة، وكفنه الرضا عليه السلام.

١. رجال النجاشي : ٤٤٦ .

٢. اختيار معرفة الرجال، الشيخ الطوسي ٢ : ٦٢٤ .

وروى الكشي أحاديث حسنة تدل على صحة عقيدة هذا الرجل، والذي أعتمد عليه قبول روايته.^١

وقال صاحب المقبرة: إنَّ السرير صر عندي - أي سرير النبي ﷺ - وكان يصير إذا مات هاشمي، فلما كان من الغد أخذوا السرير من صاحب المقبرة وقالوا: مولى لأبي عبد الله عليه السلام كان يسكن العراق. (هذه العبارة ملخصة من الحديث، وفيها إجمال، وعبارة الحديث في الكشي هكذا: قال لي صاحب المقبرة: إنَّ السرير عندي - يعني سرير النبي ﷺ - فإذا مات رجل من بني هاشم صر السرير، فأقول: أيهم مات حتى أعلم بالغداة، فصر السرير في الليلة التي مات فيها هذا الرجل، فقلت: لا أعرف أحداً منهم مريضاً، فمن الذي مات؟ فلما كان من الغد جاؤوا فأخذوا مني السرير وقالوا: مولى لأبي عبد الله عليه السلام كان يسكن العراق. وروى أنَّ الرضا عليه السلام قال له: لا والله ما أنت عندنا بميتهم، إنما أنت رجل منا أهل البيت، فجعلك الله مع رسوله وأهل بيته، فاعل ذلك أن شاء الله.

الطريق: علي بن محمد، عن محمد بن أحمد، عن محمد بن عبد الحميد، عن يونس بن يعقوب.

وروى عن الرضا عليه السلام أنه قال: «أليس مما صنع الله ليونس أن نقله من العراق إلى جوار نبيِّه عليه السلام».

الطريق: علي بن الحسن، عن محمد بن الوليد، عن صفوان بن يحيى، عن الرضا عليه السلام.

وروى في مثل هذا الحديث السابق عن الرضا عليه السلام في جواب كتاب كتبه إليه: يا سيدي، فقال عليه السلام للرسول: قل لي: إنك أخي.

حديث أنقله بصورته: علي بن الحسن، عن عباس بن عامر، عن يونس بن يعقوب

١. خلاصة الأقوال، العلامة الحلي: ٢٩٨.

قال: كتبت إلى أبي عبد الله عليه السلام أسأله أن يدعو الله لي أن يجعلني ممن ينتصر به لدينه، فلم يجبني فاعتصمت لذلك، قال يونس: فأخبرني بعض أصحابنا أنه كتب إليه بمثل ما كتبت (في خطه "كتب" في الموضعين، ولا ريب أن الثانية من سبق القلم) إليه، فأجابه وكتب في أسفل جوابه: «يرحمك الله، إنما ينتصر الله لدينه بشر خلقه».

قلت: لعل تركه الجواب لعلمه عليه السلام بأن الوقت غير صالح لطلب هذا المعنى أو لغير ذلك من الأسباب، وأما ما حكاه عن بعض أصحابه فيرده ما رواه الشيخ أبو جعفر الكليني، عن أبي علي الأشعري، عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قل «اللهم أوسع عليّ في رزقي وامدد لي في عمري واغفر لي ذنبي واجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري».

أقول: إنه يبعد مع مجموع ما رويت أن يكون المشار إليه فطحيّاً، والرواية التي بدأت بذكرها أولاً ضعيفة [وهي] الشاهدة بكونه فطحيّاً.^١

وذكر الكشي أيضاً أحاديث حسنة تدل على صحة عقيدته.

وقال العلامة في الخلاصة: والذي اعتمد عليه قبول روايته.^٢

أقول: ولا يخفى أنه لو كان فطحيّاً ومنحرفاً، لما صدرت له تلك الأوامر من ناحية الإمام الرضا عليه السلام حتى بعد موت يونس، وهذا يدل بأن يونس بن يعقوب كان رجلاً مؤمناً و كان له عقيدة صحيحة، وقد مات رحمه الله على تلك العقيدة الصحيحة.

جابر بن عبد الله الأنصاري :

كان جابر وعطية كلاهما من كبار الشيعة، جاءوا إلى كربلاء في الأربعين الأولى من

١. التحرير الطاووسي، حسن بن زين الدين العاملي: ٦٢٠.

٢. نقد الرجال، التفرشي ٥ : ١١٣.

بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام لزيارته، ولد جابر في المدينة قبل خمس عشرة سنة من الهجرة، وهو من قبيلة الخزرج، كان هو وأبوه عبد الله بن حزام من السابقين إلى الإسلام، قتل أبوه في معركة أحد، شهد بدرًا وثماني عشرة غزوة مع النبي صلى الله عليه وآله، وشهد صفين مع علي بن أبي طالب.^١

أصيب هذا المحدث الشيعي الكبير بالعمى في أواخر عمره، وسار على هذا الحال برفقة عطية العوفي إلى كربلاء لزيارة قبر الحسين عليه السلام. واغتسل في ماء الفرات وتطيب واتجه إلى القبر، وتكلم هناك بكلام يثير الحزن والأسى، وجاء فيه: حبيب لا يحجب حبيبه. ثم إلتفت إلى أطراف القبر وسلم على سائر الشهداء. وفي طريق العودة، قال لعطية من جملة ما قاله: «أحبّ محبّ آل محمد ما أحبّهم، وأبغض مبغض آل محمد ما أبغضهم. وإن كان صوّاماً وقوّاماً».^٢

كان جابر يبحث في شوارع المدينة عن الإمام الباقر عليه السلام، ولمّا لقيه أبلغه سلام رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وهو من الأواخر الذين بقوا على قيد الحياة ممن شهد بيعة العقبة، وفي زمن الحجاج وشتم بدنه بالنار بتهمة موالاته أهل البيت.^٣

ومات جابر في أيام عبد الملك بن مروان في سنة ٧٨ هـ. وهو ابن نيف وتسعين سنة وقد ذهب بصره. ودفن في البقيع.^٤

عماد الدين الطبري في بشارة المصطفى: عن محمد بن شهریار، عن محمد بن محمد البرسي، عن محمد بن الحسين القرشي، عن أحمد بن أحمد بن حمران، عن [إسحاق بن]

١. سفينة البحار ١: ١٤١.

٢. بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٦٥: ١٣٠، ٩٨: ١٩٥.

٣. الغدير، العلامة الأميني ١: ٢١.

٤. مروج الذهب ٣: ١١٥؛ الغدير ١: ٢١؛ موسوعة عاشوراء، جواد المحدثي ١: ١٤٣.

محمد بن علي المقرئ، عن عبيد الله بن (محمد الأيادي) عن عمر بن مدرك، عن محمد بن زياد المكي، عن جرير بن عبد الحميد، عن الأعمش، عن عطية العوفي، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال في حديث: يا عطية، سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: «من أحب قوماً حشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم»، الخبر.^١

ليعلم أن جابر بن عبد الله الصحابي الأنصاري مشترك بين الاثنين، وقد التبس الأمر فيهما على غير واحد ممن لم يتمهر في المعرفة بأحوال الرجال، بل على بعض من تمهر أيضاً، فها أبو عبد الله الذهبي من العامة قد وقع في هذا الالتباس، وكذلك بعض من الخاصة.

أحدهما: الصحابي المشهور الكبير العظيم الشأن من عظماء الصحابة، وهو الذي نحن في ترجمته وبيان حاله، جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام بن ثعلبة الأنصاري العقبي، شهد العقبة مع السبعين وكان أصغرهم، كنيته أبو عبد الله وقيل أبو عبد الرحمن قاله ابن عبد البرقي كتاب الصحابة، وابن الأثير في جامع الأصول وعلو مرتبته في صحة العقيدة واستقامة الطريقة وخلوص الانقطاع عن الأقوام إلى أهل البيت صلى الله عليهم مما لا امتراء فيه.

قال الشيخ رحمه الله في كتاب الرجال في باب الصحابة: جابر بن عبد الله بن عمر بن حزام نزل المدينة شهد بدرًا وثمان عشرة غزوة مع النبي صلى الله عليه وآله، مات سنة ثمان وسبعين.

حزام باهمال الحاء المكسورة قبل الزاء قاله في القاموس وغيره، وهو الصحيح، وضبطه بعضهم بالراء بعد الحاء المفتوحة.

وقال الشيخ في باب أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام: جابر بن عبد الله الأنصاري العرني الخزرجي. بالراء المفتوحة بين العين المهملة المضمومة والنون نسبة إلى العرنة، وقيل:

١. بحار الأنوار ٩٨ : ١٩٦ ؛ مستدرك الوسائل ١٢ : ١٠٨ .

إلى العرينية بطن من بجيلة.

في المغرب: عرنة واد مجزاء عرفات، وبتصغيرها سميت عرينية، وهي قبيلة ينسب إليها العرينيون.

وفي القاموس: العرينة كجهينة، منهم العرينيون المرتدون، وبطن عرنة كهزمة بعرفات، وليس من الموقف.

وقال الشيخ في أصحاب أبي محمد الحسن بن علي عليهما السلام: جابر بن عبد الله الأنصاري.

وكذلك في أصحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وقال في أصحاب سيد الساجدين أبي محمد علي بن الحسين عليهما السلام: جابر بن عبد الله بن حزام الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقال في أصحاب أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام أبو عبد الله الأنصاري صحابي.

وقال رحمه الله تعالى في مصباح المتعبد في زيارة الأربعين وهو العشرون من صفر: في يوم العشرين منه كان رجوع حرم سيدنا أبي عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام من الشام إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، وهو اليوم الذي ورد فيه جابر بن عبد الله بن حزام الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة إلى كربلاء لزيارة قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وكان أول من زاره من الناس، وتستحب زيارته عليه السلام وهي زيارة الأربعين.

قلت: ما قاله الشيخ رحمه الله أنه رضي الله تعالى عنه شهد بدرأً هو الأصح.

وقال ابن عبد البر: وأراد جابر شهود بدر فخلفه أبوه على أخواته وكن تسعاً وخلفه أبوه يوم أحد أيضاً وشهد ما بعد ذلك، وكان له من الولد عبد الرحمن ومحمد وحميد وميمونة وأم حبيب، ومات سنة ثمان وسبعين وهو ابن أربع وتسعين.

وقال أبو الحسن المسعودي في مروج الذهب: مات جابر بن عبد الله الأنصاري في

أيام عبد الملك بن مروان بالمدينة ، وذلك في سنة ثمان وسبعين، وقد ذهب بصره وهو ابن نيف وتسعين سنة، وقد كان قدم إلى معاوية بدمشق فلما اذن له قال يا معاوية: أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من حجب ذا فاقة وحاجة حجه الله، يوم فاقتنه وحاجته»، فغضب معاوية وقال: وأنت قد سمعته يقول : «انكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تردوا علي الحوض»، فهلا صبرت.

قال: ذكرتني ما نسيت، وخرج فاستوى على راحلته، ومضى فوجه إليه معاوية بستمائة دينار، فردّها وقال لرسوله: قل يا بن آكلة الأكباد: والله لا وجدت في صحيفتك سنة أنا سببها أبداً انتهى كلام مروج الذهب.

وفي الكشف: في قوله عز سلطانه آخر سورة يونس ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: انكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني، يعني أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة.

قال أنس: فلم نصبر، وروي أن أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه فقال له: مالك لم تتلقنا؟ فقال: لم يكن عندنا دواب فقال: أين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا معشر الأنصار انكم ستلقون بعدي أثرة، قال معاوية فماذا قال؟ قال: فاصبروا حتى تلقوني قال: فاصبروا، قال : اذن نصبر فقال عبد الرحمن ابن حسان:

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير الظالمين ثنا كلامي
بأننا صابرون فمنظروكم * إلى يوم التغابن والخصام

انتهى كلام الكشف.

وثانيهما : جابر بن عبد الله بن رآب السلمي الأنصاري.

وذكره الشيخ رحمه الله تعالى في كتاب الرجال في عداد الصحابة بعد جابر بن

عبد الله بن عمرو بن حزام فقال: جابر بن عبد الله بن رثاب السلمي سكن المدينة، روى عن أنس حديثين كنيته أبو ياسر. رثاب بالراء المكسورة والهمزة بعدها. في القاموس: رأب الصدع كمنع، أصلحه وأشعبه كأرتابه، ورثاب ككتاب، والد هارون بن رثاب الصحابي البصري، ورثاب بن عبد الله المحدث، وجد جابر ابن عبد الله الصحابي، وجد زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنهم. والسلمي بإهمال السين المفتوحة وكسر اللام. في المغرب: السلمة - بفتح السين وكسر اللام - الحجر، وبها سمي بنو سلمة بطن من الأنصار.

قوله رحمه الله: عن أبي الزبير المكي الطريق إلى أبي الزبير صحيح، وأبو الزبير المكي معروف الرواية عن جابر رضي الله تعالى عنه، ومعاوية بن عمار معروف الرواية عنه، وكذلك فضيل بن عثمان.

قال الذهبي في مختصره: جابر بن عبد الله السلمي عقي، عنه بنوه محمد وعبد الرحمن وعقيل وابن المنكدر وأبو الزبير وخلق، مات ٧٨.

وقال معاوية بن عمار الدهني، ودهن بالضم حي من بجيلة، ويقال: دهن بالتحريك، عن أبي الزبير وجعفر بن محمد، وعنه معبد بن راشد وقتيبة، ثقة قوله رضي الله تعالى عنه: إن كنا لنعرف المنافقين إن بكسر الهمزة وإسكان النون على المخففة من المثقلة ويبطل التخفيف عملها وتدخل على الجملة الاسمية مثل ان زيد لمنطلق، وعلى الجملة الفعلية إن كان زيد لكريماً^١.

الحجاج بن يوسف، هذا الذئب من ذئاب جهنم، رأى الحصار الذي فرض على أبيه الجليل، رأى كيف كان الناس يتحركون بكامل حرّيتهم؛ فيقولون ما يشاؤون ويكتبون ما

١. اختيار معرفة الرجال، الشيخ الطوسي ١: ٢٠٥ - ٢٠٩.

يشاؤون، إلا أهل بيت الرسول، فالحرية محظورة عليهم، والناس لا يجروون على الاقتراب من بيت الإمام، أو سؤاله عن أي مسألة، دينية كانت أم غير ذلك، لا لشيء؛ إلا لأن زين العابدين هو ابن الحسين وحفيد علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ورغم هذا التضييق الشديد فقد كان هناك رجال صدق، لا يأبهون لأوامر الحكام، ويحضرون للقائه عليه السلام، وكان جابر بن عبد الله الأنصاري أحد هؤلاء، وجابر هو آخر من بقي من أصحاب الرسول في تلك الأيام، وقد أصبح شيخاً طاعناً في السن.

كان جابر ذات يوم في بعض طرق المدينة، فمر به غلام، فلما رآه جابر قال: يا غلام أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال جابر: شمائل رسول الله، والذي نفسي بيده. يا غلام ما اسمك؟ قال: اسمي محمد بن علي بن الحسين. فقام جابر يقبل رأسه ويقول: بأبي أنت وأمي، أبوك رسول الله صلى الله عليه وآله يقرئك السلام، فقال محمد: وعلى رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته.

ثم رجع محمد إلى أبيه مذعوراً فأخبره الخبر، فقال له: يا بني، قد فعلها جابر؟ قال: نعم، قال: الزم بيتك يا بني.

ذلك أن الإمام زين العابدين عليه السلام خاف على ولده، لأن الحكومة الأموية كانت قد فرضت رقابة شديدة على الإمام وأهله، فخشي أن ينالوه بسوء.

وفيما بعد . . كان جابر يلتقي ابن زين العابدين، ويتبادل معه الحديث، وقد أدرك أن علوم ومعارف رسول الله صلى الله عليه وآله قد أودعت عند هذا الغلام. فقال له يوماً: أي بني، إنك ستعلم الناس أمور الدين، وستحل مشاكل العلوم عند الباحثين، وترد على أسئلة السائلين، يا بن علي بن الحسين بن أبي طالب، إنك «باقر العلوم» إنك من الذين أوتوا العلم صغاراً، وقال فيهم الرحمن سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

كان قد مضى على هجرة الرسول صلى الله عليه وآله ما يقارب المئة عام، حين ودّع الإمام زين العابدين الحياة، بعد أن أوصى لابنه محمد بالإمامة، وكانت سن

محمد عليه السلام تقارب الأربعين عاماً.^١

... الناس لحقوا وكثروا، وفي رواية أخرى مثله، و زاد فيها وجابر بن عبد الله الأنصاري، و روي عن أبي جعفر عليه السلام أن الحجاج طلبه و قال: تلعن أبا تراب و أمر بقطع يديه و رجله و قتله.

أقول: - والقول للعلامة المجلسي رحمته الله - كان هؤلاء الأجلاء (أبو خالد الكابلي ويحيى بن أم الطويل وجبير بن مطعم، وجابر بن عبد الله الأنصاري)، من خواص أصحاب الأئمة عليهم السلام كانوا مأذونين من قبل الأئمة عليهم السلام بترك التقية لمصلحة خاصة خفية، أو أنهم كانوا يعلمون أنه لا ينفعهم التقية و أنهم يقتلون على كل حال بأخبار المعصوم أو غيره، والتقية إنما تجب إذا نفعت مع أنه يظهر من بعض الأخبار أن التقية إنما تجب إبقاء للدين و أهله، فإذا بلغت الضلالة حداً توجب اضمحلال الدين بالكلية فلا تقية حينئذ وإن أوجب القتل كما أن الحسين عليه السلام لما رأى انطماس آثار الحق رأساً ترك التقية و المسألة.^٢

كان جابر بن عبد الله الأنصاري من الطبقة الأولى في (طبقات المفسرين لأبي الخير) وعده السيوطي في الصحابة المفسرين. وهو من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام. قال العلامة في رجاله: قال الفضل بن شاذان: جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه من السابقين الذين رجعوا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقال أبو العباس بن عقدة - عند ذكره - إنه منقطع إلى أهل البيت عليهم السلام. وذكر ذلك الكشي في رجاله في ترجمة أبي أيوب الأنصاري.

وهو الراوي لصحيفة فاطمة عليها السلام التي فيها النص على إمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام وهو أول من شد الرحال من المدينة لزيارة قبر الحسين عليه السلام،

١. سلسلة أئمة أهل البيت عليهم السلام ٨ : ٧ .

٢. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، العلامة المجلسي ١١ : ٩٨ .

ووصل إلى قبره في اليوم العشرين من شهر صفر سنة قتل الحسين.

وذكره الشيخ الطوسي رحمه الله في (رجال ط النجف) من البدرين وعدّه تارة من أصحاب رسول الله ﷺ، وثانية - من أصحاب علي عليه السلام - . وثالثة - من أصحاب الحسن عليه السلام - . ورابعة - من أصحاب الحسين عليه السلام - . وخامسة - من أصحاب علي بن الحسين عليه السلام - . وسادسة - من أصحاب الباقر عليه السلام - ^١.

٢٨. المساجد و الأماكن الأثرية في المدينة المنورة:

حول فضائل المسجد النبوي الشريف، فقد نقلنا مفصلاً الأحاديث الواردة من أئمة أهل البيت عليه السلام فلا نعيد.

علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن صفوان بن يحيى، وابن أبي عمير جميعاً، عن معاوية بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا تدع إتيان المشاهد كلها؛ مسجد قباء، فإنه المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم. ومشربة أم إبراهيم؛ ومسجد الفضيل؛ وقبور الشهداء؛ ومسجد الأحزاب وهو مسجد الفتح؛ قال: ... وليكن فيما تقول عند مسجد الفتح: يا صريخ المكروبين ويا مجيب دعوة المضطرين اكشف همي وغمي وكربي كما كشفت عن نبيك همّه وغمّه وكربه وكفيته هول عدوّه في هذا المكان».

محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن عبد الله بن هلال، عن عقبة بن خالد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام أأنا نأتي المساجد التي حول المدينة فبأيها أبدأ؟ فقال: «أبدأ بقباء، فصلّ فيه وأكثر فإنه أول مسجد صلّى فيه رسول الله ﷺ في هذه العرصة، ثم أت مشربة أم إبراهيم فصلّ فيها، وهي مسكن رسول الله ﷺ ومصلّاه، ثم تأتي مسجد الفضيل، فتصلي فيه فقد صلّى فيه نبيك، فإذا قضيت هذا الجانب أتيت جانب أحد فبدأت

١. الفوائد الرجالية، السيد مهدي بحر العلوم ٢ : ١٣٥ الهامش .

بالمسجد الذي دون الحرة فصليت فيه، ثم مررت بقبر حمزة بن عبد المطلب فسلمت عليه، ثم مررت بقبور الشهداء، فقامت عندهم فقلت: - السلام عليكم يا أهل الديار أنتم لنا فرط وإنا بكم لاحقون - ثم تأتيت المسجد الذي كان في المكان الواسع إلى جنب الجبل عن يمينك حين تدخل أحداً فتصلي فيه فعنده خرج النبي ﷺ إلى أحد حين لقي المشركين فلم يبرحوا حتى حضرت الصلاة فصلى فيه، ثم مر أيضاً حتى ترجع فتصلي عند قبور الشهداء ما كتب الله لك، ثم امض على وجهك حتى تأتيت مسجد الأحزاب فتصلي فيه وتدعو الله فيه، فإن رسول الله ﷺ دعا فيه يوم الأحزاب وقال: يا صريح المكروبين ويا محبب دعوة المضطرين ويا مغيث المهمومين اكشف همي وكربي وغمي فقد ترى حالي وحال أصحابي». عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «عاشت فاطمة سلام الله عليها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً لم تر كاشرة ولا ضاحكة، تأتيت قبور الشهداء في كل جمعة مرتين، الإثنين والخميس فتقول: ههنا كان رسول الله ﷺ، وههنا كان المشركون.

وفي رواية أخرى أبان، عمن أخبره، عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنها كانت تصلي هناك وتدعو حتى ماتت عليها السلام».

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن الفضل بن صالح، عن ليث المرادي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن مسجد الفضيل لم سمي مسجد الفضيل؟ فقال: «لنخل يسمى الفضيل فلذلك سمي مسجد الفضيل».

أبو علي الأشعري، عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان، عن الحلبي، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «هل أتيتم مسجد قباء أو مسجد الفضيل أو مشربة أم إبراهيم؟ قلت: نعم، قال: أما إنه لم يبق من آثار رسول الله ﷺ شيء إلا وقد غير غير هذا».

عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن موسى بن جعفر، عن عمر بن سعيد، عن

الحسن بن صدقة، عن عمار بن موسى قال، دخلت أنا وأبو عبد الله عليه السلام مسجد الفضيخ، فقال: «يا عمار ترى هذه الوهدة؟ قلت: نعم، قال: كانت امرأة جعفر التي خلف عليها أمير المؤمنين عليه السلام قاعدة في هذا الموضع ومعها ابناها من جعفر فبكت فقال لها ابناها: ما يبكيك يا أمه؟ قالت: بكيت لأمر المؤمنين عليه السلام فقالا لها: تبكين لأمر المؤمنين ولا تبكين لأبيننا؟ قالت: ليس هذا هكذا ولكن ذكرت حديثاً حدثني به أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الموضع فأبكاني، قالوا: وما هو؟ قالت: كنت أنا وأمير المؤمنين في هذا المسجد فقال لي: ترين هذه الوهدة؟ قلت: نعم قال: كنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله قاعدين فيها إذ وضع رأسه في حجري ثم خفق حتى غط، وحضرت صلاة العصر فكرهت أن أحرك رأسه عن فخذي فأكون قد آذيت رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى ذهب الوقت وفاتت. فانتبه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا علي صليت؟ قلت: لا، قال: ولم ذلك؟ قلت: كرهت أن أؤذيك. قال: فقام واستقبل القبلة ومدّ يديه كليهما وقال: اللهم ردّ الشمس إلى وقتها حتى يصلي علي؛ فرجعت الشمس إلى وقت الصلاة حتى صليت العصر ثم انقضت انقضاء الكوكب»^١.

بعض نسخ الرضوي: ثم أتت قبور السادة بالبقيع ومسجد فاطمة عليها السلام فصلّ ركعتين، وزر قبر حمزة، وقبور الشهداء، ومسجد الفتح، ومسجد السقيا، ومسجد قبا، فإنّ فيها فضلاً كثيراً، ومسجد الخلوة، وبيت علي بن أبي طالب عليه السلام، ودار جعفر بن محمد عليهما السلام عند باب المسجد تصلي فيها ركعتين.

جعفر بن محمد بن قولويه في كامل الزيارة: عن محمد بن عبد الله الحميري، عن أبيه، عن علي بن محمد بن سالم، عن محمد بن خالد، عن عبد الله بن حماد البصري، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام — في حديث

١. الكافي ٤ : ٥٦٠ - ٥٦٢ .

طويل - أنه أتاه رجل فقال: هل يزار والدك؟ فقال: «نعم». قال: فما لمن زاره؟ قال: الجنة إن كان يأتى به. قال: فما لمن تركه رغبة عنه؟ قال: الحسرة يوم الحسرة»^١.
والثنية - بتشديد الياء - هو اسم موضع ثنية مشرفة على المدينة وفي الأصل كل عقبة في جبل مسلوكة، وللمدينة ثنيتان، إحداهما: ثنية مدران - بكسر الميم - موضع في طريق تبوك من المدينة في شمالها الغربي فيه مسجد للنبي ﷺ.
وأخرى: ثنية الوداع، وهو ثنية مشرفة على المدينة في جنوبها الغربي يطؤها من يريد مكة^٢.

الصوران: موضع بالمدينة بالبقيع^٣.

الثنية: هي العقبة في الجبل فيها طريق مسلوكة، والمراد هنا ثنية الوداع في المدينة المنورة من جهة مكة^٤.

قال الكليني: وفي رواية ابن مسكان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «حد ما حرم رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة من ذباب، إلى واقم، والعريض، والنقب، من قبل مكة»^٥.

ورواه الصدوق في (معاني الأخبار) عن محمد بن الحسن، عن الصفار، عن العباس بن معروف، عن علي بن مهزيار، عن الحسين بن سعيد، عن محمد بن سنان، عن ابن مسكان مثله، ثم قال: قال ابن مسكان: وفي حديث آخر من الصورين إلى الثنية.

١. مستدرك الوسائل ١٠ : ٣٥٠ .

٢. من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق ٢ : ٥٦١ الهامش .

٣. معجم البلدان ٣ : ٤٣٢ .

٤. معجم البلدان ٢ : ٨٦ .

٥. الكافي ٤ : ٥٦٤ .

ذباب: جبل بالمدينة المنورة.^١

واقم: حصن من حصون المدينة المنورة و حرّة واقم إلى جانبه.^٢

العريض: واد بالمدينة المنورة.^٣

النقب: موضع في المدينة المنورة يعرف بنقب بني دينار من بني النجار.^٤

... عن أسماء، أن علي بن أبي طالب عليه السلام خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى إذا جاء ثنية الوداع وهو يريد تبوك وعليّ يبكي ويقول: «يا رسول الله أتجعلني مع الخوالم؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدي نبي»^٥

إن علي بن أبي طالب خرج مع النبي صلى الله عليه وآله حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك، وعلي يبكي ويقول: «تخلفني مع الخوالم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة؟

أقول: والرواية مروية بطرق كثيرة من طرق الفريقين. وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، قال: «مع النساء».^٦

رووا عن جابر أنه قال: خرجنا ومعنا النساء التي استمتعنا بهن. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «هُنَّ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَوَدَعْنَا عِنْدَ ذَلِكَ فَسَمِيتُ عِنْدَ ذَلِكَ ثَنِيَةَ الْوُدَاعِ وَمَا

١. معجم البلدان ٣ : ٣ .

٢. معجم البلدان ٥ : ٣٥٤ .

٣. معجم البلدان ٤ : ١١٤ .

٤. معجم البلدان ٥ : ٢٩٨ .

٥. مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، محمد بن سليمان الكوفي ١ : ٥٣٦ .

٦. تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي ٩ : ٣٦٨ .

كانت قبل ذلك إلاّ ثنية الركاب.^١

ويستحب إتيان المساجد كلّها بالمدينة، وهي مسجد قبا، ومشربة أمّ إبراهيم عليه السلام، ومسجد الأحزاب وهو مسجد الفتح، ومسجد الفضيخ، وقبور الشهداء كلّهم، ويأتي قبر حمزة عليه السلام بأحد ولا يتركه إلاّ عند الضرورة إن شاء الله تعالى.^٢

قال الصادق عليه السلام في الصحيح: «بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا أتى قبور الشهداء قال: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

وسأل عقبة بن خالد الصادق عليه السلام: إنا نأتى المساجد التي حول المدينة، فبأيها أبدأ؟ فقال: «إبدأ بقبا فصلّ فيه وأكثر فإنه أول مسجد صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه العرصة، ثم أت مشربة أمّ إبراهيم فصلّ فيه هو مسكن رسول الله صلى الله عليه وآله ومصلاه، ثم مسجد الفضيخ فتصليّ فيه وقد صلّى فيه نبيك، فإذا قضيت هذا الجانب أتيت جانب أحد، فبدأت بالمسجد الذي دون الحرة فصليت فيه ثم مررت بقبر حمزة بن عبد المطلب فسلمت عليه ثم مررت بقبور الشهداء فقامت عندهم. فقلت: السلام عليكم يا أهل الديار أنتم لنا فرط وإنا بكم لاحقون. ثم يأتي المسجد الذي في المكان الواسع إلى جنب الجبل عن يمينك حتى تدخل أحداً فتصليّ فيه فعنده خرج النبي صلى الله عليه وآله إلى أحد حيث لقي المشركين فلم يرموا حتى حضرت الصلاة فصلّى فيه.

ثم مر أيضاً حتى ترجع فتصليّ عند قبور الشهداء ما كتب الله لك. ثم امض على وجهك حتى تأتي مسجد الأحزاب فتصليّ فيه وتدعو به فإنّ رسول الله دعا فيه يوم الأحزاب وقال: يا صريخ المكروبين ويا مجيب المضطرين ويا مغيث المهمومين، اكشف همّي (وكرّبي صح) وغمّي فقد ترى حالي وحال أصحابي. ويستحب الصلاة في مسجد

١. معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري ٢ : ٢٦١ .

٢ . المبسوط، الشيخ الطوسي رحمته الله ١ : ٣٨٦ .

غدير...»^١.

مسجد قباء، مسجد القبلتين، المساجد السبعة، مسجد الإجابة، مسجد الجمعة، مسجد الراية، مسجد السبق، مسجد السجدة، مسجد السقيا، مسجد العصبة، مسجد العنبرية، مسجد الفسح، مسجد الفضيل، مسجد الفقير، مسجد المنارتين، مسجد بني بياضة، مسجد بني حرام، مسجد بني خدادة، مسجد بني خطمة، مسجد بني زريق، مسجد بني غفار، مسجد ذو الحليفة، مسجد عتبان بن مالك، مسجد بنو أنيف (مصبح)، مسجد مشربة أم إبراهيم، مسجد عينين، مسجد بني عبد الأشهل، مسجد بني حارثة (المستراح).

✽ مسجد الغمامة :

مسجد المصلّى، مصلّى العيد: ويظهر من الأوصاف المذكورة أنه محلّ المسجد المعروف اليوم بمسجد الغمامة، وبالقرب منه مسجد عليّ عليه السلام.



✽ مسجد قباء:

ويقع جنوب المدينة، ويبعد حوالي خمسة كيلومترات عن المسجد النبوي.

١. تذكرة الفقهاء، العلامة الحليّ عليه السلام ١ : ٤٠٣ .



✽ مسجد الضرار:

ليس من مساجد الرسول، وإنما بناه المنافقون. إنه كان بالقرب من مسجد قباء.

✽ مسجد الجمعة:

في وادي رانونا، وهو أول مسجد صلى فيه رسول الله الجمعة في المدينة، وهو قائم يصلي فيه الناس، بين قباء ومركز المدينة، على يمين ما يسمى «الخط النازل» أو شارع قباء النازل.



* مسجد الفضيخ :

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن المفضل بن صالح، عن ليث المرادي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن مسجد الفضيخ لِمَ سُمِّيَ مسجد الفضيخ؟ فقال: «لنخل يسمَّى الفضيخ فلذلك سُمِّيَ مسجد الفضيخ»^١.
بفتح الفاء وكسر الضاد المعجمة، بعدها مثناة تحتية وخاء معجمة: وهو شرقي مسجد قباء على نشز من الأرض. ولم يتفقوا على سبب الاسم.

١. الكافي ٤ : ٥٦١ .



مسجد الفضيخ قبل الهدم

✽ مسجد القبلتين :

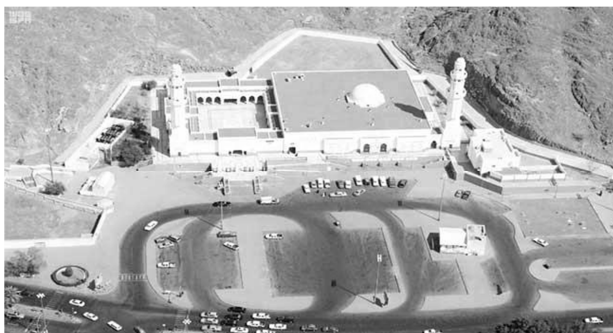




✽ مسجد الإجابة :



✽ المساجد السبعة :



✽ مسجد فاطمة الزهراء عليها السلام :



✽ مسجد الراية :



✽ مسجد السقيا :



✽ مسجد السبق :





* مسجد الشيخين ، مسجد الدرع ، مسجد البدائع :

أ- يقال له: مسجد الشيخين لوقوعه في موضع الشيخين. قال المطري: الشيخان موضع بين المدينة وبين جبل أحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد. قال ابن زبالة: وكان لبعض من هناك من اليهود الأطمان اللذان يقال لهما الشيخان بفنائهما المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ حين سار إلى أحد.

قال الفيروزآبادي: شيخان بلفظ تثنية شيخ، موضع بالمدينة يقال له ثنية شيخان وكان فيه معسكر رسول الله ﷺ ليلة خرج لقتال المشركين بأحد، وهناك عرض الناس فأجاز من رأى ورد من رأى. وقال إبراهيم العياشي: إن الشيخين أطمان — كما قال ابن زبالة — موجودان اليوم في شرق بئر السالمية العائدة لورثة علي خضره، المشهورين بالقين. وفي الشمال الغربي من مزرعة أخينا محماس الدخيل التي في الحرة شرق القين، والأطمان أحدهما على يمين الطريق في الثنية والآخر وهو صغير في يسار الطريق... وقد أحدثت منازل كثيرة واستعمرت المنطقة حول ثنية الشيخين فصارت قرية، وتكون البدائع هي بئر القين نفسها.

ب - ويقال له: مسجد البدائع كما ورد في حديث أم سلمة رضي الله عنها الآتي ذكره.

ج - ويقال له: مسجد العدو، ولعل ذلك لوقوعه على عدوة الطريق، كما ذكره المطري. والعدوة بضم العين وكسرهما، جانب الوادي وحافته وقال أبو عمرو: هي المكان

المرتفع.

د - وأطلق عليه بعض المتأخرين مسجد الدرع...

هـ - وفي سنة ١٤١٨ هـ رأيت لوحة مثبتة على باب المسجد مكتوب عليها «مسجد الخير»، ولم أجد أصلاً لهذه التسمية في المراجع التاريخية التي تحدثت عن هذا المسجد. فهو اسم مستحدث.

يقع على يمين الخط النازل من سيد الشهداء وفي الجهة الجنوبية من مسجد المستراح على بعد ثلاثمائة متر تقريباً في المدخل المتفرع من هذا الشارع وعلى يمين الداخل فيه على بعد عشرين متراً.

مسجد الشيخين عبر التاريخ: أورد ابن شبه (المتوفى ٢٦٢ هـ) هذا المسجد ضمن المساجد التي صلى فيها النبي ﷺ وقد ورد أنه صلى العصر والمغرب والعشاء في موضع هذا المسجد.

أفاد المطري (المتوفى ٧٤١ هـ) أن النبي ﷺ صلى في المسجد الذي عند الشيخين وهو موضع بين المدينة وبين جبل أحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد، وبات به وغدا صبح يوم السبت إلى أحد، ففيه كانت وقعة أحد في النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة...

قال السمهودي (المتوفى ٩١١ هـ): شيخان بلفظ تننية شيخ أطمأن بجهة الواج، قال ابن زباله: بفضائهما المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ حين سار إلى أحد. وقد وصفه علي بن موسى سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م كما يلي: «وبين سيدنا حمزة والبلدة الطاهرة مسجد عند الحديقة السالمية على مرتفع من الأرض وهو غير مسقوف، وهو مسجد الشيخين ويعرف الآن بمسجد الدرع». فالبناء الحالي للمسجد متأخر من سنة ١٣٠٣ هـ. وقال إبراهيم العياشي (المتوفى ١٤٠٠ هـ): وهو من قسمين، الجنوبي عليه قبتان والشمالى رحبة، وهو محصص تجصيصاً قوياً منذ أن بني، وبابه من الركن الشمالي الغربي...

وهو عامر تقام في الصلوات الخمس.^١

...تقام في هذا المسجد الصلوات الخمس، وله إمام ومؤذن حيث أنه مسجل لدى الأوقاف. وهو مسجد صغير تحيط به المباني من ثلاث جهات. وهو غير مجهز، وقد عرفت أن فاعل خير قد قدم خدمة للمسجد حديثاً، جزى الله المحسنين خيراً. ويسمى هذا المسجد بمسجد الدرع ومسجد البدائع، ويقال له المسجد الأثري أو التركي، وسمته الأوقاف حديثاً مسجد الخير بلوحة صغيرة علقت خارج المسجد، ولم أقف على سبب تغيير الاسم. ويقال إنه المكان الذي صلى فيه الرسول ﷺ والمسلمون عندما خرجوا في غزوة أحد، حيث صلى فيه العصر والمغرب والعشاء، وقيل بل المغرب والعشاء والفجر واستعرض الجيش عند أجرة الشيخين. وقيل إن الرسول ﷺ أنزل الدرعين اللذين كان يلبسهما يوم أحد في هذا المكان وبات هناك ثم أصبح و غدا إلى أحد.

وقد غلط بعض المؤرخين وظنه مسجد المستراح وهو غيره، أما مسجد المستراح فقد يكون مسجد بني حارثة حيث ذكر أن الرسول ﷺ صلى في مسجد بني حارثة على طرف حرة بني حارثة، وكلا المسجدين يقعان على طريق سيد الشهداء على يمين النازل.^٢



١. المساجد الأثرية في المدينة النبوية محمد إلياس عبد الغني : ١١١-١١٨، مطابع الرشيد ط ١/١٤١٨هـ.

٢. رسائل في آثار المدينة النبوية غازي بن سالم التمام : ٤١-٤٢ ط ١/١٤٢١هـ.



✽ مسجد بني زريق :

مسجد بني زريق - بتقديم الزاي كزير - من الخزرج، في المدينة المنورة، وهو أول
مسجد قرئ فيه القرآن، ولأغراض توسعة المسجد النبوي أزيل المسجد وأصبح داخل
المسجد النبوي.



قال الباقر عليه السلام: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أجرى الخيل التي أضمرت من الحصى إلى مسجد بني زريق وسبقها من ثلاث نخلات، فأعطى السابق عذقاً، وأعطى المصلي عذقاً، وأعطى الثالث عذقاً^١.
* مسجد الاستراحة أو المستراح (بني حارثة) :



١. هداية الأمة إلى أحكام الأئمة، الحر العاملي ٦ : ٣١٢.



✽ مسجد عينين :

مسجد عينين (مسجد الظرب، مسجد الصبح، مسجد مصبح) الذي صَلَّى فيه
الحبيب صلى الله عليه وآله.





مسجد عريض، وعنده قبر علي بن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (علي عريض):



الجهة الشمالية والغربية لمسجد العريض



الجرافات تهدم الأثر الاسلامي أمام مرأى العالم!



صورة القبر والمدرسة قبل الهدم

مسجد بني غفار (بني عبد الأشهل) :



وداع قبر النبي ﷺ :

كامل الزيارة: جماعة مشايخي، عن سعد، عن بن عيسى، عن ابن فضال، عن يونس بن يعقوب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن وداع قبر النبي صلى الله عليه وآله فقال: «تقول: صلى الله عليك، السلام عليك، لا جعله الله آخر تسليمي عليك»^١.
 مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ الْمَمَرِّ فِي مُؤَخَّرِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا أُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ: «لَمْ يَكُنْ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْنَعُ ذَلِكَ. قُلْتُ فَيَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَيُسَلِّمُ مِنْ بَعِيدٍ لَا يَدْنُو مِنَ الْقَبْرِ». قوله عليه السلام: «لم يكن أبو الحسن عليه السلام»، لعل المراد به أنه لا ينبغي السلام عليه هكذا ماراً ومن باب المسجد، بل يزوره بالآداب المقررة حين يدخل المدينة، وحين يخرج منها زيارة الوداع، ثم إذا خرج من المدينة يسلم عليه من بعيد، والمعنى أنه لا بدّ الدنو من القبر، والسلام عليه بعد صلاة الزيارة للخروج، ويسلم عليه في البلاد البعيدة، أو المعنى أنه إذا أمكنه الدخول والسلام عليه من قريب فليفعل، وإلاّ فليسلم عليه من بعيد من حيث يبرّ، ولا يدخل المسجد، ويحتمل أن يكون المعنى إن الكاظم عليه السلام كان يدخل فيأتي القبر ويسلم عليه من قريب كلّما مرّ خلف المسجد، وأما أنت فسلم عليه على أي وجه تريد من خارج و داخل و قريب^٢.

وداع قبور أئمة البقيع عليهم السلام :

ما رواه ابن بابويه والشيخ، عن الإمام علي بن محمد عليهما السلام في زيارة الوداع: «إذا أردت الانصراف فقل: السلام عليكم سلام مودّع - إلى أن قال - السلام عليكم حشرني الله في زمركم، وأوردني حوضكم، وجعلني من حزبكم، ومكنني في دولتكم،

١. بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٩٧ : ١٥٧ ؛ جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي ١٢ : ٥١٦ .

٢. مرآة العقول، العلامة المجلسي ١٨ : ٢٦٣ .

وأحياني في رجعتكم، وملكني في أيامكم».^١

إذا أردت الانصراف فقل: «السَّلام عليكم سلام مودّع لا سئم ولا قال، ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد. سلام وليّ غير راغب عنكم، ولا مستبدل بكم، ولا مؤثر عليكم، ولا منحرف عنكم، ولا زاهد في قربكم، لا جعله الله آخر العهد من زيارة قبوركم، وإتيان مشاهدكم، والسَّلام عليكم، وحشرنى الله في زمركم، وأوردني حوضكم، وجعلني في حزبكم، وأرضاكم عنّي، ومكّنتني في دولتكم، وأحياني في رجعتكم، وملّكني في أيامكم، وشكر سعيي لكم، وغفر ذنبي بشفاعتكم، وأقال عثرتي بمحبّتكم، وأعلى كعبي بموالاةكم، وشرّفتني بطاعتكم، وأعزّيتني بهداكم، وجعلني ممّن ينقلب مفلاًحاً منجاً غانماً سالماً معافى غنياً فائزاً برضوان الله وفضله وكفايته، بأفضل ما ينقلب به أحد من زوّاركم، ومواليكم، ومحبيكم، وشيعتكم، ورزقني الله العود ثمّ العود ثمّ العود أبداً ما أبقاني ربّي بنية صادقة، وإيمان وتقوى وإخبات، ورزق واسع حلال طيب. اللهم لا تجعله آخر العهد من زيارتهم وذكرهم، والصلاة عليهم، وأوجب لي المغفرة والخير والرحمة والبركة والفوز، والثّور والإيمان وحسن الإجابة كما أوجبت لأوليائك العارفين بحقّهم، الموجبين طاعتهم، والرّاغبين في زيارتهم، المتقرّبين إليك وإليهم. بأبي أنتم وأمّي ونفسي ومالي وأهلي، اجعلوني في همّكم، وصيروني في حزبكم، وأدخلوني في شفاعتكم، واذكروني عند ربّكم. اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد، وأبلغ أرواحهم وأجسادهم مني السلام، والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته».^٢

قال في من لا يحضره الفقيه: إذا أردت الانصراف فقل: «السلام عليكم، سلام مودّع لا سئم ولا قال ولا مال، ورحمة الله وبركاته».

أقول: لا ريب في أن المؤمن المستبصر يرى الأئمة عليهم السَّلام مطلعين على حاله

١. الإيقاظ، الحرّ العاملي: ٢٢٤.

٢. الأنوار الساطعة، الشيخ جواد بن عباس كربلائي ١: ١٣.

وشاهدين لأعماله كما تقدم في طيّ الشرح، وهو بقلبه يرى نفسه حاضراً لديهم عليهم السلام في كلّ الأحوال، فكأنه بقلبه لا يغيب إمامه عنه، ولا هو عن إمامه، هذا بحسب الإيمان والاعتقاد القلبي، إلا أنّ المستفاد من الآثار منهم عليهم السلام أنّ لمشاهدتهم ﷺ أحكاماً قد لاحظوها وأرادوها من شيعتهم، وألزموهم باحترامها وتعظيمها، فإنها من شعائر الله تعالى المأمورة بالتعظيم، ثم إنّ لها أحكاماً احترامية، منها: أنّ الزائر إذا ورد إليها يلزم عليه الإتيان بأمور من الغسل ولبس أنظف ثيابه في غير زيارة الحسين عليه السلام والعمل بما تقدم بيانه في أول الشرح. ثمّ إذا وصل فعليه أن يسلم عليهم بما ورد منهم ﷺ في زيارتهم ويسمى هذا بسلام الورود. ومنها: سلام الوداع كما هو المشهور من الشرع من أنه كما يستحب السلام عند الورود، كذلك يستحب عند الوداع، ثم إنه لا إشكال في استحباب السلام وروداً ووداعاً.^١

زيارة الوداع :

كامل الزيارة: بهذا الإسناد، عن ابن فضال، قال: رأيت أبا الحسن عليه السلام وهو يريد أن يودّع للخروج إلى العمرة فأتى القبر من موضع رأس رسول الله صلى الله عليه وآله بعد المغرب، فسلم على النبي صلى الله عليه وآله ولزق بالقبر ثم انصرف حتى أتى القبر فقام إلى جانبه يصلي وألّزق منكبه الأيسر بالقبر قريباً من الأسطوانة التي دون الأسطوانة المخلقة التي عند رأس النبي صلى الله عليه وآله فصلّى ست ركعات أو ثمان ركعات في نعليه. قال: فكان مقدار ركوعه وسجوده ثلاث تسبيحات أو أكثر، فلما فرغ سجد سجدة أطال فيها السجود حتى بلّ عرقه الحصى. قال: وذكر بعض أصحابنا أنه رآه لصق خدّه بأرض المسجد.

كامل الزيارة: محمد بن الحسن، عن أبيه، عن جده علي بن مهزيار، عن الحسن بن

١. الأنوار الساطعة، الشيخ جواد بن عباس كربلائي ٥ : ٥٥٣.

سعيد، عن صفوان بن يحيى، وابن أبي عمير وفضالة، عن معاوية بن عمار، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا أردت أن تخرج من المدينة فاغتسل ثم ائت قبر النبي صلى الله عليه وآله، بعد ما تفرغ من حوائجك، فودّعه واصنع مثل ما صنعت عند دخولك وقل: اللهم لا تجعله آخر العهد من زيارة قبر نبيك فإن توفيتني قبل ذلك فأني أشهد في مماتي على ما أشهد عليه في حياتي أن لا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك.

الكافي: علي بن إبراهيم، عن ابن أبي عمير مثله.

أقول: وجدت في بعض نسخ الفقه الرضوي على من نسب إليه السلام.

أروي عن موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال: «يستحب إذا قدم المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وآله أن يصوم ثلاثة أيام فإن كان له بها مقام أن يجعل صومها في يوم الأربعاء والخميس والجمعة...

ثم قف عند رأسه مستقبل القبلة وسلّم وقل: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا سيد الأولين والآخرين، السلام عليك يا زين القيامة، السلام عليك يا شفيع القيامة، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبده ورسوله، بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت أمتك، وجاهدت في سبيل ربك حتى أتناك اليقين، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك، طبت حياً، وطبت ميتاً، صلى الله عليك وعلى أخيك ووصيك، وابن عمك أمير المؤمنين، وعلى ابنتك سيدة نساء العالمين، وعلى ولديك الحسن والحسين، أفضل السلام وأطيب التحية، وأطهر الصلاة، وعلينا منكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وتدعو لنفسك واجتهد في الدعاء للمؤمنين ولوالديك ثم تصلي عند أسطوانة التوبة وعند الحنانة وفي الروضة وعند المنبر أكثر ما قدرت من الصلاة فيها. وأنت مقام جبرئيل وهو عند الميزاب إذا خرجت من الباب الذي يقال له باب فاطمة عليها السلام وهو الباب الذي بجبال زقاق البقيع، فصل هناك ركعتين وقل: يا جواد يا كريم يا قريب غير بعيد أسئلك بأنك أنت الله ليس كمثلك شيء، أن تعصمني من المهالك وأن تسلمني من آفات الدنيا

والآخرة ووعثاء السفر وسوء المنقلب، وأن تردني سالماً إلى وطني بعد حج مقبول وسعي مشكور وعمل متقبل، ولا تجعله آخر العهد من حرمك وحرَم نبيك صلى الله عليه وآله.

ثم أتت قبور السادة بالبقيع ومسجد فاطمة فصل فيها ركعتين وزر قبر حمزة وقبور الشهداء ومسجد الفتح ومسجد السقيا ومسجد قبا فإن فيها فضلاً كثيراً؛ ومسجد الخلوة وبيت علي بن أبي طالب ودار جعفر بن محمد عليهما السلام عند باب المسجد تصلي فيها ركعتين.

ثم إذا أردت أن تخرج من المدينة تودّع قبر النبي صلى الله عليه وآله تفعل مثل ما فعلت في الأول تسلم وتقول: اللهم لا تجعل آخر العهد مني من زيارة قبر نبيك وحرمة فإني أشهد أن لا إله إلا الله في حياتي، إن توفيتني قبل ذلك وأن محمداً عبدك ورسولك صلى الله عليه وآله.

ولا تودّع القبر إلا وأنت قد اغتسلت أو أنت متوضئ إن لم يمكنك الغسل والغسل أفضل.

ثم أقول: لما ذكرنا ما وصل إلينا من الروايات الواردة في كيفية زيارته ﷺ، نختم الباب بإيراد ما ألفه وأورده الشيخ الجليل المفيد، والسيد النقيب علي بن طاووس، والشيخ السعيد الشهيد، ومؤلف المزار الكبير وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين واللفظ للمفيد: «اللهم فاجعل صلواتك وصلوات ملائكتك المقربين، وعبادك الصالحين، وأنبياءك المرسلين، وأهل السماوات والأرضين، ممن سيح لك يا رب العالمين من الأولين والآخرين، على محمد عبدك ورسولك ونبيك وأمينك ونجيك وحبيبك وخاصتك وصفوتك وخيرتك من خلقك، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرين، اللهم امنحه أشرف مرتبة وأرفعه إلى أسنى درجة ومنزلة، وأعطه الوسيلة والرتبة العالية الجليلة، كما بلغ ناصحاً، وجاهد في سبيلك، وصبر على الأذى في جنبك، وأوضح دينك، وأقام حججك وهدى إلى طاعتك، وأرشد إلى مرضاتك، اللهم صل عليه وعلى الأئمة الأبرار من ذريته، الأخيار من عترته، وسلّم عليهم أجمعين تسليماً، اللهم إني لا أجد سبيلاً إليك سواهم ولا أرى شافعاً مقبول الشفاعة عندك

غيرهم، بهم أتقرب إلى رحمتك، وبولايتهم أرجو جنتك، وبالبراءة من أعدائهم آمل
الخلاص من عذابك، اللهم فاجعلني بهم وجهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وارحمني
يا أرحم الراحمين»^١.



١. بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٩٧ : ١٦٢-١٦٠.

في رحاب سلسلة:

«ذخائر الحرمين الشريفين» (٦)

محمد حسين الواعظ

أعلام المدينة المنورة من بني شذقم وغيرهم، ودراسات في تاريخ المدينة المنورة، تأليف: الشيخ حسين الوائلي، الناشر: المؤلف، الطبعة الأولى سنة ١٤٣٩هـ، ٧٣٦ ص، مصور.

هذا الكتاب الحادي عشر من سلسلة «ذخائر الحرمين الشريفين» التي نروم التعريف بها في هذه المقالات، ويختصّ هذا المجلد بتراجم ورجال علماء الشيعة في المدينة المنورة، ويعدّ الكتاب الأوّل في باب، والرائد في موضوعه، يسلّط الأضواء على جوانب كثيرة منسية من تاريخ الشيعة الإمامية في الحرمين الشريفين، ممّا أغفلهم التاريخ، وأجحف حقّهم،

ولم يُنصفهم حقَّ الإنصاف.

ولقد كان في نية المؤلف الفاضل أن يؤلف كتاباً في سيرة وتراجم رجال آل شذقم — الأسرة المدنيّة المعروفة — ويدرس أحوالهم ومآثرهم في تلك البلدة الطيّبة، ثمّ بدا له فوسّع كتابه ليشمل أعلام المديّنين من الشيعة الإماميّة، فبرز — بحمد الله ومثّه — هذا المجلّد بعنوان: «أعلام المدينة المنوّرة من بني شذقم وغيرهم»، ومن خلال العنوان يتّضح لك مراحل السير التكاملية الذي طواه الكتاب في جمعه وتصنيفه.

إنّ المتأمل في طيّات هذا الكتاب ليرى العجب العجائب من إغفال حقّ الشيعة، وإقصائهم من صفحة التاريخ، والظلم والجور الذي لحقهم حتّى بعد مرارة الحياة، فإنّ المترجمين في الكتاب لا يبلغون عشر المعشار من الواقع، بل أقلّ من ذلك.

وقد عرض البحّثة الواقفي في مقدّمة كتاب أعلام المدينة المنوّرة قائمة تحتوي على عشرين مصدراً من مصادر البحث عن تاريخ الشيعة في المدينة المنوّرة، أهمّها:

١ - تحفة الأزهار وزلال الأنهار، للسّيّد ضامن بن شذقم المدني (كان حيّاً سنة ١٠٩٠ هـ)، تحقيق كامل سلمان الجبوري، ١٤٢٠ هـ، الطبعة الأولى، طهران.

٢ - ديوان الشداقمة (السّيّد علي، والسّيّد حسن، والسّيّد حسين، والسّيّد ضامن)،

تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط سنة ١٤٣٨ هـ، قم.

٣ - زهرة المقول في نسب ثاني فرعي الرسول، للسّيّد علي الشذقمي.

٤ - المستطابة في نسب سادات طابة، للسّيّد حسن الشذقمي.

٥ - نخبة الزهرة الثمينة في نسب أشرف المدينة، للسّيّد علي الشذقمي.

٦ - المدنيّات، للشيخ حسين الواقفي، وهو العدد الرابع والخامس من سلسلة ذخائر

الحرمين الشريفين، طبع سنة ١٤٣٣ هـ.

ومن المخطوطات:

١ - زهر الرياض وزلال الحياض، للسّيّد حسن بن علي الشذقمي.

٢ - مجموعة السّيّد ضامن الشذقمي، في مكتبة سيهسالار في طهران، برقم ١٦٣٤.

تاريخ إتمام الكتاب

بعث العلامة السيّد عبد الستار الحسيني برسالة للشيخ الوائقي، يؤرّخ فيه إتمام تأليف كتاب أعلام المدينة المنورة وتاريخ طبعه، ولكونها من البدائع الشعرية نوردها لتطريف القارئ:

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخُ إكمال كتاب أعلام المدينة المنورة من رَشَحاتِ يراعةِ صاحب السّماحةِ
والفضيلة، العلامة المحقق، كاشف الحُجُب والأستار، بمفتاح أنامله المباركة مُعلقات مناجم
الوثائق والذخائر والآثار، حُجّة الإسلام والمُسلمين الأستاذ الشيخ حسين الوائقي، لا زالَ
مُوثقاً - بتحقيقه السّابر، وتنقيبه المُعرب عن علمه الزّاهر - سيرَ علّماء الأُمّة الأعلام،
وكاشفاً عن تَواصُلهم وأخذِ بعضهم عن بعض أحكام شرائع الإسلام.
«وكلُّهم من رَسول الله مُلتَمِسٌ غَرْفاً من البَحْرِ أو رَشفاً من الدِّيمِ»

بـ (أعلام المدينة) طاب سفرُ	وأُسفرَ عن حقائق ناصعات
حَبانا (الوائقي) به وأسدى	أيادي بالفرائد مترعات
وكم آثارِ علم بن ^١ عَنّا	فأبت بـ (الحسين) موثقات
وأُحَفَ كلُّ بحثٍ بعَلق	نَفيسٍ كان مَنفوس ^٢ الوُعاة
وها هو ذا بهذا اليوم يتلّوا	علينا أي فكرٍ بينات

١. بن، بكسر الباء وتشديد التّوْن المفتوحة: بُعدن.

٢. مَنفوس الوُعاة: الذي يتنافس الوُعاة فيه ويرغبون في اقتنائه.

وَيَنْشُرُ ذِكْرَ أَعْلَامِ هُدَاةٍ عَالِمٍ^١ - فِي مَعَارِفِهِمْ - ثِقَاتٍ
دَعَا لِهْدَى الْإِلَهِ، كَمَا تَحَرَّوْا لَأُمَّةٍ أَحْمَدٍ^٢ جَمَعَ الشَّتَاتِ
وَعَنْ آثَارِهِمْ كُشِفَتْ سُتُورُ فَلَا حَتَّ كَالدَّرَارِيِّ النَّيِّرَاتِ
وَمَا كَانَ اخْتِلَافُ الرَّأْيِ يَوْمًا عَنْ الْإِنصَافِ يَثْنِي^٣ ذَوِي الثَّبَاتِ
فَإِنَّ أَخُوَّةَ الْإِسْلَامِ فَرَضُ أَتَانَا فِي التَّصَوُّصِ الْمُحْكَمَاتِ
وَحَسْبُ بَنِي الْمَدِينَةِ مِنْ فَخَارٍ جَوَارِهِمْ لِخَيْرِ الْكَائِنَاتِ
وَقَدْ رَفَدَتْهُمْ بِعَمِيمٍ فَضْلٍ وَأَوْلَتْهُمْ بِأَسْنَى الْمَكْرُمَاتِ
لِذَلِكَ أَمَّهَا مِنْ كُلِّ حَدْبٍ وَصَوَّبِ كُلُّ قَافٍ لِلْهُدَاةِ
لِيَنْهَلَ مِنْ مَعِينِ الْعِلْمِ فِيهَا وَيَفْخَرَنَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشُّدَاةِ
وَيَعْدُو بَعْدَ ذَلِكَ بِكُلِّ فَنٍّ مُحِيطًا، فَاتِحًا لِلْمُعَلَّقاتِ
كَذَاكَ يَكُونُ كُلُّ حَلِيفٍ عَزَمَ شَدِيدِ الْحَزْمِ مِنْ مَاضٍ وَآتِ
وَإِنْ نُشِرَتْ مَآثِرُهُمْ فَطُوبَى لِمَنْ أَحْيَا مَآثِرَ دَائِرَاتِ
سَيَخْلُدُ ذِكْرُهُ عَطْرًا ذَكِيًّا وَيَحْظَى بِالْجِنَانِ النَّاضِرَاتِ^٤

١. الْعَالِمُ: جَمْعُ الْعَالِمِ، بِتَقْدِيمِ الْبَاءِ عَلَى اللَّامِ، وَآخِرُهُ الْمِيمُ: الْبَحْرُ.

٢. أَحْمَدٌ، مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ، وَصُرِفَ هُنَا لِمُرَاعَاةِ كَمَالِ الْوِزْنِ.

٣. يَثْنِي، بَفَتْحِ الْيَاءِ؛ لِأَنَّهُ ثَلَاثِيٌّ، لَكِنْ كَثِيرًا مِنَ الْعَصْرَيْنِ يَلْفِظُونَهُ بِضَمِّ الْيَاءِ، وَهُوَ خَطَأٌ فَاحِشٌ؛ لِأَنَّ يَثْنِي بِضَمِّ الْيَاءِ، مَعْنَاهُ يَحْمَدُهُ وَيَصِفُهُ بِالْخَيْرِ، وَقَدْ يَأْتِي قَلِيلًا فِي الدِّمِّ مَعَ الْقَرِينَةِ الصَّارِفَةِ عَنِ الْمَدْحِ، كَقَوْلِهِمْ: ذَكَرَ فُلَانًا وَلَمْ يُحْسِنِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ.

٤. النَّاضِرَةُ، بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ: الْخَالِصَةُ الْخُضْرَةُ.

فَقَدِّم بِالْيَمِينِ أَبَا عَلِيٍّ
وَبِالتَّوْفِيقِ دُمُ، أَرْخُ: «حَرِيًّا»
كِتَابَ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ
كِتَابُكَ جَاءَ مَوْفُورَ الْهَبَاتِ

سَنَةِ ١٤٣٨ هـ = (٢١٩) (٤٤٣) (٥) (٣٣٢)

الْأَقْلُ عَبْدُ السَّتَّارِ عَفَا عَنْهُ الْمَلِكُ الْعَفَّارُ

فِي الْعِشْرَيْنِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ الْحَرَامِ مِنْ سَنَةِ ١٤٣٨ هـ

نبذة عن الكتاب:

١. تشغل تراجم رجال الأسرة الشدقيّة قسماً وافراً من الكتاب، وهي الأسرة التي جمعت بين شرف النسب وفضل العلم، وكان لها دورٌ كبير في نشر معالم أهل البيت (عليهم السلام)، وكانت لهم علاقات ودية واسعة مع الحكّام الصفويّين والقطب شاهيّن. وقد تركت هذه الأسرة بصمات جليّة ناصعة على تاريخ المدينة المنورة، ولذلك فقد خصّهم المؤلّف في العنوان دون غيرهم، وقد ورد اسمهم بعد اسم الكتاب مباشرة.

٢. يشتمل الكتاب على مئة و خمس و ثمانين ترجمة (١٥٨) لرجال وأعلام الشيعة الإماميّة في المدينة المنورة، وهي تراجم تطرح أغلبها لأول مرة، ولم ترد في سائر المصادر، بل حتّى التراجم المذكورة في سائر المصادر يجد القارئ في هذا الكتاب معلومات جديدة عنهم، فموادّ الكتاب ومصادره هي ثلاث مئة مخطوطة أولاً وبالذات، ثمّ المصادر المطبوعة. ومن المعلوم الذي لا يعتريه الشكّ ولا يشوبه الريب أنّ عدد رجال الشيعة في المدينة

١. أبو علي: كُنْيَةُ الْعَلَامَةِ الْوَائِقِيِّ مُؤَلِّفِ الْكِتَابِ، ثَبَّتْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاهُ عَلَى مَهْمَعِ الصَّوَابِ، كُنِّيَ بِابْنِهِ الْوَحِيدِ الْمُهَنْدِسِ مُحَمَّدِ عَلِيِّ الْوَائِقِيِّ.

٢. الباقيات الصالحات، إشارة إلى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿... وَالْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾، الآية السابعة والأربعون من سُورَةِ الْكَهْفِ، مَعَ آعْتِدَادِ (الْبَسْمَلَةِ) آيَةً عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مَذْهَبُ الْعَتَرَةِ الطَّاهِرَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

المنورة أكثر من ذلك بكثير، بل لا تمثّل التراجم الواردة في الكتاب، مع كونها تراجم حديثة ومتنوعة إلاّ نسبة واحدة بالمتة، بل أقلّ من ذلك، وقد نصّ أرباب التاريخ أنّ المدينة المنورة زحرت بالشيعة الإمامية منذ عصر الوحي و عصر الإمامين الباقرين الصادقين عليهما السلام إلى العصور المتأخّرة.

لكن ممّا يؤسف له ويتلّف عليه، أنّ المؤرّخين أجحفوا حقّهم، وبخسوا فضلهم، وأنكروا علمهم، وصدّوا عن ذكرهم، حتّى تجاهلتهم الأجيال، ومحوهم عن صفحة التاريخ، وكأنّ لم يكن شيئاً مذكوراً.

كأنّ لم يكن بين الحجّون إلى الصّفا سَمِيرٌ، ولم يسْمُرْ بمكّة سَامِرٌ وما ذلك إلاّ نتيجة الأقلام المأجورة التي اتّبعت الهوى، وحبّ الدُّنيا، وانقادت إلى ذوي السلطة والثروة، وسطّروا الزيف والباطل.

٣. من المعلوم تواجد الشيعة الإمامية في المدينة المنورة منذ عصر الوحي إلى يومنا هذا، كما أنّ من البديهي أنّ عصر الإمامين الباقرين الصادقين عليهما السلام كان من أكثر العصور ازدهاراً، حتّى تجاوز عدد الرواة عن الصادق عليه السلام خمسة آلاف شخصاً، ولا يشمل الكتاب دراسة أحوال الرواة المدنيّين، وقد أوكّلهم إلى كتاب آخر من هذه السلسلة المباركة.

٤. يلاحظ القارئ أنّ الفارق بين هذا الكتاب وكتاب أعلام المجاورين بمكّة المعظّمة هو أنّ المترجمين في ذاك قد وردوها من بلدان نائية، خلافاً لهذا الكتاب فإنّ المترجمين فيه كان أكثرهم من قطّان المدينة وسكّانها وأبنائها الأصليين، وليس فيهم من المهاجرين والمجاورين إلاّ النزر اليسير.

ملحق الكتاب

يشتمل الكتاب على ملحق مهمّ وهو دراسات في تاريخ المدينة المنورة، وهي تشتمل على الفوائد والملاحظات التالية:

(أ) تاريخ تعمير قبة الأئمة عليهم السلام في البقيع بأمر مجد الملك القمي البراوستاني في القرن السادس الهجري.

ومن خلال النصوص التاريخية التي جمعها المؤلف يتبين أنَّ مجد الملك القمي - الذي أجمعت مصادر الفريقين على تشييعه وإيمانه ومدحه والثناء عليه - كانت له آثار جليلة منها إعمار قباب الأئمة عليهم السلام في البقيع.

ب) دار حزن الصديقة الشهيدة في البقيع

فمن الثوابت التاريخية بكاء الزهراء عليها السلام بعد أبيها وانعزالها عن الناس، فبنى لها أمير المؤمنين عليه السلام ظلالاً، أو قُل دار الحزن في البقيع وكان على شرقي مرقد الأئمة عليهم السلام على بُعد عشرين متراً^١ ويجمع المؤلف نصوصاً تاريخية من المصادر القديمة مما يثبت وجوده في القرون السالفة حتى هدموه فيما هدموا من آثار المدينة المنورة.

ومن تلکم المصادر: لطائف الأذکار لابن مازة (م ٥٦٦هـ)، والإرشادات للرحالة الهروي (م ٦١١هـ)، ورحلة ابن جبیر، و زهر الرياض للسید حسن الشدقي وغيرها...

ج) الغابة موضع في المدينة لبني الحسين عليهم السلام

يورد المؤلف نصاً مهماً عن المغانم المطابة للفيروزآبادي (٣: ٩٧٩) يتبين من خلاله أن الغابة - وهو موضع على نحو يريد من المدينة - كان لبني الحسين عليهم السلام، وأثم كانوا من الشيعة الإمامية على نهج آبائهم، كما كان فيها عالمٌ مدنيٌّ شيعي - من غير بني الحسين - لم يُسَعَفْنَا باسمه أو لقبه.

د) من تاريخ البقيع في عهد الإمام الرضا عليه السلام

يورد المؤلف رواية مهمة من رجال الكشي (٣٦٨: ٣٦٨)، و أيضاً لاحظ: البحار ٦٦: ٢٨٢

١. لانجد فيما بأيدينا أي مصدر معتبر لهذا الخبر، اللهم إلا ما قاله المرحوم المحدث المجلسي في بحاره: أقول: وجدت في بعض الكتب (!؟) خبراً في وفاتها أحببت إيراده وإن لم أجده في أصل يعول عليه: روى ورقة بن عبدالله الأزدي (!؟) قال.. ثم إنه بنى لها بيتاً في البقيع نازحاً عن المدينة يسمى بيت الأحزان.. بحار الأنوار ٤٣: ١٤٧-١٧٧-١٨٠. اليوسفي الغروي.

يَتَبَيَّنُ مِنْ خِلَالِهَا:

- ١ - المنع من دفن الغرباء في البقيع آنذاك، ممَّا ينمُّ على مكانة البقيع في نفوس الناس.
- ٢ - أنَّ للبقيع متولياً قائماً عليه.
- ٣ - استحباب رشِّ القبر الجديد بالماء.

هـ) تحقيق حول كلمة «النخالة»

فمن المعلوم أنَّ النخالة قسمٌ من الشيعة في المدينة، ومعنى النخالة أي: العاملون في النخيل، يستعرض المؤلف تاريخ استعمال هذه الكلمة في المصنّفات القديمة، ويؤكد أنَّ التشييع في المدينة غير منحصر في النخالة كما يتوهمه البعض، فإنَّ ابن فرحون يعبر عن الشيعة بما يفهم منه كونهم قطنة المدينة الأصليين، و غير الشيعة هم المجاورون. ثمَّ يسرد المؤلف أسماء جملة من أصحاب القلم والتأليف من النخالة.

و) تعاهد أسرة الوراميني بتعمير الحرمين الشريفين

يورد المؤلف نصّاً مهماً من الأنساب والشيخ عبد الجليل القزويني في كتاب النقض أنَّ أسرة رضيِّ الدِّين أبي سعد الوراميني الشيعية الممولة كانت تتعاهد بتعمير الحرمين الشريفين وكثرة خيراتهم لهما من توفير شموع النور وإرسال الأرزاق وغير ذلك.

ز) موقوفات مجد الدِّين الكاشاني على الحرمين

وهو مجد الدِّين أبوالقاسم عبيد الله بن فضل بن محمود الكاشاني (ت ٥٣٥ هـ) وقد وقف أموالاً كثيرة على المدارس والمساجد والرباطات والحرمين الشريفين، وغير ذلك.

ح) الحائط الصيحاني في المدينة

يورد المؤلف روايةً مضمونها مرور رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليهما السلام في الحائط في المدينة، فيه النخل الصيحاني.

ويعلّق العباسي في عمدة الأخبار (٤٤٨) أنَّ هذا الحائط موجود إلى عصره، وهو

بيد الشريف الصفوي بن سليمان الطفيلي الحسيني من أشرف بني الحسين في المدينة.

ط) دار الإمام العسكري عليه السلام في المدينة

يورد المؤلف نصاً مهماً من الفيروزآبادي يدلّ على وجود بيت الإمام الحسن العسكري عليه السلام في المدينة المنورة قرب المسجد النبوي؛ وهو ممّا لم يُشر إليه في الدراسات المعاصرة.

ي) دار أسعد أمر الله في المدينة

يورد المؤلف نصاً للشيخ آقا بزرك يدلّ على وجود بيت لأسعد أمر الله بجانب قبور البقيع وهم بيت تشيع، وراجع للتفصيل أعلام المجاورين بمكة (٢: ٦٥٨).

يا) المصحف الكريم بخط الشريف جواز بن القاسم أمير المدينة المنورة (حكم ٥٨٣ هـ - ٦١٢ هـ)

يورد المؤلف نصاً من كتاب حاشية زهرة المقول للسيد محمد بن علي المكي الموسوي يصرّح فيه بوجود المصحف عند ذرية الشريف جواز.

يب) القراقر

وهو موضع من أعراض المدينة لآل الحسين بن علي عليه السلام، كما نصّ عليه الفيروزآبادي في المغام المطابة (٣: ١٠٢٨).

يج) خاخ

وهو موضع بين الحرمين، وكان فيه منزل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بتصريح الفيروزآبادي أيضاً (٢: ٧٧١).

يد) ذكر الأبيات الشعرية المنقورة على حجر عند ضريح سيّد الشهداء حمزة عليه السلام

يه) مسجد الإمام علي عليه السلام ومسجد فاطمة الزهراء عليها السلام عند مسجد قبا

وهذان المسجدان نصّ عليهما الفقيه النراقي في المناسك المكيّة، ولا أثر لهما اليوم.

يو) إقامة العزاء على الإمام الحسين عليه السلام في البقيع يوم عاشوراء

نصّ عليه ابن العديم في بغية الطلب، وأن الشيعة كانوا يقرؤون مقتل الحسين عند قبور الأئمة في البقيع يوم عاشوراء.

(يز) عضد الدولة الديلمي أول من بنى سوراً على المدينة المنورة

نصّ عليه الفيروزآبادي في المغانم المطابة (٢: ٨٥٦)، وقد كان عضد الدولة أديباً عالماً شاعراً شيعياً اثني عشرياً، لاحظ ترجمته في أعيان الشيعة (٨: ٤١٥ - ٤٢٦).

(يج) بيتان من الشعر لبعض أهل المدينة عند إرسال بعض الهدايا لمعاريفهم في سائر البلدان. يط (كتب قديمة في تاريخ المدينة المنورة

يشير المؤلف إلى بعض المصادر القديمة في تاريخ المدينة المنورة، مع الإشارة إلى طبعاتها والمخطوطات المهمة منها.

(ك) موقوفات للطواف حول الكعبة ولزيارة النبي و الأئمة عليهم السلام في البقيع

يورد المؤلف توضيحاً عن موقوفات (الحاج حقّ نظر آقا) من رجال الدولة الإيرانية الذي وقف قسماً من أمواله لمن يطوف عنه حول الكعبة، أو يزور عنه النبي والأئمة عليهم السلام في البقيع.

(كا) ملتقطات تاريخية من كتاب زهر الرياض و زلال الحياض المخطوط

وهو تأليف كبير فيه التحقيق من قبل المؤلف، أورد هنا ما يخص مؤلفه السيد حسن

بن علي الشدقي أو ما يرتبط بتاريخ المدينة المنورة، وهي كالتالي :

١ - كيف ابتداء بتأليف زهر الرياض.

٢ - وادي جفاف.

٣ - شاس، هي الحديقة الحسينية.

٤ - من شعر الحسن الشدقي.

٥ - عمارة مسجد الإمام علي عليه السلام ودار الأحرار للزهراء عليها السلام.

٦ - أرجوزة في مدح الحسن الشدقي من إنشاء محمد بن الحسين السمرقندي.

٧ - امتناع ولاية الغور عن سب علي عليه السلام.

- ٨ - منع إدخال جنائز الشيعة إلى المسجد النبوي للصلاة عليهم.
 - ٩ - القرية السوارقية.
 - ١٠ - زقاق في المدينة باسم الزوراء.
 - ١١ - بئر غرس.
 - ١٢ - بئر العهن.
 - ١٣ - السيّد علي بن بلول الوحادي عرّب في السوق.
 - ١٤ - الحديقة السراة.
 - ١٥ - إقطاع شريف مكّة أبي نمي المزرعة الرحضية (= الأرحضية) للحسن ولأحمد الشدقيين.
 - ١٦ - احتراق المسجد النبويّ في سنة ٦٥٤هـ وبعض الفتن التي ثارت حوله.
 - ١٧ - مزارع العصبة غربي مسجد قبا.
 - ١٨ - الدار الشدقي في مكّة.
- ك) العلاقات بين آل شدم والأسرة النظام شاهیة الحاكمة في أحمد نگر بالدكن الهند.
- وفي هذا البحث دراسة عن تاريخ العلاقات الودیة بين الشداقة والنظام شاهیة في الهند الذي أدّى لاحقاً إلى المصاهرة، جمع نصوصها المؤلّف من مصادر شتى.
- كج) العلاقات بين آل شدم وغيرهم من السادة المدنيّين، وبين السلاطين الصفویة وهو موضوع مهمّ جدير بالبحث، يورد المؤلّف جملة من النصوص التي التقطها من مصادر مختلفة، وهي كالتالي:
- ١ - علاقة السيّد حسن الشدقي صاحب زهر الرياض بالصفويين.
 - ٢ - لقاء السيّد سليمان بن محمّد بن الحسن الشدقي بالشاه عبّاس الصفوي.
 - ٣ - علاقة السيّد تقيّ بن علي بن الحسن الشدقي بالشاه عبّاس الأوّل والشاه صفي الصفويين.
 - ٤ - علاقة السيّد علي بن التقي بن علي بن الحسن الشدقي بالشاه عبّاس الصفوي

الثاني.

٥ - علاقة السيّد حسين بن الحسن الشدقمي بالشاه عبّاس الصفوي الأوّل.

٦ - لقاء عامر بن بديوي بن علي بن عرمة الواحدي المدني بالشاه عبّاس الصفوي الأوّل.

٧ - لقاء قنّاع بن محمّد بن علي بن رملي المدني بالشاه طهماسب ابن الشاه إسماعيل الصفوي.

٨ - ملازمة رمال بن قدّاح المدني للشاه إسماعيل والشاه طهماسب الصفويين.

٩ - لقاء علي بن الأمير مسعود بالشاه سليمان الصفوي.

١٠ - عناية الشاه طهماسب الصفوي ببعض السادة المدنيّين.

١١ - توجّه فاضل بن حمّود إلى إصفهان ولقائه بالشاه سليمان الصفوي.

١٢ - مسافرة السيّد غديفان المدني إلى إصفهان.

١٣ - مسافرة السيّد مهتّا بن صالح بن حمّاد بن ناموس إلى إصفهان.

كـ) عدد الشيعة المدنيّين في بداية العصر المملوكي (سنة ٦٤٨ هـ) وفي نهايتها سنة (٩٢٣ هـ)

كه) أمراء المدينة المنورة من السادة الأشراف الشيعة المدنيّين

وهذه القائمة تحتوي على ما يقرب من مئة اسم لأمرء الشيعة الأشراف في المدينة.

كو) أرض العجم في المدينة المنورة

بحث وتوثيق لقطعة أرض كانت لإيران في المدينة المنورة وما آلت إليه.

كز) ثلاث مكاتبات مدنيّة

رسالتان من رجال إيران إلى السادة المدنيّين، والمظنون أنّ الرسالة الأولى كانت

لأحد السلاطين الصفويّة، بعث بها إلى السادة العلماء في المدينة المنورة، وهي ذات محتوى ودّي، والرسالة كانت بالفارسيّة قام بتعريبها المؤلّف.

والرسالة الثانية من السيّد محمّد علي بن السيّد محمّد حسين الموسوي الجزائري

(القرن الثاني عشر) إلى جملة من السادة في المدينة المنورة، والمحتوى حول الموقوفات التي

تخصّ السادة الحسينيّين في المدينة المنورة وبعض خدمة الروضة النبويّة.
ورسالة ثالثة من السادة الأشراف الحسينيّين في المدينة المنورة إلى سلطان البنغال.
كج) بناء قبة النّبيّ ﷺ في القرن السابع
وهو نصّ تاريخيّ أوردّه ابن المستوفي في تاريخ إربل (٢٢١ - ٢٢٢).
كط) قصيدة الشيخ عليّ البلاديّ البحرانيّ في مدح المدينة المنورة والبقيع الغرقد
ل) أحد شعراء المدينة المنورة، وقصيدته الفريدة التي لم ترد في مصدر آخر
الأعلام المترجمين في الكتاب:

و إليكم قائمة بأسماء الأعلام الذين وردت تراجمهم في الكتاب؛ ليقف القارئ على
أسمائهم على أقلّ التقادير:

ابن أبي النصر القويضي
السّيّد نظام الدّين أبو النصر إبراهيم بن ضامن بن شذقم الشذقمي
السّيّد إبراهيم بن عبدالواحد بن أبيطالب بن محمّد الحسيني المدني
السّيّد إبراهيم بن السّيّد محمود بن محمّد عليّ القمي الطباطبائي
السّيّد أبو طالب بن محمّد الحسيني المدني الوحاّدي، مجد الدّين
السّيّد جمال الدّين أبو القاسم النسابة ابن السّيّد ضامن بن شذقم المدني
النقيب السّيّد أحمد بن سعد بن عليّ بن شذقم الشذقمي المدني
الشيخ أحمد بن عبد الكريم بن سالم، المعروف بابن الجلال الحمصي
السّيّد أحمد اللواساني
السّيّد إدريس
السّيّدة أمّ الحسن ابنة السّيّد حسن الشذقمي صاحب زهر الرياض
الشيخ تاج الدّين بن عبد الله بن حسن بن سليمان المدني الكلبي، الشهير بالسليمان
السّيّد تقيّ الشذقمي ابن عليّ بن الحسن المؤلّف لزهر الرياض
السّيّد ثابت بن أحمد المدني العلوي

السَّيِّدُ جَابِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ جَوَيْهَرَ الْحُسَيْنِيِّ التَّمَارِيِّ الْمَدَنِيِّ
جَعْفَرُ بْنُ سَالِمِ الْمَدَنِيِّ
السَّيِّدُ حَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ الْحُسَيْنِيِّ نَزِيلُ طَبِيبَةِ الطَّبِيبَةِ
الْشَّيْخُ حَسَنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَحْرَانِيِّ الْمَدَنِيِّ
الْقَاضِي السَّيِّدُ حَسَنُ الْمَلَقَبُ عَزِيزُ ابْنِ سَنَانَ الْحُسَيْنِيِّ الْمَدَنِيِّ
السَّيِّدُ حَسَنُ الْعَصَّارِ الْخُرَاسَانِيِّ
السَّيِّدُ حَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ سَنَانَ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْحُسَيْنِيِّ الْعُبَيْدِيِّ الْمَدَنِيِّ
السَّيِّدُ بَدْرُ الدِّينِ حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ شَدَقَمِ الْحُسَيْنِيِّ الْمَدَنِيِّ
نسبه
ولادته
نشاطاته
مشايخه
إجازات العلماء الكبار للسَّيِّدِ حَسَنٍ
إجازة لبعض الشداقمة
آثاره العلميَّة
شعره
مكتبته
تكملة
تاريخ وفاته
الشيخ بدر الدِّين حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ النَّبِيِّ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ الْقَطِيفِيِّ
الشرِيف حَسَنُ بْنُ عَمِيرَةَ الْحَمِيضِيِّ الْوَحَادِيِّ الْمَدَنِيِّ
حَسَنُ بْنُ كَمَالِ الدِّينِ الْمَدَنِيِّ
الشيخ حسين بن أحمد المدني

السَّيِّد حسين الشدقي ابن الحسن المؤلّف لزهر الرياض
الحسين الدّين آبادي

الشيخ حسين بن ربيعة المدني

حسين بن سعيد بن موسى بن حميد المدني

السَّيِّد حسين بن علي بن الحسن الشدقي الحسيني المدني

أشعار السَّيِّد حسين الموجودة

مدح السَّيِّد حسين من إنشاء كبار الشعراء

مكتبته

أولاده

الحسين علي بن الحسين علي [...] الحسيني المدني

السَّيِّد حمزة بن مصطفى بن محمّد بن صقر الجمّازي الحسيني المدني

السَّيِّد خليفة بن أحمد حمدين الشدقي

السَّيِّد الرضي الشدقي ابن الحسين بن علي بن الحسن المؤلّف لزهر الرياض

رمال بن قداح المدني

المولى زمان الطبرسي

سعد بن جعفر

السكاكيني

السَّيِّد سلطان بن محمّد بن خضر الشدقي المدني

الشيخ سليم بن عبد الله بن حسن بن سليمان المدني السليمان

السَّيِّد سليمان بن محمّد بن الحسن الشدقي المدني

شمس الدّين سنان بن عبد الوهاب بن ثُميلة الحسيني القاضي المدني

السَّيِّد سنان ابن هاشم القاضي بن سنان بن عبد الوهاب القضاة المدنيّين

الشيخ سديد الدّين أبو الفضل شاذان بن جبرئيل بن إسماعيل القميّ

آثاره

مشايخه

تلاميذه

السَّيِّدُ شاهين الحسيني الشدقمي

السَّيِّدُ شاهين بن سرداح بن مقبل الواحدي المدني

السَّيِّدُ شدقم بن علي بن الحسن المؤلّف لزهر الرياض

الشيخ صدر الإسلام بن أبي المعالي النيشابوري

السَّيِّدُ ضامن بن شدقم بن علي بن الحسن المؤلّف لزهر الرياض

آثاره

عامر بن بديوي بن علي بن عرمة الواحدي المدني

الشيخ عبد الحسين الفقيهي الجيلاني الرشتي

الشيخ عبد الحسين النجفي الركابي

عبد الرحيم بن حسن الحربي المدني، أبو ماجد

الشيخ عبد العزيز بن صالح بن عبد الحميد المدني

السَّيِّدُ عبد العظيم الحسيني المدني

الشيخ معين الدّين عبدك (عبدكي، خ) بن الحسن الإسترآبادي

الشيخ عبد الله بن حسن بن سليمان، الشهير بالسليمان المدني

عبد الواسع بن أبو طالب الحسيني المدني

الشيخ عبد الوهاب بن محمّد بن عبد الوهاب الأحسائي

السَّيِّدُ عبد الوهاب بن ثُميلة الحسيني الواحدي المدني قاضي المدينة

عزّ الدّين بن نور الدّين علي أبي سعيد

الشيخ علي الجبل عاملي

الشيخ علي العلاسي الفرعي

السَّيِّد علي صدر الدِّين الشهير بـ: ابن معصوم المدني
الشيخ علي بن أحمد العاملي الحانيني
الشيخ علي بن أحمد بن حامد العَمري
علي بن أحمد بن يوسف بن أحمد بن عطية بن مختار بن هاشم المدني
السَّيِّد علي الشدقمي ابن تقي بن علي بن الحسن المؤلف لزهر الرياض
السَّيِّد علي بن الحسن بن شذقم الحسيني المدني
علاقاته بكبار العلماء في البلاد الإسلامية
إجازة المؤيّد بالله الإمام محمّد بن القاسم الزيدي للسَّيِّد عليّ
آثاره العلميّة
أُنموذج من شعره
الكتب الّتي ألّف بطلب السَّيِّد عليّ
مكتبة السَّيِّد عليّ
تاريخ وفاته
السَّيِّد علي النقيب ابن حسن بن علي بن شذقم
علي بن شاه حيدر المشهدي
السَّيِّد علي بن سنان الحسيني القاضي المدني
السَّيِّد علي بن عامر بن شاهين بن سرداح المدني
نور الدِّين علي ابن الشيخ صفّي الدِّين يوسف بن عزيز المدني
الشيخ علي بن عبد الله الفرعي
السَّيِّد شمس الدِّين علي بن عرفة العلوي الحسيني المدني
أبو الحسن عليّ بن محمّد بن محمّد بن علي بن السَّكُون الحلّي
السَّيِّد عمران الحبوبي المدني
شعره

رثاؤه في أشعار الشعراء

فخر الدين عيسى بن هاشم القاضي ابن سنان الحسيني

السيد قريش بن السبيع العلوي الحسيني المدني

تنمّة مشايخه

الراوون عنه

آثاره

خطوطه على بعض الكتب

قناع بن محمد بن علي بن رملي المدني

القيشاني (= القاشاني)

السيد محسن بن محمد بن الحسن الشدقي المدني

السيد محمد بن أحمد حمدين بن الحسن بن علي بن شذقم المدني

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن مخلوف المدني

السيد محمد بن أحمد الحسيني اللّواساني المدني

السيد محمد بن أحمد النذيري الجمّازي الحسيني الموسوي

السيد محمد تقي آل أحمد الطالقاني

السيد محمد بن جابر بن محمد بن جويبر التماري المدني

السيد محمد بن جويبر التماري الحسيني المدني

أُنمُذَج من خطّه

دفع وهم

الشيخ محمد بن الحسن الآملي الشريف

السيد محمد بن الحسن العلوي الموسوي المدني المعروف بنعمة

السيد محمد بن الحسن بن علي بن شذقم الحسيني المدني

إجازة الشيخ حسن العاملي للسيد محمد الشدقي

خطّه ونقش خاتمه

السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ دَبِيكَلُ بْنُ صَقَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ ثَابِتِ الْوَاحِدِيِّ الْمَدَنِيِّ

السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ بْنُ صَالِحِ بْنِ عَامِرِ الْحَيَارِيِّ الظَّالِمِيِّ الْحُسَيْنِيِّ

الشيخ مُحَمَّدٌ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَامِدِ الْعَمْرِيِّ

وكالاته من مراجع الدين

العمارة المحسنيّة

المدرسة (الكتاب) الحسينيّة

الشيخ في قلب الأحداث

وفاته

المعزّون الكبار

عقبه

رثاؤه في أشعار الشعراء

السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ بْنُ عَلِيِّ بْنِ طَرَادِ الْحُسَيْنِيِّ الْمَدَنِيِّ

السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ قَاسِمُ بْنُ حَمْزَةِ الْحُسَيْنِيِّ الْأَعْرَجِيِّ الْمَدَنِيِّ

السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ كَبْرِيتُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّنْدِيِّ الْحُسَيْنِيِّ الْمَدَنِيِّ

السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ الشَّدَقَمِيُّ ابْنُ مُحَسِّنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الْمُؤَلِّفُ لَزَهْرِ الرِّيَاضِ

السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِيِّ اللُّوَاسَانِيِّ الْعَصَّارِ

السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ مَهْدِيُّ الْمَوْسَوِيِّ الْجَزَائِرِيِّ الشُّوشْتَرِيِّ أَصْلًا، الْمَدَنِيِّ مَسْكَنًا

السَّيِّدُ مَرْتَضَى الشَّدَقَمِيُّ ابْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ الْمُؤَلِّفُ

السَّيِّدُ مَرْتَضَى الشَّدَقَمِيُّ ابْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ الْمُؤَلِّفُ لَزَهْرِ الرِّيَاضِ

المشيّع (أو: ابن المشيّع) المدني

السَّيِّدُ نَجْمُ الدِّينِ مَهْنًا بْنُ سَنَانِ الْحُسَيْنِيِّ الْمَدَنِيِّ قَاضِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

هجرة السَّيِّدِ مَهْنًا إِلَى الشَّامِ وَالْعِرَاقِ

مكرمةً من الله تعالى للسَّيِّدِ مَهْنًا المَدَنِيَّ
آثاره العَلَمِيَّةَ

شعر السَّيِّدِ مَهْنًا

الإجازات للسَّيِّدِ مَهْنًا المَدَنِيَّ

عقب السَّيِّدِ مَهْنًا

ميزان بن مُحَمَّد بن جعفر المَدَنِيَّ

السَّيِّدِ نعمة الله النَّسَّابَةُ بن علي بن أحمد الحُسَيْنِيَّ الحُسْنِيَّ

السَّيِّدِ هاشم القاضي ابن سنان بن عبد الوهاب بن غيلة الحُسَيْنِيَّ المَدَنِيَّ

السَّيِّدِ هاشم القاضي ابن قاسم بن سنان الواحدي المَدَنِيَّ

السَّيِّدِ يافث بن يافث المَدَنِيَّ الحُسَيْنِيَّ

يعقوب بن الصَّفِيِّ

يعقوب بن هاشم بن سنان بن عبد الوهاب المَدَنِيَّ

الشيخ يوسف الشَّرِيشِيَّ المَدَنِيَّ

نجم الدِّين يوسف بن هاشم بن سنان بن عبد الوهاب الحُسَيْنِيَّ

في ذكر أحد العلماء من آل عبد الواحد بن مالك المَدَنِيَّ الحُسَيْنِيَّ

جماعة نسبوا أنفسهم إلى المدينة

السَّيِّدِ إبراهيم بن زين العابدين الحُسَيْنِيَّ النَّسَّابَةُ الشَّرِيفِيَّ المَدَنِيَّ

الشيخ أحمد المَدَنِيَّ

أحمد الشهير بالمَدَنِيَّ ابن الحسن العاملي

الشيخ أحمد المحسني الربيعي المَدَنِيَّ الأحسائيَّ الفَلَّاحِيَّ

بنان مَدَنِيَّ

السَّيِّدِ المير جعفر المَدَنِيَّ

السَّيِّدِ جعفر بن عبد الرؤوف الموسوي المَدَنِيَّ البَحْرَانِيَّ

جمال بن حسن العاملي الشهير بالمدني
حاجي بن محمد علي الحسيني المدني أصلاً، والأحسائي مسكناً
حافظ شريف بن حسن المدني
حسن بن إبراهيم الصعيدي المدني
حسن بن إبراهيم بن عمران بن حسين المدني الأوالي الجدحفصي
حسن بن أحمد بن عبد الأمير المدني
حسن بن كمال الدين المدني
السَّيِّد حسن بن محمد المدني الحسيني الجُبيلي
السَّيِّد حسن بن محمد الحسيني المدني الأحسائي الجنابذي
السَّيِّد شمس الدين بن محمد الحسيني الأحسائي المدني
إجازته للسَّيِّد هداية الله
عبد الحق بن محمد بن عيسى الحسيني المكي المدني البحراني الحلبي
عبد الله الحسيني المدني
عبد الله بن مراد المدني
علي بن أحمد الحسيني المدني الأحسائي
علي أصغر بن عبد الغفار المدني
علي أكبر بن عبد الله المدني
علي بن عبد الحسين بن سلطان الحسيني الموسوي المدني السماوي الحلبي
علي بن فاضل القاضي المدني المازندراني
علي بن محمد بن إبراهيم بن أبو المكارم المدني الغروي
محسن بن محمد الحسيني المدني
الشيخ محمد المدني الكاظمي
السَّيِّد محمد المدني الجنابذي

محمد باقر المدني
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ صَالِحُ الْحُسَيْنِيِّ الْحُسَيْنِيِّ الْأُرْدِسْتَانِيِّ الْمَدَنِيِّ
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ طَاهِرُ الْمَدَنِيِّ الْمَوْسَوِيِّ الْحُسَيْنِيِّ الْعُلُوِيِّ الْخَطَّاطُ
الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ ابْنُ الْحَاجِّ حَسَنِ الْمَدَنِيِّ الْبَحْرَانِيِّ
مُرْتَضَى الْمَدَنِيِّ
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ مَهْدِي الْمَوْسَوِيِّ الْمَدَنِيِّ
السَّيِّدُ مُوسَى بْنُ حَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِيِّ الْجَمَّازِيِّ الْمَدَنِيِّ الْخِرَاسَانِيِّ
مِيرُ خَسْرُو بْنُ مِيرِ حَسَنِ الْمَدَنِيِّ
مِيرُ مُحَمَّدٍ الْمَدَنِيِّ
مِيرُ مُحَمَّدٍ عَرَبُ بْنُ مِيرِ مُحَمَّدٍ رِضَا الْحُسَيْنِيِّ الْمَدَنِيِّ
السَّيِّدُ هَاشِمُ بْنُ حُسَيْنِ الْمَدَنِيِّ
يَحْيَى بْنُ هَادِي الْمَدَنِيِّ
السَّيِّدُ يُوسُفُ بْنُ غَالِبِ الْحُسَيْنِيِّ الْمَدَنِيِّ الْجَزَائِرِيِّ



شخصيات من المحررين الشريفيين (٤٠)

البراء بن عازب الأنصاري

محمد سليمان

مما لا شك فيه أن الصحابة تركوا تاريخاً وسيرة وآثاراً تُعدُّ مصدراً مهماً جداً لكل من يريد دراسة تلك المرحلة الأهم والأخطر بكل أحداثها، والتي شكلت العصر الإسلامي الأول، فإذا ما أردنا الاطلاع أو دراسة ذلك العصر؛ لابد لنا من أن ندرس ونتدبر إرثاً حافلاً بالمواقف والأحداث والروايات للذين آمنوا برسول الله ﷺ وبدعوته سواء أكانوا من المهاجرين أم كانوا من الذين سُمّاهم التنزيل العزيز بالأنصار، تكريماً لهم واعترافاً منه بفضلهم وعظيم مواقفهم، وتوحيداً لهم بعد تنازع وتشتت، وتأليفاً لقلوبهم بعد تباعدٍ

وقَتَالٌ لَأَكْثَرِ مِنْ قَرْنٍ، حَتَّى رَاحَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَنَاقِبِهِمْ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ؛ فَكَانُوا هُمْ ﴿...الَّذِينَ
ءَاوَوْا وَنَصَرُوا﴾، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ ﴿يُؤْتِرُونَ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

فَضْلًا عَمَّا وَرَدَ فِيهِمْ مِنْ مَنَاقِبٍ وَفَضَائِلٍ وَأَوْسَمَةٍ زَيْنَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدُورَهُمْ،
مِنْهَا عَنِ الْبَرَاءِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يَبْغُضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ مِنْ أَحِبِّهِمْ أَحَبَّهُ
اللَّهُ. وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ».

فَالْأَنْصَارُ: قَبِيلَتَا الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ؛ وَهُمَا أَخْوَانُ لِأَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ.

فَالْأَوْسُ هُمْ: بَنُو الْأَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ
ابْنِ غَسَّانِ بْنِ الْأَزْدِ بْنِ الْغَوْثِ بْنِ نَبْتِ بْنِ مَالِكِ بْنِ زَيْدِ بْنِ كَهْلَانَ بْنِ سَبِإِ بْنِ يَشْجَبَ بْنِ
يَعْرَبِ بْنِ قَحْطَانَ.

وَالْخَزْرَجُ هُمْ: بَنُو الْخَزْرَجِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ
ابْنِ غَسَّانِ بْنِ الْأَزْدِ بْنِ الْغَوْثِ بْنِ نَبْتِ بْنِ مَالِكِ بْنِ زَيْدِ بْنِ كَهْلَانَ بْنِ سَبِإِ بْنِ يَشْجَبَ بْنِ
يَعْرَبِ بْنِ قَحْطَانَ.

وَأُمُّهُمَا: قَبِيلَةُ بِنْتُ الْأَرْقَمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَفْنَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ بْنِ
حَارِثَةَ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ مَازِنِ بْنِ الْأَزْدِ، وَقِيلَ: قَبِيلَةُ بِنْتُ كَاهِلِ بْنِ عَذْرَةَ بْنِ
سَعْدِ هَذِيمِ بْنِ زَيْدِ بْنِ لَيْثِ بْنِ سُوْدِ بْنِ أَسْلَمِ بْنِ إِحْفَافِ بْنِ قِضَاعَةَ. وَبِمَا أَنَّ قَبِيلَةَ هِيَ أُمُّهُمُ
سَمُّوا بِبَنِي قَبِيلَةَ.

يَقُولُ ابْنُ الْأَثِيرِ الْجَزَرِيُّ: قَبِيلَةُ اسْمُ أُمِّ قَدِيمَةٍ وَهِيَ قَبِيلَةُ بِنْتُ كَاهِلٍ. فَهِيَ جَدَّةُ
لِلْأَنْصَارِ يَنْسَبُونَ إِلَيْهَا، وَهِيَ بِنْتُ كَاهِلِ بْنِ عَذْرَةَ. يَقُولُ ابْنُ مَنْظُورٍ: وَقَبِيلَةُ: أُمُّ الْأَوْسِ
وَالْخَزْرَجِ. وَفِي حَدِيثِ سَلْمَانَ: ابْنَتِي قَبِيلَةُ؛ يَرِيدُ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ قَبِيلَتِي الْأَنْصَارَ. وَقَبِيلَةُ:
اسْمُ أُمِّ لَهِمْ قَدِيمَةٍ وَهِيَ قَبِيلَةُ بِنْتُ كَاهِلٍ.

وَلَمْ تَكُنْ تَسْمِيَتُهُمْ بِقَبِيلَةٍ تَعْرِضًا بِهِمْ أَوْ قَدْحًا بِأُمَّهُمْ، وَلَعَلَّهُ كَانَ مَدْحًا لَهُمْ حَتَّى
أَنَّهُ ﷺ وَكَمَا رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

«إن الله أمدني بأشدّ العرب ألسناً وأدرعاً بابني قبيلة الأوس والخزرج».

وقد كانوا يسمونهم بذلك، فقد ذكروا أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة، كان أكثر أهل المدينة قد خرجوا ينظرون إليه، فلما ارتفع النهار وقلصت الظلال، واشتدّ الحرّ؛ يتسوا منه فانصرفوا، فكان أول من رآه رجل من اليهود. وهو في نخل له، فصاح بأعلى صوته: يا بني قبيلة، هذا جدكم قد جاء يعني حظكم، فخرجوا وتلقوه.

وكذا سيدة نساء أهل الجنة فاطمة الزهراء سلام الله عليها، دعتهم بأبناء قبيلة في قولها: «حتى حبستني قبيلة نصرها والمهاجرة وصلتها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع»، «إيهاً بني قبيلة، اهتضم تراث أبي، وأنتم بمرأى ومسمع، تببلغكم الدعوة، ويشملكم الصوت، ولكم العدة والعدد،...».

وليس هذا تعريضاً، فخلق السيدة يابى ذلك، فهم هكذا عرفوا يومذاك^١.

ومما جاء في فضلهم وكذا الثناء عليهم ومدحهم ما أخبر به عدي بن ثابت، أنه قال: سمعت البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحب الأنصار إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق؛ من أحبهم أحبّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله!»

قال شعبة، قلت لعدي: أنت سمعت من البراء! قال: إياي يحدث.

لقد كانت هجرتهم واحدة من اليمن بعد انهيار سدّ مأرب، واستقرّ بهم المقام في يثرب، حيث الأرض الخصبة، والينابيع الوفيرة، والمزارع الكثيرة، والأعمال الزراعية والتجارية الواسعة النافعة...، إلا أنّهم وبدل أن يعيشوا حياةً طيبةً، أنهكوا بحروب ووقائع بينهم دامت قرابة مئة وعشرين عاماً، والتي لا يعلم إلا الله تعالى كم أخذت منهم من الحرث والنسل، وقد كانت بدايتها بيوم سمير، ونهايتها بيوم بُعث قبل الهجرة المباركة لرسول الله ﷺ إلى المدينة بخمس سنوات، وقد تطلّع عقلاؤهم إلى من يصلح بالهم، يضمّد

١. انظر لسان العرب، لابن منظور ١٣ : حرف القاف: قيل؛ بحار الأنوار ١٩ : ١٢١؛ الاحتجاج، للطبرسي؛ كتاب السقيفة وفدك، للجوهري (ت ٣٢٣هـ ج ١٠٠ - ٩٩؛ ومسنّد الإمام أحمد رقم ١٨٠٢٠.

جراحهم، يجمع شملهم، يوحد صفوفهم، يُشخص لهم عدوهم، يقوي شوكتهم ضدَّ من يريد الكيد لهم...، وكأنَّ الأنظار تنتظر، والقلوب تنتظر منقذاً لهم، فكان موسم الحجّ، وكانت العقبة في منى حيث اللقاء الأول مع طائفة من الخزرج لم يتجاوزوا ستة أشخاص، فعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليهم القرآن.. وهم يسمعون بحماس لما يقوله لهم، وينصتون باطمئنان لتلاوته آيات قرآنية مباركة...

ثمَّ قال بعضهم لبعض: «يا قوم تعلمون والله يا قوم؛ إنَّه للنبيّ الذي توّعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام».

وبعد أن أسرعوا إلى إجابة دعوته ﷺ وأسلموا..

قالوا: «إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدّين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعزّ منك».

ثمَّ كانت العقبة الأولى، وهكذا الثانية فالأخيرة، ثمَّ كانت يشرب الموعد، المدينة المنورة فيما بعد برسول الله ﷺ ودعوته المباركة بعد هجرته الشريفة إليها، وكانت اللقاءات التي أثّرت عن أوس وخزرج إخوة مؤمنين متآخين متحابين في الله تعالى، تجمعهم صفة واحدة (الأنصار)... وبهجرتهم ﷺ لهم، ووجوده المبارك بينهم، انتهت الضغائن والأحقاد، ومنعت أيدي اليهود، الذين كان لهم دور خطير في إذكاء العداء والقتال بينهما وتمويله...! فأغاض هذا يهود المدينة، فكان شأس بن قيس من كبار اليهود وأثريائهم في يثرب؛ قد مرَّ على نادٍ فوجد فيه الأنصار تحيط بهم أجواء إلفَةٍ وتفاهمٍ ومودّةٍ لم ترق له، فأغرى شاباً نزقاً يحفظ أشعار يوم بُعث، راح يتغنّى بها، يذكرهم به، وبما فيه من آلام ومصائب وأحن؛ يلقي الكراهية بينهم، يحرك الضغائن في قلوبهم، فيثيرهم...

يقول الواحدي: وكان شيخاً فدعاً في الجاهليّة عظيم الكُفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، فمرَّ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج

فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ، فَعَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ جَمَاعَتِهِمْ وَأَلْفَتِهِمْ وَصَلَحَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَدَاوَةِ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأَ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ، لَا وَاللَّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَ شَأْبًا مِنْ الْيَهُودِ كَانَ مَعَهُ، فَقَالَ: ااعْمَدُوا إِلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ بِيَوْمِ بُعَاثٍ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنشَدَهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا يَقُولُوا فِيهِ مِنَ الْأَشْعَارِ، وَكَانَ بُعَاثٌ يَوْمًا اقْتَتَلَتْ فِيهِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَكَانَ الظَّفَرُ فِيهِ لِلْأَوْسِ عَلَى الْخَزْرَجِ، فَفَعَلَ فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى تَوَأَّبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيِّينِ أَوْسٌ بَنُ قَيْظِيٍّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ مِنَ الْأَوْسِ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ أَحَدُ بَنِي سُلَيْمَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ فَتَقَالَوْا وَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّ شَيْئًا وَاللَّهِ رَدَدَتْهَا الْآنَ جَذَعَةً، وَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا وَقَالَا: قَدْ فَعَلْنَا، السَّلَاحَ السَّلَاحَ، مَوْعِدُكُمْ الظَّاهِرَةُ وَهِيَ حَرَّةٌ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا فَانضَمَّتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى دَعْوَاهُمُ اللَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى جَاءَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، بَدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمُ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَلْفَ بَيْنِكُمْ، فَتَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا؟ اللَّهُ اللَّهُ».

فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَاحَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَبَكُوا، وَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يَعْنِي الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، يَعْنِي شَاسًا وَأَصْحَابَهُ ﴿يَزِدُّوكُمْ بِعَدُوِّكُمْ كَافِرِينَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَزِدُّوكُمْ بِعَدُوِّكُمْ كَافِرِينَ﴾^١.

قال جابر بن عبد الله: ما كان من طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ فأومأ إلينا

بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول الله ﷺ فما رأيت قطُّ يوماً أقبح ولا أوحش أولاً وأطيب آخرًا من ذلك اليوم»!

قد أطفأ الله عز وجلَّ عنهم كيد عدو الله شاس، وأنزل الله في شأن شاس بن

قيس وما صنع قوله:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ * وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^١

وأنزل في شأن أوس بن قيطي أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج وهما اللذان توثبا وتقاولا؛ فقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، أي حامية... ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^٢

١. سورة آل عمران: ٩٨ - ٩٩ .

٢. سورة آل عمران: ١٠٠ - ١٠٥ .

وهكذا كان ﷺ يقف بقوة كلما ظهرت عصبية هنا وتحزّب هناك، وينهى عنها بقوله:
«وأنا بين أظهركم دعوها - أي العصبية - فإنها منتنة!»^١

أ أوسي وخزرجي؟

بعد هذه المقدمة المختصرة عن الأوس والخزرج؛ نحن أمام صحابي أنصاري، وهو المتفق عليه، إلا أنه اختلف في كونه من الخزرج أو من الأوس؛ القبيلتين الكبيرتين المعروفتين، فقد وجدت اختلافاً في نسبته لإحدى القبيلتين؛ الأوس والخزرج وهما من بني غسان بن الأزد الكهلاني القحطاني.

ففي أسد الغابة، لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية هو البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة أو جدعة بن حارثة بن الحارث بن عمرو بن مالك ابن الأوس الأنصاري الأوسي المدني، وكنيته أبو عمرو، أبو عمر، أبو طفيل، والأصح أبو عمارة، فهو من قبيلة الأوس، وهي وقبيلة الخزرج من بني غسان بن الأزد الكهلاني القحطاني. وكذا هو في الإصابة، لابن الحجر المتوفى سنة ٨٥٢ هجرية: البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي. وأيضاً عن ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ، مع بعض الاختلاف، إلا أنه يُنهي نسبه إلى الأوس فهو:

البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج ابن عمرو بن مالك بن أوس الأنصاري الحارثي الأوسي..

إلا أن نسبه في كتاب الاستيعاب، لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هجرية جاء مختلفاً، فقد عدّه من الخزرج، فهو البراء بن عازب بن حارث بن عدي بن جشم بن مجدعة

١. انظر السيرة النبوية، لابن هشام ٢ : ٤٢٨ إسلام الأنصار، وص ٥٥٦، وغيرها من المصادر؛ وأسباب النزول، للواحيدي؛ وكتب التفسير : الآيات .

ابن حارثة بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الحارثي الخزرجي.
وما ذكره ابن عبد البر في استيعابه، لم يكن خطأً أو سهواً، فهو وإن كان مخالفاً لما
عليه الآخرون أعلاه من أن الرجل أوسي لا خزرجي، إلا أنني وجدت ابن سعد المتوفي
سنة ٢٣٠ هجرية وهو الأقدم منهم في طبقاته يذكر نسبه التالي:
البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن
الخزرج. وبالتالي فهو خزرجي.

مما يعني أن ابن عبد البر لم ينفرد ولم يشتبه بل هو تبع ابن سعد.
وأما ابن حجر في فتح الباري: فقد خطأً من قال إنه خزرجي، مبيّناً سبب ذلك وهو
أن في نسبه (الخزرج) فظنوه أخا الأوس الذي تنسب إليه القبيلة المعروفة، وإنما هو من
نسل الأوس... وهذا قوله في ردّه على من قال: ... والبراء خزرجي ... وهو خطأ فاحش
فإن البراء أيضاً أوسي؛ لأنه بن عازب بن الحارث بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن
الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس يجتمع مع سعد بن معاذ في الحارث بن
الخزرج والخزرج والد الحارث بن الخزرج وليس هو الخزرج الذي يقابل الأوس وإنما سمي
على اسمه..

وبالتالي أن هناك نسبين للرجل ذكرنا في المصادر التي ترجمت له، وإذا أخذنا بما ذكره
ابن سعد؛ لأنه الأقدم وتبعه ابن عبد البر، فالبراء بن عازب من قبيلة الخزرج، وعليه
البعوي، والصفدي، وإلا فهو أوسي... أما كنيته فأبو عمارة.^١
وأبوه عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة أو جدعة بن حارثة بن

١. أسد الغابة، الباء؛ والإصابة، لابن حجر : ٦١٨؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٨ : البراء بن عازب؛
والاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر: البراء بن عازب الخزرجي؛ الطبقات، لابن سعد ٤ :
٣٦٤؛ فتح الباري، لابن حجر ٧ : ١٢٣؛ معجم الصحابة، للبعوي : ١٣٥ ؛ ونكت الهميان في نكت العميان
للصفدي ١ : ١٥٥ .

الحارث بن عمرو بن مالك، حظي بصحبة رسول الله ﷺ.
يقول ابن سعد في طبقاته: «ولم نسمع لعازب بذكر في شيء من المغازي وقد سمعنا بحديثه في الرحل الذي اشتراه منه أبو بكر...». يأتينا في رواية البراء عن الهجرة.
وأمه حبيبة بنت أبي حبيبة بن الحباب بن أنس بن زيد من بني مالك بن النجار بن الحزرج، فهي خزرجية، ويُقال: أمه أم خالد بنت ثابت بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن عبيد ابن الأبرج، وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الحزرج، بنت عم أبي سعيد الخدري^١.
أبناءؤه :

ذكرت المصادر أن لهذا الصحابي أبناءً، ففي الطبقات: فولد البراء يزيد، وعبيداً، ويونس، وعازب، ويحيى. وأم عبد الله، ولم تسم لنا أمهم.
وفي المعجم الصغير ذكر أبناء البراء بن عازب مع إخوانهم عبيد، حيث يقول: عبيد بن البراء بن عازب أخو الربيع ولوط ويزيد أبناء البراء، من الرابعة، ثقة.
فيما ذكر آخرون أن له إبراهيم والربيع ولوطاً ويزيد.
فعن البخاري في تاريخه الكبير: إبراهيم بن البراء بن عازب الأنصاري الكوفي أخو الربيع ويحيى، روى عن أبيه...
الربيع بن البراء بن عازب الأنصاري الكوفي أخو إبراهيم بن البراء ويحيى بن البراء ويزيد بن البراء، يُعدُّ من التابعين الذين رووا الحديث عن الصحابة وكانت روايته في الغالب عن أبيه، ثقة في الرواية وعداده في أهل الكوفة.
روى له الترمذي حديثاً واحداً مقروناً بغيره، وابن ماجه.

١. أسد الغابة، لابن الأثير رقم ٣٨٩؛ الإصابة رقم ٦١٨؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٨ : الاستيعاب، لابن عبد البر ١ : رقم ١٧٣؛ والطبقات، لابن سعد: البراء..

وجاء ذكره في المسند؛ حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت ربيع بن البراء يحدث عن البراء أن رسول الله ﷺ كان إذا أقبل من سفر، قال: آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون!

هذا وذكروا أن له بنتين أخريين؛ الأولى اسمها حفصة، بدليل روايتها عن عمها في رواية قيس بن الربيع عن ابن أبي ليلى عن حفصة بنت البراء بن عازب عن عمها عبيد بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي».

لكنها ذكرت في سند ما رواه ابن مندة؛ فقال: عن حفصة بنت عازب عن عمها... وقالوا عنه: إنه وهم، والصواب حفصة بنت البراء بن عازب.

والأخرى اسمها «تحيا». فيكون له ثلاث بنات.

وأما إخوته، فمنهم عبيد، الذي شهد وأخوه البراء مع عليٍّ مشاهده كلُّها؛ كما عند الذهبي حيث ذكر ما قاله أبو عمر بن عبد البر: عبيد بن عازب أخو البراء هو جد عدي بن ثابت روى في الوضوء والحيض، شهد عبيد والبراء مع عليٍّ مشاهده كلها.

وكان من العشرة الدعاة إلى الإسلام، الذين وجههم عمر إلى الكوفة مع عمار بن ياسر. وكان من أعلام يوم الرحبة سنة ٣٥ هجرية، الذين شهدوا لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام بحديث الغدير...^١

البراء وروايته عن الهجرة والمهاجرين الأوائل:

لقد أسلم هذا الصحابي وهو ما زال في نعومة أظفاره، وهو أمر لم أجد أحداً يتردد

١. انظر طبقات ابن سعد؛ والمعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري ١: ٣٥٨ رقم ٢٦٨٦؛ التاريخ الكبير للبخاري ١: ٢٧٤، باب الباء، رقم ٨٨٤؛ تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي رقم ١٨٥٥؛ مسند الإمام أحمد رقم ١٧٩٩٨؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي ٥: ١٨٨؛ الغدير في الكتاب والسنة والأدب، للعلامة الأميني.

فيه، والذي يظهر أنه أسلم وهو فتى صغير حين قدر أن يلتقيه فتية آمنوا برّبهم قبله، كمصعب بن عمير الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى المدينة يعلمهم مفاهيم وأحكام الدين، وكذا ابن أم مكتوم...؛ وإسلامه يستدعينا إلى معرفة من هاجر من المسلمين إلى المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها.

فقد ذكر ابن إسحاق: فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب، وباعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه، وآوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللاحق بإخوانهم من الأنصار، وقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا وَدَارًا تَأْمَنُونَ بِهَا».

فخرجوا أرسالاً، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربّه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة.

وفي هذا ذكرت المصادر روايات عديدة للبراء عمن هاجر من المسلمين إلى المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ منها:

عن طريق أبي إسحاق عن البراء قال: «أول من أتانا مهاجراً مصعب بن عمير، ثم قدم ابن أم مكتوم... وفي خبر آخر عن ابن إسحاق أيضاً أنه سمع البراء يقول: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلوا يقرئان الناس القرآن».

صحيح أن هجرة مصعب بن عمير إلى المدينة كانت قبل هجرة رسول الله ﷺ إلا أن هجرة ابن أم مكتوم فيها خبر آخر أنها كانت بعد معركة بدر في السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة بيسير، فعن ابن سعد في طبقاته أنه قال: أسلم ابن أم مكتوم بمكة قديماً، وكان ضريب البصر، وقدم المدينة مهاجراً بعد بدر بيسير، فنزل دار القراء، وهي دار مخزومة بن نوفل، وكان يؤذن للنبي ﷺ مع بلال.

ولكن ابن سعد ذكر بعد خبره هذا روايتين تثبتان هجرة ابن أم مكتوم قبل وصول رسول الله ﷺ المدينة فيهما قول إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال: كان أول من قدم

علينا من المهاجرين مصعب بن عمير، أخو بني عبد الدار بن قصي، فقلنا له:

ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقال: هو مكانه وأصحابه على أثري.

ثم أتانا بعده عمرو بن أمّ مكتوم الأعمى، فقالوا له: ما فعل من ورائك

رسول الله ﷺ وأصحابه؟ فقال: هم أولى على أثري.

وفي قول آخر للبراء بن عازب: أول من قدم علينا من المهاجرين: مصعب بن عمير،

أخو بني عبد الدار، ثم أتانا بعده عمرو بن أمّ مكتوم، ثم أتانا بعده عمار بن ياسر،

وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وبلال، ثم أتانا عمر بن الخطاب.

وقال أيضاً: أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار،

ثم قدم علينا ابن أمّ مكتوم الأعمى أحد بني فهر، ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين

راكباً.

فقلنا: ما فعل رسول الله؟

قال: هو على أثري.

ثم قدم رسول الله ﷺ وأبو بكر معه.

وقال البراء: ولم يقدم رسول الله ﷺ حتى قرأتُ سوراً من المفصل. (المفصل هو سور

القرآن القصيرة التي كثر الفصل بينها بالبسملة، سُمِّيَ مفصلاً لكثرة فواصله).

وقد اختلف في تحديده هل يبدأ من سورة ق أو من الحجرات، واختلف كذلك في

طواله وأوساطه وقصاره على أقوال.

وعنه أيضاً: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ، مصعب بن عمير وابن أمّ

مكتوم فجعلنا يقرئنا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في

عشرين.

ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد

والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى

في سور مثلها...

وبما أن البراء ذكر هجرة رسول الله ﷺ فهذه روايته عنها:

عن أبي إسحاق عن البراء قال: اشترى أبو بكر من عازب رجلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمله إلى رحلي!

فقال له عازب: لا؛ حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما والمشركون يطلبونكم؟!

قال: أدلجنا من مكة فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة فرميت ببصري هل أرى من ظل ناوي إليه، فإذا أنا بصخرة فأنتهيت إليها فإذا بقية ظل لها، فنظرت إلى بقية ظلها فسويته، ثم فرشت لرسول الله ﷺ فيه فروة ثم قلت: اضطجع يا رسول الله فاضطجع، ثم ذهبت أنفض ما حولي هل أرى من الطلب أحداً، فإذا أنا براح يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذي نريد يعني الظل، فسألته لمن أنت يا غلام؟ قال: لرجل من قريش فسماه لي فعرفته، فقلت: وهل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم، قال: أمرته فاعتقل شاة من غنمه ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال: هكذا فضرب إحدى يديه بالأخرى فحلب لي كربة من لبن، وقد رويت لرسول الله ﷺ معي إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فأتيت رسول الله ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت، ثم قلت: قد أتى الرحيل يا رسول الله، فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقبة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله ﷺ، فقال: لا تحزن إن الله معنا، فلما دنا فكان بينه وبيننا قيد رحمين أو ثلاثة، قلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله وبكيت، فقال: ما يبكيك؟

قلت: أما والله ما على نفسي أبكي ولكني أبكي عليك!

قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم اكفناه بما شئت». قال: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها فوثب عنها، ثم قال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك، فادع الله

أن ينجنني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ سهماً منها، فإنك ستمر على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك.

فقال له رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلك»، ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه. ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً، فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه!

فقال رسول الله ﷺ: «إني أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك، وخرج الناس حين دخلنا المدينة في الطريق وعلى البيوت والغلمان والخدم صارخون جاء محمد، جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد جاء رسول الله! فلما أصبح انطلق فنزل حيث أمر...»

عمره :

إذن فإسلامه كان في المدينة وهو في عنفوان شبابه، ووقت ولادته وعمره يمكن استفادته من أخباره عن منعه - مع عظيم رغبته - من المشاركة في مشاهد القتال الأولى: وقعة بدر الكبرى سنة ٢ هجرية، أو وقعة أحد سنة ٣ هجرية، أو وقعة الخندق سنة ٥ أو ٤، فأقوال المؤرخين قد اختلفت في أي غزوة أجازه وأذن له رسول الله ﷺ بعد أن اتفقت كلمتهم على أنه لم ينل الإذن في غزوة بدر الكبرى، أ في غزوة أحد أم في غزوة الخندق، وبالتالي تكون أول غزوة ومشاركة فعلية له غير مكتف فيها بالحضور، ويتبين بذلك عمره؟!

فقول ذهب إلى أن رسول الله ﷺ وهو يُعْبَى المؤمنين للقتال، ردّه عن معركة بدر؛

١. سير أعلام النبلاء، للذهبي ١ : ٢٦١ ؛ الطبقات ٤ : ٢٠٥ ، ٢٠٦ ؛ أسد الغابة، لابن الأثير ؛ الموسوعة الفقهية (٤٨ / ٣٣) ؛ فتح الباري ٢ : ٢٤٩ ؛ الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي ١ : ١٨٠ ؛ الطبقات، لابن سعد ٤ : ٣٦٥ - ٣٦٦ وغيرها .

استصغره، وبعد رده هذا أجازته في غزوة أحد، فيما هناك قول آخر أنه ﷺ أجازته في غزوة الخندق، رده رسول الله ﷺ عن بدر، استصغره، وأول مشاهدته أحد، وقيل الخندق. وأما في بدر الكبرى فلم يكن فيها من المقاتلين، وهو المؤكد؛ لاستصغاره وجماعة حيث لم يبلغوا خمسة عشر عاماً، فعنه: استصغرنى رسول الله ﷺ يوم بدر أنا وابن عمر فردنا فلم نشهداها.

وفي الإصابة عن أبي إسحاق سمع البراء يقول: استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر.. الطبري: ورد رسول الله ﷺ يومئذ جماعة استصغروهم - فيما زعم الواقدي - فمنهم فيما زعم عبد الله بن عمر، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وزيد بن ثابت، وأسيد بن ظهير، وعمير بن أبي وقاص، ثم أجاز عميراً بعد أن رده، فقتل يومئذ.

فمى حصل الإذن؟

ذلك مردد بين غزوتي أحد والخندق، ففي أسد الغابة: رده رسول الله ﷺ عن بدر، استصغره، وأول مشاهدته أحد، وقيل الخندق، وغزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة. وعن الطبري أيضاً: في معركة أحد سنة ٣؛ عرض رسول الله ﷺ المقاتلة؛ فأجاز من أجاز، ورد من رده، وكان فيمن رده زيد بن ثابت وابن عمر وأسيد بن ظهير، والبراء بن عازب، وعرابة بن أوس.. وقال محمد بن عمر: أجاز رسول الله ﷺ البراء بن عازب يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة ولم يجز قبلها.

وعن ابن هشام في السيرة أن هذا وقع في غزوة أحد حيث يقول: وأجاز رسول الله ﷺ يومئذ سمرة بن جندب الفزاري، ورافع بن خديج، أخا بني حارثة، وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردهما، فقبل له: يا رسول الله إن رافعاً رام، فأجازته، فلما أجاز رافعاً، قيل له: يا رسول الله، فإن سمرة يصرع رافعاً، فأجازته. ورد رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، أحد بني مالك بن النجار، والبراء بن عازب، أحد بني حارثة، وعمرو بن حزم أحد بني مالك بن النجار، وأسيد بن ظهير أحد

بني حارثة، ثم أجازهم يوم الخندق، وهم أبناء خمس عشرة سنة..
وفي قول: أجاز رسول الله ﷺ البراء بن عازب يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، ولم يُجز قبلها.

إذن فالأقوال اختلفت، ولعلَّ حضوره في وقعة أحد في السنة الثالثة أو في وقعة الخندق في السنة الخامسة للهجرة النبوية الشريفة، هو أول مشاركة له في وقائع الإسلام، وكان هو في السنة الخامسة عشرة من عمره، ويُعدُّ دليلاً على أنَّ ولادته كانت بعد البعثة النبوية المباركة بثلاث سنوات، أي قبل الهجرة بعشرة أعوام، وأنه في يثرب ولادةً ونشأةً وإسلاماً^١.

المشاهد :

لقد عرف هذا الصحابي ومن هم بسنَّه بعظيم ميلهم وشدة حماسهم لرفقة رسول الله ﷺ وهو يتوجَّه للقاء من يريدون الكيد به وبرسالته وبمن تبعه من المؤمنين، فما من غزوة إلاَّ وتجدهم يرافقون إخوانهم من المهاجرين والأنصار؛ فلعلَّهم يحظون بالمشاركة فيها حتى ينالوا أجراً جزيلاً ويسجلوا فوزاً عظيماً، إلاَّ أنَّهم يصطدمون بموقف رسول الله ﷺ فيردُّهم وينعهم عن القتال فيها؛ لصغر سنِّهم رافةً بهم ورحمةً، ولأنَّ هناك عمراً معيناً يؤهلهم لساحات الوغى والقتال لم يبلغوه بعد، ومع هذا لا يتركون تلك الميادين بالمرَّة بل يكتفون بتقديم الدعم والمساندة لإخوانهم من خلف خطوط القتال، أو يخلفهم رسول الله ﷺ في حرس المدينة..

لقد كان البراء بن عازب قوي العقيدة حريصاً عليها، مشاركاً في ميادين الجهاد، وليس هذا غريباً عليه وهو المعروف بقوَّته وجرأته وشجاعته... وإن فاتته معركة بدر في

١. انظر تاريخ الطبري ٢ : ٤٧، ٦١، سنة ٢، ٣؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة، باب الباء والراء؛ الإصابة رقم ٦١٨؛ وطبقات ابن سعد ٥ : ٢٨٦، ٣٦٨؛ السيرة النبوية، لابن هشام ٣ : ٧٠؛ غزوة أحد.

السنة الثانية للهجرة أو معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة على الاختلاف؛ حين ردّه النبي ﷺ لصغر سنّه، أي لم يبلغ الحلم، الذي يؤهله للقتال، فهو وإن لم يشترك بقتال في المواقع التي ردّها فيها، لكنه لم يترك ساحتها، فقد كان حاضراً في جميع الغزوات، وصحيح أنه لم يذكر في غزوات، إلا أن هذا لا يدل على عدم حضوره أو مشاركته أو روايته، فكثير غيره لم يذكر لهم المؤرخون أسماءهم في بعض الغزوات، فهم ليسوا ملزمين بذكر جميع أسماء المشاركين، وقد يبلغ عددهم الألف في بعض الغزوات كفتح مكة ومعركة حنين و... وبالتالي يطول الكلام كثيراً، وقد يكتفون بذكر من يكون له دور مؤثر أو بارز، وليس كلّ المقاتلين يسجلون دوراً في المعارك والإعداد لها..

ولكن الرجل كان مراقباً جيداً للوقائع والأحداث، فما من غزوة إلا ونجد له رواية فيها، بدءاً بيوم بدر الكبرى حيث ورد عنه أنه قال: «استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر فلم نشهدها».

يبدو قوله لم نشهدها أي لم يشارك فيها مقاتلاً. إلا أنه بقي مع من ردّ من الصحابة الصغار لحماية الذراري والنساء.

كما أنه لم يتأخر عن المواقع الأخرى، حتى أنه كان يقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ ثمان عشرة غزوة». وفي قول آخر: «... خمس عشرة غزوة». ولم يُنقل أنه تخلف عن غزوة أبداً بدءاً بغزوة أحد على قول؛ فالذهبي أشار إلى مشاركته في غزوة أحد، ويبدو أنه استفاد ذلك من قول البراء نفسه: عرضت أنا وابن عمر على رسول الله ﷺ يوم بدر فاستصغرنا، وأجازنا يوم أحد. فيما هناك مصادر أخرى تؤكد عدم مشاركته في أحد؛ لأن رسول الله ﷺ ردّه لصغر سنّه مع غيره من الصحابة الذين كانوا في عمره. إلا أن الأخذ بوصفه لمعركة أحد وصفاً يدل على حضوره لها ومواكبته لأحداثها وحتى التحضير لها من قبل رسول الله ﷺ كما يأتينا.

في غزوة أحد :

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فما من معركة إلاّ ويسبقها إعداد من طرفي المواجهة والقتال، وسواء أكان هذا الإعداد والتحضير في غزوة بدر أو أحد أو الأحزاب على اختلاف الأقوال، ولعلّ أرجحها كان في معركة أحد، التي ما إن عزم ﷺ على ترك المدينة لمواجهة مشركي مكة القادمين خارجها، فإنّ قريشاً لما رجعت من بدر إلى مكة، وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر؛ لأنه قتل منهم سبعون وأسر سبعون، قال أبو سفيان:

يا معشر قريش لا تدعوا نساءكم يبيكين على قتلاككم، فإنّ الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمد!

فلما قريش غزوا رسول الله ﷺ يوم أحد أذنوا لنسائهم في البكاء والنوح، وخرجوا من مكة في ثلاثة آلاف فارس وألفي راجل وأخرجوا معهم النساء...

قال ابن إسحاق: تعبأت قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مئتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل.. ورسول الله ﷺ في أثناء إعداده لهذه المعركة، كان للفتيان رغبة عظيمة للمشاركة فيها، إلاّ أنه ﷺ أذن لبعض منهم ومنع آخرين، كما ذكرنا.^١

وغداً ينظّم صفوف المؤمنين، وكانوا سبعمائة رجل، ويجعل لهم مواضع القتال؛ ليقفوا فيها ولا يفارقوها، فكان للرماة وعددهم خمسون بقيادة عبد الله بن جبير موقعهم على باب الشعب على بعد نحو ثلاثة كيلو مترات من المسجد النبوي، في أعلى جبل صغير، يسمى جبل عينين، وبعد وقعة أحد سمي جبل الرماة، وضعهم ﷺ هنا؛ ليدروا عن المسلمين شرّاً أعدائهم ويحموا ظهورهم من كمائن المشركين،...

فعن البراء بن عازب أنه قال: و رصّ النبي ﷺ الصفوف، وقسّم المهمّات، ووضع

١. انظر السيرة النبوية، لابن هشام : وقعة أحد، من أجازهم الرسول ﷺ وهم في الخامسة عشرة ؛ البخاري، التاريخ الصغير ١ : ١٤٦؛ تاريخ الطبري ٢ : ٤٧ السنة ٢، وقعة بدر الكبرى : ٦١ السنة ٣ غزوة أحد .

الرماة على الجبل، وقال لهم:

«إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمننا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»...
«إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة، فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتمهم قد هزمنوا حتى أدخلوا المدينة، فلا تبرحوا وألزموا مراكزكم»..
لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمر عليهم عبد الله، وقال ﷺ: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتمهم ظهرنا عليهم فلا تعينونا»..

وبدأ القتال بين الفريقين، وسجل المسلمون نصراً كبيراً، وألحقوا بالمشركين هزيمةً يقول عنها البراء: فلما لقينا، هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن.. فأنا والله رأيت النساء يشتددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن!

لكن النصر لم يدم طويلاً بعد أن تآقت نفوس جمع من المقاتلين للغنيمة، وخاصة أولئك الرماة؛ الذين أمرهم الرسول ﷺ بعدم مغادرة مواضعهم على الجبل، فعصوا الرسول ﷺ رغبةً في الغنائم، وتركوا مواضعهم، ونزلوا إلى حيث تتيسر لهم الغنائم، فكشف ظهر المسلمين، فاستغل المشركون هذه الثغرة الخطيرة، حتى انقلب النصر الأول إلى هزيمة خطيرة، وقد أشيع خبر في الميدان أن رسول الله ﷺ قتل، فلاذ بالفرار جمع من المسلمين، لا يلوون على شيء، واضطرب آخرون منهم، وأصيب رسول الله ﷺ بجروح شديدة وكسرت رباعيته واستشهد سبعون من الصحابة، وكادت هذه الهزيمة أن تطيح بالمشروع الإسلامي، لولا رحمة الله تعالى!

فراح البراء يذكر ما آلت إليه أمور المعركة، مبتدئاً كلامه من النقطة الخطيرة حين عصوا الرسول ﷺ وقد ضعفت عزائم لا فقط الرماة من فوق الجبل، بل حتى الذين كانوا في ساحة القتال، القريبة من رسول الله ﷺ فسأل لعابهم وهم يرون الغنائم التي تركها مشركو

قريش، الذين فرّوا من المعركة بعيداً...

إنّها الغنائم!

التي كانت السبب الرئيس في الانكسار الذي حلّ بالساحة المسلمة!
فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما
تنتظرون؟!

فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟!
قالوا: والله لنأتينّ الناس، فلنُصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم، صرفت وجوههم، فأقبلوا
منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبقَ مع النبي ﷺ غيرُ اثني عشر رجلاً،
فأصابوا منا سبعين..

وفي قول آخر له عن الرماة: فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة!
فقال عبدالله: عهد إليّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم
فأصيب سبعون قتيلاً.

وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟

فقال: لا تحببوه.

فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟

قال: لا تحببوه.

فقال : أفي القوم ابن الخطاب؟

فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا!

فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك.

قال أبو سفيان: اعل هبل.

فقال النبي ﷺ: «أجيبوه».

قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل!

قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم!

قال النبي ﷺ «أجيبوه».

قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»! قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله لم آمر بها ولم تسؤني!

غزوة الخندق :

في السنة الخامسة للهجرة، وقعت الخندق، ولعلها تعدُّ أول مشاركة فعلية للبراء بن عازب في الغزوات يومذاك في قول، حيث ورد عنه وهو يتحدث عن حفر الخندق، الذي أمرهم به رسول الله ﷺ:

كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب ولقد رأيته وارى التراب بياض بطنه يقول:

لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْنَا

وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنَّ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأَلَاءَ قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا!

وفي لفظ آخر أنه قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعتُه يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة، وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

١. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد رقم ٢٨١٧.

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قِينَا
إِنَّ الْأُلَاءَ رَغِبُوا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا
وفي لفظ آخر:

وَاللَّهُ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا ...

قال: يَدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا! أَوْ يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ: أَبِينَا أَبِينَا
وفي لفظ آخر: حتى وارى التراب شعر صدره، وقال فيه:

إِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا!

.. لما كان حيث أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق
صخرة عظيمة ... انظر روايته:

لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة
لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكيننا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: «باسم الله،
فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها
الحمر الساعة، ثمَّ ضرب الثانية فقطع الثالث الآخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس،
والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثمَّ ضرب الثالثة، وقال: باسم الله، فقطع بقية الحجر،
فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا
الساعة..»^١.

في الحديبية:

في شهر ذي القعدة من آخر السنة السادسة للهجرة النبوية، كانت هناك غزوة

١. البخاري (٦٨٠٩) ؛ ومسلم : ١٨٠٣ ؛ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٢٨٣٧ ؛ الجمع بين
الصحيحين ٢٣١٣ ؛ البداية والنهاية ٤ : لابن كثير، غزوة الخندق أو الأحزاب وغيرها .

لا قتال فيها، فرسول الله ﷺ خرج من المدينة نحو مكة المكرمة يريد العمرة ولا يتبغي حرباً ضدّ مشركي قريش، ومكة تحت أيديهم.

واصطحب رسول الله ﷺ معه ١٤٠٠ من أصحابه، وما إن سمعت قريش بمقدمهم، وأنهم على مشارف مكة المكرمة، حتى غضبت وأبت أن يدخلها الرسول ﷺ، فقرروا المسير نحوه لعلهم يستطيعون منعه من ورودها بهذه الكيفية حفظاً لكبريائها أن يחדش، أو تذلل مكانتها بين العرب، أو إبرازاً لقدرتها على التصدي له، وأنها ما زالت قادرةً قويّةً... وكان للبراء حضور في هذه الغزوة، وراح يروي ما جرى فيها بدءاً من وصولهم الحديبية وعقد الهدنة حيث يقول:

«انتهينا إلى الحديبية وهي بئر قد نزحت ونحن أربع عشرة مائة، قال: فنزع منها دلو فتمضمض النبي ﷺ منه، ثم مجّه فيه ودعا، قال: فروينا وأروينا». وعنه أيضاً :

«كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة بالحديبية، والحديبية بئر فزحناها، فلم نترك فيها شيئاً، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فجاء فجلس على شفيرها، فدعا بإناء، فمضمض ثم مجّه فيه، ثم تركناها غير بعيد، فأصدرتنا نحن وركابنا نشرب منها ما شئنا». ... ثمّ قال للناس: انزلوا؛ قيل له: يا رسول الله! ما بالوادي ماء نزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته. فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القلوب. فغرز في جوفه، فجاش بالروء حتى ضرب الناس عنه بعطن.^١ واختلفت الأقوال فيمن نزل بالسهم:

قال ابنُ إسحاق: وقد زعم بعض أهل العلم أنّ البراء بنَ عازب كان يقول: أنا الذي نزلتُ بسهم رسول الله ﷺ، فالله أعلمُ أيُّ ذلك كان؟!

١. ضرب النَّاسُ بَعْطَنَ: أناخوا حول الماء بعد السَّقْيِ .

وفي أسد الغابة: وكان البراء يقول: أنا الذي أرسل معه النبي ﷺ السهم إلى قليب الحديبية، فجاش بالري، وقيل: إن الذي نزل بالسهم ناجية بن جندب؛ وهو الأشهر.

بيعة الرضوان :

بيعة مباركة، تعددت أسماؤها، سميت ببيعة الحديبية؛ لأنها وقعت في منطقة الحديبية، وسميت ببيعة الشجرة؛ وهي شجرة من شجر السَّمر (بفتح السين المهملة وضم الميم) وهو شجر الطلح، كانت في ذلك المكان، حيث كان النبي ﷺ جالساً في ظلها، وسميت ببيعة الرضوان، وجاء كلا هذين الاسمين (بيعة الشجرة وبيعة الرضوان) من الآية المباركة ١٨ سورة الفتح:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^١

الشيخ الطبرسي: قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ خرج يريد مكة فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته وزجرها فلم تنزجر وبركت الناقة، فقال أصحابه: خلأت الناقة، فقال ﷺ: «ما هذا لها عادة ولكن حبسها حابس الفيل»، ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة ليأذنوا له بأن يدخل مكة ويحل من عمرته وينحر هديه، فقال: يا رسول الله مالي بها حميم وإني أخاف قريشاً لشدة عداوتي إياها، ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان، فقال: «صدقت».

فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا الناس إلى البيعة، فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة، فاستند إليها وباع الناس على أن

١. سورة الفتح : ١٨ .

يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا، قال عبد الله بن مغفل: كنت قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم ويدي غصن من السمرة أذب عنه وهو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت وإنما يبايعهم على أن لا يفرّوا».

وقد روي عن البراء بن عازب أنه قال:

تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأثاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا! وكان جابر بن عبد الله رضوان الله عليه يقول عن هذه البيعة:

إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكنه يبايعنا على أن لا نفرّ، فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلاّ الجد بن قيس أخو بني سلمة، كان جابر بن عبد الله يقول: لكأنني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقتة، قد اختبأ إليها، يستتر بها من الناس...

ولهذا لاحقهم نداء العباس بن عبد المطلب لما فرّوا في معركة حنين، بعد أن أمره رسول الله ﷺ.. وسياطينا. يا أصحاب الشجرة، أو السمرة، يعني أهل بيعة الرضوان!...

وعن بنود المودعة :

وبعد مفاوضات جرت بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو عن مشركي قريش، دوّنت بنود صلح الحديبية، وهي قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم، وقيل: هي بئر سمي المكان بها، وقيل: شجرة حذاء صغرت وسمي المكان بها.. قال البراء بن عازب: كتب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الصلح بين النبي ﷺ وبين

١. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية رقم ٣٩١٩.

المشركين يوم الحديبية، فكتب هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله ﷺ.
فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك.
فقال النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه: امحه.
فقال: ما أنا بالذي أمحاه. فمحاه النبي ﷺ بيده. قال: وكان فيما اشترطوا أن يدخلوا
مكة فيقيموا بها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلاّ جلابان السلاح.^١
وعنه أنه قال: وادع رسول الله ﷺ المشركين يوم الحديبية على ثلاث:
من أتاهم من عند النبي ﷺ لن يردوه.
ومن أتى إلينا منهم ردوه إليهم.
وعلى أن يجيء النبي ﷺ من العام المقبل وأصحابه فيدخلون مكة معتمرين، فلا
يقيمون إلاّ ثلاثاً ولا يدخلون إلاّ جلب السلاح السيف والقوس ونحوه.
في خير :

في شهر جمادى الأولى من السنة السابعة للهجرة، وبعد أن نكث اليهود العهد مع
رسول الله ﷺ فغزاهم وهم في خير يلوذون بمحصونهم التي تُعدُّ أقوى حصون لهم، وبعد
حصار فتحت، ولم أجد للبراء شيئاً، إلاّ ما يدل على حضوره فيها وهو قوله وبألفاظ
متعددة، كان منها:
«أصاب الناس يوم خير جوع شديد، فأصابوا حمراً أهلية فطبخوا منها، فأمر
رسول الله ﷺ بالقُدُور فأكفئت».
«أَصَبْنَا يَوْمَ خَيْرٍ حُمْرًا ، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ اكْفُتُوا الْقُدُورَ».^٢

١. أي القراب وما فيه، غمد السيف .

٢. كتاب المصنف؛ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ٥ كتاب الأطعمة، في الحمر الأهلية ؛ صحيح مسلم،
كتاب الصيد والذبائح رقم : ٣٥٩٥ .

عمرة القضاء :

أدى رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين هذه العمرة في شهر ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة النبوية، فعن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ، فقالوا: لا نقر بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، ثم قال لعليّ عليه السلام: امح رسول الله، قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله الكتاب، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة سلاح إلا في القرب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع أحداً من أصحابه أراد أن يقيم بها، فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً عليه السلام فقالوا: قل لصاحبك أخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ.

وزاد براء: وقال عليّ عليه السلام: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة. وكان جعفر بن أبي طالب، متزوجاً من أسماء بنت عميس الخثعمية، وأختها سلمى بنت عميس الخثعمية عند سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب. وكان اسم بنت حمزة عمارة أو أمامة، وقد تركها وأمّها في مكة حين هاجر إلى المدينة، كما فعل غيره ممن هاجر مع أزواجهم وأولادهم، خلفوهم في مكة في دورهم وأموالهم....^١

فتح مكة :

فيما تيسر لي؛ لم أجد للبراء في فتح مكة، إلا هذه الرواية التي ذكرتها أعلاه وهي:

١. السيرة، لابن كثير ٣: ٣١٤-٣١٥؛ والسيرة، لابن هشام ٣: ٣٢٤؛ أسد الغابة/٣٨٩؛ البخاري، المغازي؛ والشرح الجامع الصحيح، كتاب المغازي؛ مسلم ١٧٨٣؛ مسند أحمد بن حنبل ٤: حديث البراء بن عازب؛ وصحيح البخاري ٣: كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح: ١٥٤؛ وانظر في هذه المجلة (جعفر الطيّار: العدد ٨؛ أسماء بنت عميس: العدد ٢٥).

تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد البيعة الرضوان يوم الحديبية...».

وصارت هذه الرواية مع رواية أخرى عن جابر بن عبد الله: ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية، من الأدلة على أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية وكان فتحاً بغير قتال...

وفي حنين :

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^١.

في بداية وقعة أحد، سجل المسلمون انتصاراً كبيراً، لكنه نصر لم يدم، فما أسرع ما حلّت بهم الهزيمة بسبب مخالفة خطة رسول الله ﷺ ورغبتهم في الغنائم وتنافسهم للحصول على المزيد منها قبل غيرهم، ففرّ كثير منهم من ساحة القتال حتى سولت نفوس بعضهم الالتحاق بقريش وطلب الأمان من أبي سفيان..

وفي وقعة حنين، حلّت بالمسلمين الهزيمة أولاً بسبب الإعجاب بقوتهم وكثرتهم، وفرّ الكثير منهم، ثم من الله عليهم بالنصر الكبير...

يقول ابن عاشور: ... و «حنين»، اسم واد بين مكة والطائف قرب ذي المجاز، كانت فيه وقعة عظيمة عقب فتح مكة بين المسلمين مع النبي ﷺ وكانوا اثني عشر ألفاً، وبين هوازن وثقيف، فهما إذ نهضوا لقتال النبي ﷺ حمية وغضباً لهزيمة قريش ولفتح مكة، وكان على هوازن مالك بن عوف، أخو بني نصر، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفي، وكانوا في عدد كثير وساروا إلى مكة فخرج إليهم النبي ﷺ حتّى اجتمعوا بحنين فقال المسلمون:

١. سورة التوبة : ٢٥ - ٢٦ .

لن تغلب اليوم من قلة، ووثقوا بالنصر لقوتهم، فحصلت لهم هزيمة عند أول اللقاء كانت عتاباً إلهياً على نسيانهم التوكل على الله في النصر، واعتمادهم على كثرتهم، ولذلك روي أن رسول الله ﷺ لما سمع قول بعض المسلمين «لن تغلب من قلة» ساءه ذلك، فإتهم لما هبطوا وادي حنين كان الأعداء قد كمنوا لهم في شعبه وأحنائه، فما راع المسلمين وهم منحدرين في الوادي إلا كئاب العدو وقد شدت عليهم، وقيل: إن المسلمين حملوا على العدو فانهزم العدو فلحقوهم يغمون منهم، وكانت هوازن قوماً رماة فاكثبوا المسلمين بالسهم فأدبر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد، وتفرقوا في الوادي، وتناول عليهم المشركون ورسول الله ﷺ ثابت في الجهة اليمنى من الوادي ومعه عشرة من المهاجرين والأنصار، فأمر رسول الله ﷺ العباس عمه أن يصرخ في الناس:

يا أصحاب الشجرة - أو السمرة - يعني أهل بيعة الرضوان - يا معشر المهاجرين -
يا أصحاب سورة البقرة - يعني الأنصار - هلموا إلي.

فاجتمع إليه مائة، وقاتلوا هوازن مع من بقي مع النبي ﷺ واجتلد الناس، وتراجع بقية المنهزمين واشتد القتال، وقال رسول الله ﷺ «الآن حمي الوطيس»، فكانت الدائرة على المشركين وهزموا شر هزيمة وغنمت أموالهم وسببت نساؤهم...

وكان البراء بن عازب حاضراً، ولما قال له رجل: يا أبا عمار، أفررتم يوم حنين؟ قال: لا؛ والله ما ولي رسول الله ﷺ، ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفأؤهم حسراً ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح، فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نصر فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل فاستنصر، وقال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم وصفهم وعن قوله: لا؛ والله ما ولي رسول الله ﷺ، ولكنه خرج شبان أصحابه، وأخفأؤهم حسراً؛ ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح.. وله جواب آخر: لا؛ والله ما فر رسول الله ﷺ، ولكن جماعة من الصحابة جرى لهم كذا وكذا.

فإنه يُعدُّ من بديع الأدب؛ لأنَّ تقدير الكلام فررتم كلکم، فيقتضي أنَّ النبي ﷺ وافقهم في ذلك.

وأما قوله: (شبان أصحابه) فهو بالشين وآخره نون جمع شاب، وقوله: (أخفأؤهم) جمع خفيف، وهم المسارعون المستعجلون..

ووقع هذا الحرف في رواية إبراهيم الحربي والهروي وغيرهم (جفاء) بجيم مضمومة وبالمدة وفسره بسرعانهم، قالوا: تشبيهاً بجفاء السيل، وهو غثاؤه، قال القاضي: إن صحت هذه الرواية فمعناها ما سبق من خروج من خرج معهم من أهل مكة ومن انضاف إليهم ممن لم يستعدوا، وإنما خرج للغنيمة من النساء والصبيان ومن في قلبه مرض فشبهه بغشاء السيل. وأما قوله: (حسراً) هو بضم الحاء وتشديد السين المفتوحة أي بغير دروع، وقد فسره بقوله: (ليس عليهم سلاح)، الحاسر: من لا درع عليه.

وفي رواية أخرى:

عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء، وجاءه رجل، فقال: يا أبا عمارة أتوليت يوم حنين؟

فقال: أما أنا فأشهد على النبي ﷺ أنه لم يول، ولكن عجل سرعان القوم فرشقتهم هوازن، وأبو سفيان بن الحارث أخذ برأس بغلته البيضاء يقول: «أنا النبيُّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

وفي قول آخر له عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء وسأله رجل من قيس فقال: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟!

فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن ناساً رماةً، وإنما لما حملنا عليهم انكشفوا، فاكبنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، ولقد رايت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان بن الحرث أخذ بلجامها وهو يقول: أنا النبيُّ لا كذب أنا ابن

عبد المطلب.^١

أقول: بمعنى أن البراء كان موضع أسئلة عديدة تأتيه من هنا وهناك، وبعضها تصدر من مغرضين من أن الفرار شمل رسول الله ﷺ، لكن البراء كان ملتفاً واعياً لما يقصده السائل، فكان رضوان الله عليه في إجاباته واضحاً يردُّ بها ما يثيره هؤلاء، وينفي الفرار عن النبي ﷺ فيما يثبت له غيره.

إسلام قبيلة همدان :

بعد فشل السابقين ممن أرسلوا لإقناع أهل اليمن بالإسلام، وبالذات قبيلة همدان، التي كان لإسلامها دور مهم في تأمين الحدود الجنوبية مع اليمن، وفي إسلام قبائل اليمن الأخرى، وفي مواقفها الجليلة مع أمير المؤمنين علي عليه السلام كما يأتينا.

وجه رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في سرية إلى اليمن في رمضان...

فعن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكانت فيمن سار معه؛ فأقام عليه ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء.

فبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمره أن يقفل خالداً ومن معه، فإن أراد أحد ممن كان مع خالد بن الوليد أن يعقب معه تركه.

قال البراء: فكانت فيمن عقب معه؛ فلما انتهينا إلى أوائل اليمن، بلغ القوم الخبر، فجمعوا له، فصلّى بنا على الفجر، فلما فرغ صفّاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، وكتب

١. انظر تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ سورة التوبة ٢٥ — ٢٦؛ صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، المسألة: ١٦٧٦؛ وانظر الحاشية رقم: ١؛ وصحيح البخاري: كتاب المغازي، المسألة ٤٠٦١ والحاشية؛ ومسند الإمام أحمد ١٧٩٩٧.

بذلك إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ كتابه خراً ساجداً، ثم جلس، فقال: السلام على همدان، السلام على همدان! ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام،... وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: نعم الحمي همدان، ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجهد، وفيهم أبدال وفيهم أوتاد الإسلام.^١

وقد سجلت هذه القبيلة مواقف كبيرة في معركة صفين إلى جانب الإمام عليٍّ عليه السلام، وقد ذكرت قصيدة مدح نُسبت للإمام عليٍّ عليه السلام بحق همدان بعد أن أسلموا على يديه المباركتين، أو في وقعة صفين، والثاني أرجح، وما زال اليمنيون يتغنّون بها، وقد ذكرت بصيغ متعددة، منها البيت المشهور:

ولو كنتُ بواباً على باب جَنَّةٍ لقلتُ لهمدانَ ادخلوا بسلام

وأكتفي بما قاله علامة بغداد الآكوسي في تفسيره:... ومن شعر عليٍّ عليه السلام، وكان مجوداً حتى قيل: إنه أشعر الخلفاء يذكر همدان ونصرهم إياه في صفين:

ولما رأيت الخيل تزحم بالقنا

نواصيها حمر النحور دوامي

وأعرض نقع في السماء كأنه

عجاجة دجن ملبس بقتام

ونادى ابن هند في الكلاع وحمير

وكندة في لحم وحي جذام

تيممت همدان الذين همُّهم

إذا ناب دهر جنتي وسهامي

١. تاريخ الطبري ٢: ١٩٧، سنة ١٠؛ مختصر تاريخ دمشق ٢: ٤٨٢ ترجمة حمزة بن مالك بن سعد الهمداني .

فجاوبني من خيل همدان عصبه
فوارس من همدان غير لثام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها
وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بواباً على باب جنة
لقلت لهمدان ادخلوا بسلام.^١

كان البراء عالماً محدثاً :

من ضمن ما عرف به هذا الصحابي في سيرته شاباً وكهلاً أنه لم يكتفِ بفروسيته وشجاعته وجراته في ميادين القتال، بل كان عالماً محدثاً يشهد له الجميع بالدقة والوثاقة والحرص، بفضل متابعته الأولى وملازمته لمنابع المعرفة المتمثلة برسول الله ﷺ فقد كان ملازماً لرسول الله ﷺ ومتابعاً لسيرته وسنته قولاً وفعلًا وتقريباً، ويبدو أنه كان يتألم إذا ما حيلت بينه وبين الرسول ﷺ مشاغل الحياة أو وجود آخرين يكتظون في مجلس رسول الله ﷺ، فيسعى ليأخذ ما فاتته من علم ورواية ممن سمع ذلك من الرسول ﷺ وبالتالي فهو يبذل جهده أن لا يفوته شيء من معرفة؛ فعن ابن إسحاق عن البراء أنه قال: ما كلُّ ما نحدثكموه سمعناه من رسول الله ﷺ ولكن حدثنا أصحابنا، وكانت تشغلنا راعية الإبل.^٢

حتى وصف بأنه مكثراً من أحاديث رسول الله ﷺ ولعلَّ عددها قارب الثلاثمائة أو يزيد، منها (٢٤٠) فقط في مسند الإمام أحمد، فكانت ثروة معرفية في التفسير وأسباب

١. انظر تفسير روح المعاني، سورة الشعراء، الآية : ٢٢٧ ؛ وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هجرية)؛ وتاريخ دمشق، لابن عساكر ٤٥ : ٤٨٦ .
٢. مسند أحمد ١٨٠١٨ .

النزول وفي الفقه والأخلاق والمواظب والمناقب والغزوات وحتى في صفات رسول الله ﷺ الخلقية والخلقية وفي سيرته المباركة وفي أهل بيته عليهم السلام...

وقد احتلت أسباب النزول مكانتها في روايات، ففي آيات تحويل القبلة:
﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^١.

قال: صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء، وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة، فصعد جبريل، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله:
﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ...﴾ الآية.

فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل، كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس؟
فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^٢.
وعنه أيضاً أنه قال: صلى رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم وجه إلى الكعبة، وكان يجب ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ...﴾.

قال: فمرَّ رجل صلى مع النبي ﷺ العصر على قوم من الأنصار وهم ركوع في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه قد وجه إلى الكعبة. قال: فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر.
وقال: إن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة، نزل على أخواله من الأنصار، وأنه

١. سورة البقرة: ١٤٤.

٢. سورة البقرة: ١٤٣.

صلى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت، وأن أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل الكعبة، فداروا كما هم قبل البيت، ثم أنكروا ذلك، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجالاً وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^١.

وأخرج ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ...﴾ فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ...﴾ وقال السفهاء من الناس وهم من أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟

فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ...﴾^٢.

أو: ... وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٣. وفي نزول الآية: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ

١. سورة البقرة: ١٤٣.

٢. سورة البقرة: ١٤٢.

٣. سورة البقرة: ١٤٢.

أَلْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...»^١

عن أبي إسحاق عن البراء قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وأن فلاناً الأنصاري كان صائماً، فلما حضره الإفطار أتى امرأته، فقال: هل عندك من طعام؟ قالت: لا، ولكن انطلق فأطلب لك، فغلبته عينه، وجاءت امرأته فلما رآته قالت: خيبة لك، فأصبح فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية... وفي هذه الآية:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^٢

ذكروا عن البراء بن عازب عدة روايات متونها واحدة تقريباً، منها أنه قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ قال النبي ﷺ: «ادع فلاناً، وفي لفظ: ادع زيدا، فجاء ومعه الدواة واللوح والكتف.

فقال: اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾.

وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله إني ضريب؟!

فنزلت مكانها: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾.

وفي رواية: ... فشكا إليه ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾.

١. سورة البقرة: ١٨٧.

٢. سورة النساء: ٩٤.

وفي أخرى: وعمر بن أم مكتوم خلف ظهره، فقال: هل لي من رخصة يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿... غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ...﴾.

وفي الآية :

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.^١

عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن القى بيده إلى التهلكة؟! قال: لا؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ بعث رسول الله ﷺ، فقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ...﴾.^٢ إنما ذاك في النفقة.

وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مؤمنوا أمتي شهداء، ثم تلا النبي ﷺ:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.^٣

في وصف الرسول ﷺ :

عن أبي إسحاق قال: قيل للبراء أكان وجه رسول الله ﷺ حديداً هكذا مثل السيف؟! قال: لا؛ بل كان مثل القمر!

وعنه أيضاً قال: ما رأيت من ذي لمة أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ، له شعر يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير!

وعنه أنه قال: إنَّ النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه، وضع يده اليمنى تحت خده،

١. سورة البقرة : ١٩٥ .

٢. سورة النساء : ٨٤ .

٣. سورة الحديد : ١٩ ؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل رقم ١٨٠٠٦ ، ١٨٠٢٧ ؛ ١٧٩٩٩ ، ١٨٠٧٤ ، ١٨٠٤٤ ، ١٨١٢٨ ؛ تفسير الطبري: الآية ؛ أسباب النزول، للواحدي: الآية ؛ وتفسير الدر المنثور، للسيوطي ؛ وغيرها .

وقال: «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك أو تجمع عبادك»!
وعنه: كان رسول الله ﷺ إذا افتتح الصلاة رفع يديه حتى تكون إبهاماه حذاء أذنيه!
ومن وصاياه ﷺ:

عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أويت إلى فراشك، فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبةً و رهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجأ إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك؛ مت وأنت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً»!
من رواياته في مناقب أهل البيت عليهم السلام:

ذكرت مصادر الحديث للفريقين روايات كثيرة للبراء بن عازب في فضائل أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم يرويها عن رسول الله ﷺ كان منها:
جاء عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام إلى باب النبي ﷺ، فقام بردائه وطرحه عليهم، ثم قال: «اللهم هؤلاء عترتي».
قال رسول الله ﷺ لعليٍّ عليه السلام: «أنت مَتي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

وعنه أنه قال: «كان لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة في المسجد، وإن رسول الله ﷺ قال: سدّوا هذه الأبواب غير باب عليٍّ عليه السلام».
قال: فتكلّم في ذلك أناس.

قال: فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإنّي أمرتُ بسدّ هذه الأبواب غير باب عليٍّ عليه السلام، فقال فيه قائلكم، وإني والله ما سدّدت شيئاً ولا فتحته، ولكنّي أمرتُ بشيء فاتبعته»!

وعنه: أن النبي ﷺ أبصر حسناً وحسيناً، فقال: «اللهم إني أحبهما فأحبهما».
وعنه أنه ﷺ قال: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»!

كان رسول الله ﷺ يصلّي، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام أو أحدهما فركب على ظهره، فكان إذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه، أو أمسكهما، قال: «نعم المطيّة مطيّتكما»! قال رسول الله ﷺ للحسن أو الحسين عليهما السلام: «هذا مني وأنا منه، وهو يحرم عليه ما حرم عليّ، من أحبني فليحبّ هذا يعني الحسن».

في ولائه للعترة الطاهرة :

عرف الكثير من الأنصار بولائهم لأهل بيت النبي ﷺ وكان هذا الصحابي واحداً منهم، من تلك الطليعة الرائدة، التي بادرت لبيعة الإمام عليّ عليه السلام بالخلافة سنة ٣٥ هـ، وقد ذكره الشيخ المفيد في كتابه الجمل رقم ١٠ في بيعة المهاجرين، وهو ليس منهم بل من الأنصار. وقد وصف الشيخ المفيد هؤلاء المبايعين مهاجرين كانوا أم أنصاراً بأنهم كانوا (الراضين بإمامته الباذلين لأنفسهم في طاعته...)، ثم يقول:

(... ومن بايع أمير المؤمنين بغير ارتياب ودان بإمامته على الإجماع والاتفاق، واعتقد فرض طاعته والتحریم لخلافه ومعصيته، والمحاضرون معه في حرب البصرة ألف وخمسمائة رجل من وجوه المهاجرين الأولين والسابقين إلى الإسلام والأنصار، البدرين العقبين وأهل بيعة الرضوان؛ من جملتهم سبعمائة من المهاجرين وثمانمائة من الأنصار سوى أبنائهم وحلفائهم ومواليهم وغيرهم من بطون العرب والتابعين بإحسان على ما جاء به الثبوت من الأخبار)، ثم راح يذكر بيعة المهاجرين فبيعة الأنصار وبيعة بني هاشم وبيعة سائر الشيعة.^١ والتي لم تخلو منهم ميادين القتال التي فرضت على الإمام عليّ عليه السلام من قبل طوائف ثلاث عرفت بالناكثين والقاسطين والمارقين؛ فراح سلام الله عليه يتحمل مسؤولية قتالهم على التأويل؛ تأويل المبطلين وتحريف الجاهلين، حين ظهر من يتأول القرآن الكريم على غير تأويله؛ وقد تحمل رسول الله ﷺ من قبل مسؤولية القتال على التنزيل، فعن

١. انظر كتاب الجمل : ١٠١ - ١١٠ .

البراء: «يا عليُّ تقاتلهم على التأويل كما قاتلتهم على التنزيل».

«إنَّ منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن، كما قاتلت على تنزيله، فاستشرفنا وفينا أبوبكر و عمر، فقال: لا، ولكنه خاصف النعل. يعني علياً عليه السلام».

عن ربعي بن خراش قال: سمعت علياً عليه السلام يقول وهو بالمدائن: «جاء سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: إنه قد خرج إليك ناس من أرقائنا ليس بهم الدين تعبداً، فارددهم علينا. فقال له: أبوبكر و عمر: صدق يا رسول الله!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لن تنتهوا يا معشر قريش! حتى يبعث الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان يضرب أعناقكم، و أنتم محفلون عنه إجمال النعم.

فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا.

قال له عمر: أنا هو يا رسول الله؟

قال: لا، ولكنه خاصف النعل. قال: و في كف علي عليه السلام نعل يخصفها

لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وفعلاً كان البراء وابنه وأخوه عبيد بن عازب ممن شهدوا الجمل وصفين والنهروان

كما يأتينا.^١

البراء وخبر السقيفة :

لقد كان هذا الصحابي صريحاً بإعلان حبه لبني هاشم، فعن أبي سعيد الخدري قال:

سمعت البراء بن عازب يقول:

لم أزل لبني هاشم محباً، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله تخوّفتُ أن تتمالأ قريش على

١. تاريخ بغداد للخطيب ١ : ١٣٣ - ١٣٤، و ٨ : ٤٣٣ ؛ المستدرک، للحاكم ٢ : ١٣٨ ؛ السنن الكبرى، للنسائي ٥ ؛ كنز العمال ٦ : ١٥٥ ؛ تاريخ دمشق، لابن عساکر ١٢ : ١٤٩ .

إخراج هذا الأمر عن بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الواله العجول!^١
أقول: يبدو من هذا المتن أن هناك في ذهن هذا الصحابي ولعله في ذهن غيره ارتكازاً أن الأمر أي خلافة رسول الله ﷺ هي في بني هاشم، لولا اجتماع قريش على صرفها عنهم، وإلا لماذا (فأخذني ما يأخذ الواله العجول!) يصف نفسه بأنه الذاهب عقله، وبالتالي تفقد ولدها!

وفعلًا ما إن أعلنت بيعة أبي بكر في السقيفة، وعلم بها البراء بن عازب حتى بادر مسرعاً إلى حيث بيت الإمام علي عليه السلام، وكان فيه العباس بن عبد المطلب وجمع من بني هاشم والصحابة، ف ضرب الباب على بني هاشم، وقال: يا معشر بني هاشم، بويع أبوبكر! فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه، ونحن أولى بحمد! فقال العباس: فعلوها، ورب الكعبة...

ونترك للبراء يحدثنا فهو ممن قص أحداث السقيفة، التي وقعت ورسول الله ﷺ بعد لم يُدفن، وليس هذا فقط بل تُظهر عدم رضاه بما حصل، وقد ذكرت روايته وتعدُّ الأقدم في كتاب سليم بن قيس الهلالي (ت ٧٦ هجرية) على ما في هذا الكتاب من كلام بين علماء الإمامية ومحققهم، فهو كتاب مثير للجدل بينهم سنداً ومتناً وحجّةً، وبعيداً عما بينهم، فإن من الغرابة بدرجة أن سليم بن قيس؛ وبين قوسين (لم يُذكر في كتاب الجمل للشيخ المفيد لا في قائمة المبايعين لأمير المؤمنين عليه السلام، ولا مع المشاركين في قتال الناكثين، ولم يذكره نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هجرية) في كتابه وقعة صفين)، والأكثر غرابة أنه لم يُذكر له أي دور في أحداث كربلاء مع الإمام الحسين عليه السلام سنة ٦١ هجرية؛ لا مشاركاً ولا محدثاً ولا كاتباً ولا ذاكراً شيئاً عن أخبارها، ولا متابعاً لحركة الإمام ومسيرته من المدينة إلى مكة فكربلاء، ولو عن بُعدٍ، مع أنه لا فقط من أصحاب الإمام أمير المؤمنين

١. كتاب شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٢ : ٥١، نقله عن أبي بكر الجوهري (ت ٣٢٣ هجرية).

والأئمة الحسن والحسين وعلي بن الحسين والباقر عليهم السلام، بل يوصف بأنه من الأولياء الخالص لهم كما يُذكر في ترجمته!

لا أدري أين هو من كربلاء الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره؛ مع أنه عاش بعدها أكثر من خمس عشرة سنة، أي إلى سنة ٧٦ هجرية، وهو ينتقل بين نجد والمدينة ومكة والكوفة والبصرة حتى عيّن عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٣ هجرية، وبعد أن فرغ من قتال عبدالله بن الزبير، وأعاد الحجاز إلى خلافة ابن مروان، راح سنة ٧٥ هجرية يطارد أتباع الإمام علي عليه السلام ومنهم سليم بن قيس؟! فإن كان له عذر في عدم القتال وفي نصرته سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فلا أجد له ذلك في ملاحقة أخبار ما قبل كربلاء، وما جرى فيها، وما بعدها من حركات وثورات كثورة التوايين وثورة المختار وغيرهما، وقد وصف بقدرته على نقل الأخبار وتدوينها، وأنه رجل السيف والقلم، حتى دون ما سكت عنه غيره كما يذكر ذلك بعض من ترجم له أو حقق كتابه..

وكم كنت وما زلت أتمنى لو أن كتابه الموصوف بأنه الأقدم قد تضمن ما أوقعه الطغاة والظالمون على أهل بيت العصمة والطهارة وأنصارهم من مذبحه أقل ما توصف أنّها مأساة مروعة، وتعدّ الأكثر دموية وبشاعة وانتهاكاً لحرمة رسول الله ﷺ وبيته الطاهر، اهتزت لها الضمائر، وانبرت لها العقول والأفهام قراءة لمقدماتها، واستنطاقاً لمجرياتنا، ولمعرفة ما جرى، ولما تركته من آثار وحركات انبثقت بسببها... حتى كتب عنها الآخرون ممن ليس لهم ولاء لأهل البيت كولاء سليم! خاصة وقد عرف الرجل بأنه من أولياء الإمامين زين العابدين والباقر عليهما السلام، وكان يلتقي بهما، وهما ممن حضر واقعة الطف وشهد فصولها ومأساتها، ألم يسمع منهما، ولا من أحدهما ولا من غيرهما شيئاً؟! ألم يبادر هو بسؤال عما وقع؟! وقد عرف بأنه متابع للأخبار، حريص على تدوينها، سامع لها؛ فالسماع المباشر حرفته، ويعدّ أعلى مراتب تحمل الحديث؟! وهل هناك أعظم من يوم الحسين وأهله وأنصاره؟! وهل هناك حدث أجلّ،

وخبر أهم من وقعة الطف خاصة لمن يملك هذا الولاء والقدرة والحرص والدقة في ملاحقة الأحداث والأخبار؟! إنه لأمر عجيب أن يخلو كتابه ، الذي يعدُّ أقدم وثيقة لتلك الفترة، بما وقع في اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هجرية ..!

لا أدري ؛ وإن هي إلا أمنية لا تخلو من ألم وحسرةٍ ، لا أظنُّ أنني سبقتُ غيري إليها، فلعلَّها أمنية آخريين!

ورحم الله المتنبّي حين قال:

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ

تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السَّقَنُ!

فعن سُلَيْم، قال: سمعت البراء بن عازب يقول: كنت أحبُّ بني هاشم حبًّا شديدًا في

حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد وفاته...،

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى عليًّا عليه السلام أن لا يلي غسله غيره، وأنه لا ينبغي لأحد أن يرى عورته غيره، وأنه ليس أحد يرى عورة رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ذهب بصره. فقال عليُّ عليه السلام: يا رسول الله! فمن يعينني على غسلك؟ قال: جبرائيل في جنود من الملائكة. فكان عليُّ عليه السلام يغسله، والفضل بن العباس مربوط العينين يصب الماء، والملائكة يقلبونه له كيف شاء. ولقد أراد عليُّ عليه السلام أن ينزع قميص رسول الله صلى الله عليه وآله، فصاح به صائح: (لا تنزع قميص نبيِّك، يا عليُّ).

فأدخل يده تحت القميص فغسله ثم حنطه وكفنه، ثم نزع القميص عند تكفينه وتحنيطه... إلى آخر الرواية، التي نكتفي بذكرها عن أبي سعيد الخدري.. مع الاختلاف البسيط في متنها، من كتاب السقيفة وفدك للجوهري (ت ٣٢٣ هجرية).

ففي كتاب السقيفة وفدك: وحدثني المغيرة بن محمد المهلب من حفظه، وعمر بن شبة من كتابه بإسناد رفعه إلى أبي سعيد الخدري، قال: سمعت البراء بن عازب يقول: لم أزل لبني هاشم محبًّا، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله خفت أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الواهية العجول، مع ما في نفسي من الحزن لوفاة

رسول الله ﷺ، فكنت أتردد إلى بني هاشم وهم عند النبي صلى الله عليه وآله في الحجرة، وأتفقده وجوه قريش، فإني كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر، وإذا قائل يقول: القوم في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائل آخر يقول: قد بويح أبا بكر، فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة وهم محتجزون بالأزر الصنعانية لا يرون بأحد إلاّ خطوه، وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر بياعه، شاء ذلك أو أبي، فأنكرت عقلي وخرجت اشتد حتى انتهيت إلى بني هاشم والباب مغلق، فضربت عليهم الباب ضرباً عنيفاً وقلت: قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قحافة، فقال العباس: تربت أيديكم إلى آخر الدهر، أما أني قد أمرتكم فعصيتوني. فمكثت أكابد ما في نفسي، ورأيت في الليل المقداد، وسلمان وأبذر وعبادة بن الصامت، وأبا الهيثم بن التيهان، وحذيفة وعماراً، وهم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين.

فلما كان بليل خرجت إلى المسجد (وفي قول له: لمّا قبض رسول الله ﷺ تخوّفتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر من بني هاشم... فمكثتُ أكابد ما في نفسي فلما كان بليل...) فلما صرت فيه تذكرت أني كنت أسمع مهمة رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرآن، فامتنعت من مكاني فخرجت إلى الفضاء، فضاء بني قضاة أو بياضة، وأجد نفراً يتناجون فلما دنوت منهم سكتوا، فانصرفت عنهم، فعرفوني وما أعرفهم فدعوني إليهم فأتيتهم فأجد المقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وأبذر، وحذيفة، وأبا الهيثم بن التيهان، وإذا حذيفة يقول لهم: والله ليكونن ما أخبرتكم به، والله ما كذبت ولا كذبت، وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين.

ثم قال: ائتوا أبي بن كعب، فقد علم كما علمت، قال: فانطلقنا إلى أبي، فضربنا عليه بابه حتى صار خلف الباب، فقال: من أنتم؟ فكلّمه المقداد، فقال: ما حاجتكم؟ فقال له: ما أنا بفاتح بابي، وقد عرفت ما جئتم له كأنكم أردتم النظر في هذا العقد، فقلنا: نعم، فقال: أفياكم حذيفة؟ فقلنا: نعم، قال: فالقول ما قال: وبالله ما أفتح عني بابي حتى تجري على ما هي جارية، ولما يكون بعدها شرٌّ منها وإلى الله المشتكى.

وبلغ الخبر أبا بكر وعمر، فأرسلا إلى أبي عبيدة والمغيرة بن شعبة، فسألاهما عن الرأي، فقال المغيرة: إن تلقوا العباس فتجعلوا له هذا الأمر نصيباً فيكون له ولعقبه، فتقطعوا به من ناحية عليّ، ويكون لكم حجة عند الناس على عليّ، إذا مال معكم العباس.

فانطلق أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، والمغيرة، حتى دخلوا على العباس، وذلك في الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وقال: إن الله ابتعث لكم محمداً صلى الله عليه وآله نبياً، وللمؤمنين ولياً، فمن الله عليهم بكونه بين ظهرانيهم، حتى اختار له ما عنده، فخلّى على الناس أمورهم ليختاروا لأنفسهم، متفقين غير مختلفين فاختاروني عليهم والياً، ولأموهم راعياً، فتوليت ذلك، وما أخاف بعون الله وتسديده وهنا ولا حيرة ولا جبناً، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب، وما أنفك يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين، يتخذ لكم لجأ فتكونوا حصنه المنيع، وخطبه البديع، فإذا دخلتم فيما دخل فيه الناس، أو صرفتموهم عما مالوا إليه، فقد جئناكم، ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً، ولن بعدك من عقبك إذ كنت عم رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومكان أهللك، ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم وعلى رسلكم بني هاشم، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منا ومنكم.

فاعترض كلامه عمر، وخرج إلى مذهبه في الخشونة والوعيد وإتيان الأمر من أصعب جهاته، فقال: أي والله، وأخرى إننا لم نأتكم حاجة إليكم، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم، فيتفاقم الخطب بكم وبهم فانظروا لأنفسكم وعامتهم، ثم سكت.

فتكلم العباس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله ابتعث محمداً نبياً، كما وصفت، وولياً للمؤمنين، فمن الله به على أمته حتى اختار له ما عنده، فخلّى الناس على أمرهم ليختاروا لأنفسهم، مصيبين للحق مائلين عن زيغ الهوى، فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم، وما تقدمنا في أمركم فرطاً، ولا حللنا وسطاً، ولا

نزحنا شحطاً، فإن كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين، فما وجب إذ كنا كارهين وما أبعد قولك أنهم طعنوا من قولك أنهم مالوا إليك، وما ما بذلت لنا فإن يكن حقك اعطيتناه فامسكه عليك، وإن يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن يكن حقنا لم نرض لك ببعضه دون بعض، وما أقول هذا أروم صرفك عما دخلت فيه، ولكن للحجة نصيبها من البيان، وأما قولك: إن رسول الله صلى الله عليه وآله منا ومنكم، فإن رسول الله ﷺ، ومن شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها. وأما قولك يا عمر، أنك تخاف الناس علينا، فهذا الذي قدمتموه أول ذلك، وبالله المستعان.^١

ونعود إلى كتاب سليم؛ عن البراء بن عازب كانت خاتمة اللقاء قول العباس: وأما قولك يا عمر: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله منا ومنكم)، فإن رسول الله شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها، فنحن أولى به منكم. وأما قولك: (إننا نخاف تفاقم الخطب بكم وبننا)، فهذا الذي فعلتموه أوائل ذلك، والله المستعان! فخرجوا من عنده، وأنشأ العباس يقول:

ما كنت أحسب هذا الأمر منحرفاً	عن هاشم ثم منهم عن أبي حسن
أليس أول من صلى لقبلكم	وأعلم الناس بالآثار والسنن
وأقرب الناس عهداً بالنبى ومن	جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما في جميع الناس كلهم	وليس في الناس ما فيه من الحسن

١. كتاب السقيفة وفدك للجوهري (ت ٣٢٣ هـ جرية) : ٤٦ — ٤٨ وفي الهامش ابن أبي الحديد ٢ : ٥١ ؛ تاريخ الطبري ٣ : عن ابن حميد عن سلمة قال: حدثنا محمد بن اسحاق ؛ الكامل ٢ : ٣٢١ ؛ سيرة ابن هشام ٤ : ٣٣٢ ؛ ابن أبي الحديد ١ : ٢١٩ ؛ الإمامة والسياسة ١ : ١٥ ؛ تاريخ يعقوبي ٢ : ١٠٣ ؛ الغدير ٧ : ٩٣ ؛ سيرة ابن هشام ٤ : ٣٤٠ ؛ ونثر الدرر ٢ : ٤٠٠ — ٤٠١ ؛ وكذا كتاب سليم بن قيس .

من ذا الذي ردكم عنه فنعرفه ها إن بيعتكم من أول الفتن.^١

ويظهر مما رواه البراء عن السقيفة أنه وعدد من الصحابة، أقل ما يوصف موقفهم بعدم الرضا مما وقع في سقيفة بني ساعدة، ومما انبثق عنها من بيعة أبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ حتى ورد أنه كان واحداً من هؤلاء الصحابة (سلمان وأبو ذر والمقداد بن الأسود والزبير بن العوام وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وعبادة بن الصامت، وأبوالهيثم بن التيهان وغيرهم...) كلهم أو بعضهم، قد اجتمعوا مع طائفة من بني هاشم في بيت الزهراء عليها السلام للنظر فيما آلت إليه أمور الخلافة بعد رحلة رسول الله ﷺ إلى ربّه تعالى.

قال اليعقوبي: وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب، منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبوذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي ابن كعب.

وقد نسب إلى البراء أنه قال لأبي العلاء بن المسيب حين لقيه وقال له: طوبى لك؛ صحبت النبي ﷺ وبايعته تحت الشجرة!

فكان جوابه: يا ابن أخي، إنك لا تدري ما أحدثنا بعده؟!

ويبدو أنه يشير في جوابه إلى ما حدث بعد وفاة رسول الله ﷺ من أحداث وأمور وفتن، وقد يكون ما حدث في السقيفة يعدّ أول فتنة حصلت حول الإمامة، وسرت في الأمة عبر القرون، وجرّت عليها الويلات.. ولنعم ما شخصه الشهرستاني حين يقول:

وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة

١. كتاب سليم بن قيس الهلالي (ت ٧٦ هجرية) ٤٦ - ٤٨.

دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كلِّ زمان...^١

وفي رواية لم أجد مصدراً لها غير الدرجات الرفيعة عن سليمان بن مهران الأعمش قال: شهد عندي عشرة نفر من خيار التابعين أن البراء بن عازب قال:

إني لأتبرأ ممن تقدّم على علي بن أبي طالب، وأنا بريء منهم في الدنيا والآخرة! وسليمان بن مهران الأعمش: ذكره ابن قتيبة في المعارف ثلاث مرّات، فذكره مرّة في أصحاب القراءات، ومرّة في أصحاب الحديث (وقال: إن الحديث كان أغلب عليه من القراءة) ومرّة في الشيعة، كما أشار إلى تشييعه الشهرستاني في الملل والنحل..

السيد الخوئي... ولا إشكال في أن تشيع الأعمش من المتسالم عليه عند الفريقين..^٢ وكيف لا يكون موقفه هكذا وهو واحد ممن شهد ووعى وروى حديث الغدير، فعن... عن علي بن زيد عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فنزلنا بغدير خم، فنودي فينا الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرتين فصلّى الظهر، وأخذ بيد عليّ عليه السلام، فقال: أستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟! قالوا: بلى!

قال: أستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟!

قالوا: بلى!

قال: فأخذ بيد عليّ عليه السلام، فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه! قال: فلقبه عمر بعد ذلك، فقال له: هنيئاً يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيّت مولى كل مؤمن ومؤمنة!

١. فتح الباري، شرح صحيح البخاري: مسألة ٣٦٣٧؛ تاريخ يعقوبي ٢: ١٢٤؛ الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٢ المقدمة، الخلاف الخامس.

٢. الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، للسيد علي خان المدني (ت ١١٢٠ هـ جريّة): ٤٥٤؛ المعارف: ١٣٩؛ الملل والنحل ١: ١٧٢؛ معجم رجال الحديث ٨: رقم ٥٥١٨.

قال أبو عبد الرحمن: حدثنا هذبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ نحوه.^١ ولم يكن ممن اكتفى برواية حديث الغدير بل من الذين شهدوا به. وقعت شهادته هذه، حين ناشدهم الإمام علي عليه السلام قائلاً:

أنشد الله من حفظ ذلك من رسول الله ﷺ لما قام فأخبر به! فقام زيد ابن أرقم، والبراء بن عازب، وسلمان، وأبوزر، والمقداد، وعمار بن ياسر رضي الله عنهم فقالوا: نشهد لقد حفظنا قول رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر وأنت إلى جنبه وهو يقول:

أيها الناس إن الله أمرني أن أنصب لكم إمامكم والقائم فيكم بعدي ووصيي وخلفتي، والذي فرض الله عز وجل على المؤمنين في كتابه طاعته، فقرنه بطاعته وطاعتي، فأمركم بولايتي وولايته، فإني راجعت ربي عز وجل خشية طعن أهل النفاق وتكذيبهم فأوعدني ربي لأبلغنها أو ليعذبني!^٢

وكان مع الإمام في مشاهدته الثلاثة:

فمما اتفق عليه المؤرخون أن البراء بن عازب كان ممن تولى الإمام علياً عليه السلام، وشهد معه معركة الجمل ثم صفين، فالتھروان، كما شهد معه ابنه وأخوه عبيد بن عازب هذه المشاهد الثلاثة.

ففي صفين وهو يقاتل، وكان ابنه إلى جانبه هو الآخر يقاتل معاوية وجنده، لم يترك البراء روايته، فعن نصر، عن عبد الغفار بن القاسم، عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال:

أقبل أبو سفيان ومعه معاوية؟

١. مسند الإمام أحمد بن حنبل رقم ١٨٠٠١؛ الدرجات الرفيعة: ٤٥٤.

٢. كتاب سليم بن قيس: ١٩٩.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم العن التابع والمتبوع، اللهم عليك بالأقيعس». فقال ابن البراء لأبيه: من الأقيعس؟ قال: معاوية.

وكان البراء بن عازب واحداً من الأنصار الذين عاتبهم وهم في ميدان القتال حين سمع الصحابي قيس بن سعد يقول قصيدته التي مطلعها:

يا ابن هند دع التوثب في الحر * ب إذا نحن في البلاد نأينا

يقول نصر بن مزاحم: فلما بلغ شعره معاوية دعا عمرو بن العاص، فقال: ما ترى في شتم الأنصار؟

قال: أرى أن تواعد ولا تشتم، ما عسى أن نقول لهم؟ إذا أردت ذمهم فذم أبدانهم ولا تدم أحسابهم.

قال معاوية: إن خطيب الأنصار قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيباً، وهو والله يريد أن يفنينا غداً إن لم يحبس عنا حابس الفيل، فما الرأي؟ قال: الرأي التوكل والصبر.

فأرسل معاوية إلى رجال من الأنصار فعاتبهم، منهم عقبة بن عمرو، وأبو مسعود، والبراء بن عازب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وخزيمة بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعمرو بن عمير والحجاج بن غزية، وكان هؤلاء يُلقون في تلك الحرب.

فبعث معاوية بقوله: لتأتوا قيس بن سعد. فمشوا بأجمعهم إلى قيس، فقالوا: إن معاوية لا يريد شتماً فكف عن شتمه. فقال: إن مثلي لا يشتم، ولكني لا أكف عن حربته حتى ألقى الله...

وفي النهروان في التاسع من شهر صفر سنة ثمان وثلاثين هجرية وقعت معركة النهروان بين الإمام علي عليه السلام وفرقة المارقين وهم الخوارج...

ويبدو أن البراء بن عازب كان آخر مبعوث من قبل الإمام علي عليه السلام إلى

الخوارج، وما إن وصل إليهم حتى راح يدعوهم ثلاثة أيام إلى طاعة الإمام وترك المشاقة، ولم يجد منهم إلا العناد، يقول الخطيب البغدادي عن البراء: وكان رسول علي بن أبي طالب إلى الخوارج بالنهروان يدعوهم إلى الطاعة وترك المشاقة، ثم روى بسنده عن أبي الجهم، قال: بعث علي بن أبي طالب البراء بن عازب إلى أهل النهروان يدعوهم ثلاثة أيام فلما أبوا سار إليهم^١.

قالوا عنه :

لقد كان البراء من أجلاء الصحابة وفضلائهم جهاداً وعلماً وروايةً، وهو الذي اختاره النبي ﷺ من بينهم ليلبسه خاتماً زاد من غنيمة بعد تقسيمها: فعن البراء أنه قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ وبين يديه غنيمة... فقسمها حتى بقي هذا الخاتم، فرفع طرفه فنظر إلى أصحابه ثم خفض ثم رفع طرفه فنظر إليهم، ثم قال: أي براء! فجئت حتى قعدت بين يديه، فأخذ الخاتم فقبض على كرسوعي، ثم قال: خذ البس ما كساك الله ورسوله، قال: فكان البراء يقول: فكيف (تأمروني) أن أضع ما قال رسول الله ﷺ: «البس ما كساك الله ورسوله».

جاء كلامه هذا حين اعترض عليه بعضهم: لم تحتّم بالذهب وقد نهى عنه النبي ﷺ؟ وإن ما يشهد على جلالته هذا الصحابي وعلو مكانته ورفيع منزلته هو أنه - وكما صرح علماء الرجال، وهم المعروفون بعدم تساهلهم في مسألة المرح والتعديل للرواة - قد حظي بمنزلة طيبة في تقييمهم له:

١. انظر وقعة صفين، لنصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ) ٤ : ٢١٨ - ٢١٧، ٧ : ٢٤٧ - ٤٨؛ الجمل، للشيخ المفيد: ٤٥٧؛ تاريخ بغداد، للخطيب ١ : ١٧٧؛ والاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر: باب البراء؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير: البراء بن عازب وأخوه عبيد بن عازب؛ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: ٦١٨.

أولاً: كلٌّ من ترجم له من العامة، أثنى عليه في سيرته وصحبته لرسول الله ﷺ وروايته الكثيرة عنه، منها: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». ومشاركته في مشاهدته بعد أن أذن له رسول الله ﷺ وأكّد بعض من ترجم له منهم أنه كان من أتباع الإمام عليّ عليه السلام، وأنه لم يتخلف عنه في الجمل وصفين والنهروان... وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: إنه شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام: الجمل، وصفين، والنهروان. وترجم له المجزي في أسد الغابة: شهد البراء مع علي بن أبي طالب: الجمل وصفين والنهروان؛ هو وأخوه عبيد بن عازب، ونزل الكوفة.. فيما عدّه ابن أبي الحديد من رؤساء الأنصار الذين كانوا تحت راية أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه الثلاثة. قال الذهبي عنه في السير: البراء بن عازب بن الحارث، الفقيه الكبير، أبو عمارة الأنصاري الحارثي المدني. مُسنّده ثلاث مائة وخمسة أحاديث، له في الصحيحين اثنان وعشرون حديثاً، وانفرد البخاري بخمسة عشر حديثاً، ومسلم بستة.. وهكذا المزي: البراء بن عازب بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري، الحارثي، الأوسي، أبو عمارة، ويُقال: أبو عمرو، ويقال: أبو الطفيل المدني، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه... روى عن النبي ﷺ. وروى... روى عنه... ثانياً: وفي كتب الرجال عند الإمامية: عدّه كلٌّ من البرقي والعلامة من أصفياء أمير المؤمنين عليه السلام.

١. انظر مسند أحمد ٤ : ٢٩٤ ؛ الطبقات، لابن سعد ؛ وأسّد الغابة ؛ والإصابة رقم ٦١٨ ؛ والاستيعاب ؛ السير، للذهبي ٣ : ١٩٤ - ١٩٦ تهذيب الكمال، للمزي (المتوفى ٧٤٢ هـ) رقم، ٦٥٠ وغيرها .

تصريحه لأئمة المؤمنين عليه السلام بأنه هو وأصحابه كانوا قبل اتّباعهم له بمنزلة اليهود تخفّ عليهم العبادة، وإنّ بعد اتّباعهم له وقع حقائق الإيمان في قلوبهم. مناداته بحديث الغدير، وشهادته عند استشهاديه عليه السلام منه ومن آخرين بحديث الغدير، إعلانه الولاء لأئمة المؤمنين عليه السلام، وإرسال أمير المؤمنين عليه السلام له إلى أهل النهروان، وموقفه يوم السقيفة.. إلى غير ذلك ممّا يشهد على جلالته ووثاقته....

روى الشيخ الكشي رحمه الله في رجاله عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال للبراء بن عازب: كيف وجدت هذا الدين؟

قال: كنّا بمنزلة اليهود قبل أن نتّبعك، تخفّ علينا العبادة، فلمّا اتّبعناك ووقع حقائق الإيمان في قلوبنا وجدنا العبادة قد تناقلت في أجسادنا. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن ثمّ يحشر الناس يوم القيامة في صور الحمير، وتُحشرون فرادى فرادى يؤخذ بكم إلى الجنة».

ويقول عنه السيد بحر العلوم: باب الباء البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري، أبو عمارة، صاحب ابن صاحب. كان عمره - يوم بدر - أربع عشرة سنة، فاستصغر ذكره العلامة، وابن داود في القسم الأول من (كتايبهما).

وقد روى عنه غير واحد من التابعين: حديث (غدير خم) مفصلاً وروى عن الأعمش: قال: شهد عندي عشرة من الأخيار التابعين أنّ البراء بن عازب كان يبرأ ممن تقدم على علي عليه السلام، ويقول: إني برئ منهم في الدنيا والآخرة.

وروى الشيخ أبو عمرو الكشي: عن جماعة من أصحابنا، منهم - أبوبكر الحضرمي وأبان بن تغلب، والحسين بن أبي العلاء، وصباح المزني عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال للبراء بن عازب: كيف وجدت هذا الدين؟

قال: كنا بمنزلة اليهود قبل أن نتّبعك. تخفّ علينا العبادة، فلمّا اتّبعناك ووقع حقائق الإيمان في قلوبنا وجدنا العبادة قد تناقلت في أجسادنا.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فمن ثمّ يحشر الناس يوم القيامة في صور الحمير،

وتحشرون فرادى، فرادى يؤخذ بكم إلى الجنة.

السيد الخوئي:

البراء بن عازب الانصاري الخزرجي، كنيته: أبو عامر، من أصحاب رسول الله ﷺ، رجال الشيخ، ومن أصحاب علي عليه السلام، رجال الشيخ، وعدّه البرقي من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن الأصفياء من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام. وقال الكشي: (روى جماعة من أصحابنا منهم: أبو بكر الحضرمي، وأبان بن تغلب، والحسين بن أبي العلاء، وصالح المزني عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام: أن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، قال للبراء بن عازب: كيف وجدت هذا الدين؟ قال: كنا بمنزلة اليهود قبل أن نتبعك، تخف علينا العبادة، فلما اتبعناك ووقع حقائق الإيمان في قلوبنا، وجدنا العبادة قد تناقلت في أجسادنا.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن ثمّ يحشر الناس يوم القيامة في صور الحمير، وتحشرون فرادى، فرادى، ويؤخذ بكم إلى الجنة»، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «مابدا لكم، ما من أحد يوم القيامة إلّا وهو يعوي عواء البهائم، أن اشهدوا لنا واستغفروا لنا فنعرض عنهم فما هم بعدها بمفلحين». قال أبو عمرو الكشي: هذا بعد أن أصابته دعوة أمير المؤمنين عليه السلام.

ولكن بعد هذا، هل ورد قدح وذمّ فيه؟

ذكرت روايات استفيد منها تخلفه عن الشهادة للإمام عليّ عليه السلام بحديث الغدير، وأنه كتبه، وأنه تخلف عن نصرة الإمام الحسين عليه السلام...
الرواية الأولى:

روى عبد الله بن إبراهيم قال: أخبرنا أبو مريم الأنصاري، عن المنهال بن عمرو، عن ذر بن حبيش، قال: خرج علي بن أبي طالب عليه السلام من القصر، فاستقبله ركبان متقلّدون بالسيوف، عليهم العمائم، فقالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا مولانا، فقال علي عليه السلام: «من ههنا من أصحاب رسول الله ﷺ؟»

فقام خالد بن زيد أبو أيوب، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله ابن بديل بن ورقاء، فشهدوا جميعاً أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول يوم غدیر خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

فقال علي عليه السلام لأنس بن مالك، والبراء بن عازب: «ما منعكما أن تقوموا فتشهدا، فقد سمعتما كما سمع القوم؟ ثم قال: اللهم إن كنا كنهما معاندة فابتلهم، فعمي البراء بن عازب، وبرص قدما أنس بن مالك، فحلف أنس بن مالك: أن لا يكتم منقبة لعلي بن أبي طالب ولا فضلاً أبداً، وأمّا البراء بن عازب فكان يسأل عن منزله، فيقال: هو في موضع كذا وكذا، فيقول: كيف يرشد من أصابته الدعوة.

الرواية الثانية :

الصدوق في المجالس، المجلس ٢٦، الحديث ١، وفي الخصال، باب الأربعة، الحديث ٤٤، قال: حدثنا محمد بن موسى ابن المتوكل، قال: حدثنا علي بن الحسين السعد آبادي، عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي، عن أبيه، عن محمد بن سنان، عن المفضل بن عمر، عن أبي الجارود زياد بن المنذر، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه السلام، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس إن قدام منبركم هذا أربعة رهط من أصحاب محمد ﷺ، منهم: أنس بن مالك، والبراء بن عازب والأشعث بن قيس الكندي، وخالد بن يزيد البجلي، ثم أقبل على أنس، فقال: يا أنس، إن كنت سمعت رسول الله ﷺ عليه وآله يقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية، فلا أماتك الله حتى يبتليك ببرص لا تغطيه العمامة، وأمّا أنت يا أشعث، فإن كنت سمعت رسول الله ﷺ عليه وآله يقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»، ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية، فلا أماتك الله حتى يذهب بكرميتك، وأمّا أنت يا خالد بن يزيد، فإن كنت سمعت رسول الله ﷺ عليه وآله، يقول «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه». ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية، فلا أماتك الله إلا ميتة جاهلية، وأمّا أنت

يابن عازب فإن كنت سمعت رسول الله صَلَّى الله عليه وآله يقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»، ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية، فلا أماتك الله إلا حيث هاجرت. قال جابر بن عبد الله الأنصاري: والله لقد رأيت أنس بن مالك وقد ابتلي برص يغطيه بالعمامة فما تستره، ولقد رأيت الأشعث بن قيس وقد ذهب كرميته، وهو يقول: الحمد لله الذي جعل دعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام عَلَيَّ بالعمى في الدنيا ولم يدع عَلَيَّ بالعذاب في الآخرة فأعذب، وأمّا خالد بن يزيد، فإنه مات فأراد أهله أن يدفنوه، وحفر له في منزله فدفن، فسمعت بذلك كندة، فجاءت بالخیل والإبل، فعقرتها على باب منزله، فمات ميتة جاهلية، وأمّا البراء بن عازب، فإنه ولّاه معاوية اليمن، فمات بها، ومنها كان هاجر.

الرواية الثالثة :

المفيد رحمته الله: عن إسماعيل بن صبيح، عن يحيى بن مساور العابدی، عن إسماعيل بن زياد. قال: إنَّ علياً عليه السلام قال للبراء ابن عازب ذات يوم: يا براء يقتل ابني الحسين عليه السلام وأنت حيٌّ لا تنصره. فلمّا قتل الحسين عليه السلام، كان البراء بن عازب يقول: صدق والله عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام قتل الحسين عليه السلام ولم أنصره، ثم أظهر الحسرة على ذلك والندم.^١

ثمَّ إنَّ السيد الخوئي بعد أن يذكر هذه الروايات يقول عن الأولى: كتمان البراء الشهادة، ودعاء علي عليه السلام عليه لم يثبت، فإنَّ ذلك مروي عن طريق العامة، ولا وثوق بصحّة سنده.

وعن الثانية: سند الرواية ضعيف، بمحمد بن سنان، على أنَّها اشتملت على ما اشتهر خلافة، فإنه ذكر فيها أنَّه ولّاه معاوية اليمن فمات بها، والمشهور أنَّه بقى إلى زمان مصعب

١. الإرشاد ١ : ٣٣١ .

ومات في عصره بالكوفة. ذكر ذلك في أسد الغابة، والإصابة، والإستيعاب.
 وأيضاً عن الثالثة: عما رواه المفيد في الإرشاد، وروى ابن شهر آشوب مثله:
 قال عليه السلام للبراء بن عازب: يا براء يقتل ابني الحسين وأنت حي لا تنصره، فلما قتل الحسين
 كان البراء يقول: صدق والله أمير المؤمنين، وجعل يتلهف.^١
 يقول: فهي وإن دلت على ذم البراء لدلائلها على أن ترك نصرته للحسين عليه السلام كان
 عن اختياره وتمكّنه. إلا أنها أيضاً ضعيفة بالإرسال وجهالة الرواة.
 ثم ينتهي السيد الخوئي إلى أنه لامعارض لشهادة البرقي بأنه كان من أصفياء
 أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وأما قبول ولايته على اليمن من قبل معاوية فهو أيضاً
 غير ثابت، ...^٢

كما أن الكشي عنونها: فيما روي من جهة العامة...^٣
 أما الشيخ المامقاني فله بحث مفصل عنه وعن هذه الروايات، يخلص منه إلى التالي:
 إنَّ عدَّ البرقي والعلامة للمترجم من أصفياء أمير المؤمنين عليه السلام، وعدَّ ابن أبي
 الحديد له من رؤساء الأنصار الذين كانوا تحت راية أمير المؤمنين عليه السلام، واتفاق
 الخبراء من أرباب الرجال بنضاله تحت راية أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه الثلاثة،
 وتصريحه لأمر المؤمنين عليه السلام بأنه هو وأصحابه كانوا قبل اتّباعهم لأمر المؤمنين عليه السلام
 بمنزلة اليهود تخف عليهم العبادة، وإنَّ بعد اتّباعهم له عليه السلام وقع حقائق الإيمان في
 قلوبهم، ومناداته بحديث الغدير، وشهادته عند استشهاد عليه السلام منه ومن آخرين
 بحديث الغدير، وإعلانه الولاء لأمر المؤمنين عليه السلام وإرسال أمير المؤمنين له إلى أهل
 النهروان وموقفه يوم السقيفة.. إلى غير ذلك ممَّا يشهد على جلالته ووثاقته، لأدلّ دليل

١. مناقب ابن شهر آشوب ٢ : ١٠٦ . ٢ : ٢٧٠ .

٢. معجم رجال الحديث، ١٦٦٠ البراء بن عازب .

٣. رجال الكشي : ١٢ - البراء بن عازب : ٤٠ - ٤١ .

على قربه منه عليه السلام ومنزلته واعتماده عليه.
ومن ملاحظة مجموع ما ذكرناه ينبغي عدّه من الثقات الأجلاء، وأنّ عدّه من الحسان
هضم لحقه، وتنقيص لرتبته، والله العالم.^١
السيد محسن الأمين:

البراء بن عازب من الذين رجعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فشهد معه مشاهدته كلها
الجمل وصفين والنهروان باتفاق الرواة وأهل العلم، وذلك يدل على حسن حاله ولكنه
لم يكن خالياً من شيء بكتمانه الشهادة لعلّي عليه السلام بالولاية يوم الغدير، وأنه دعا عليه وتركه
نصرة الحسين عليه السلام.

أمّا الدعاء عليه فإن صحّ فهو بعد شهوده المشاهد إذا لا يشهدا وهو أعمى،
ولم يذكر أنه تاب، غايته أنه كان يقول كيف يرشد من أصابته الدعوة وهو لا يدل على
التوبة، لكن ما رواه الكشي عنه يدل على حسن حاله وقد فهم منه انه كان ذلك بعد أن
أصابته الدعوة وتبعه العلامة في الخلاصة، وخبر أصابته الدعوة له بالعمى معارضة برواية
الخصال والمجالس، ولم يكن معاوية ليؤليه وهو أعمى لكن خبر الخصال مناف لما ذكره
الأكثر من أن وفاته كانت بالكوفة، وأنه لم يذهب إلى معاوية ولا إلى اليمن، وأنه مدني
أوسي لا يمني، وبالجمل فأمر مشتبّه وهو إلى السلامة أقرب، والله أعلم.^٢

أقول :

هذا إضافة إلى أن البراء بن عازب ممن شهد للإمام عليّ عليه السلام كما جاء في
كتاب سليم بن قيس : ١٩٩ وتحت عنوان:
يوم غدير خم على لسان أمير المؤمنين عليه السلام، قال: فأنشدتكم أتعلمون ...

١. تنقيح المقال، في علم الرجال : ٦٧ رقم ٢٩٢٤ ؛ البراء بن عازب الأنصاري الخزرجي .

٢. أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين ٣ : ٢٥١ .

فنصبي للناس بغدير خم، ثم خطب وقال: «أيها الناس، إن الله أرسلني برسالة ضاق بها صدري وظننت أن الناس تكذبني فأوعدني لأبلغها أو ليعذبني».

ثم أمر فنودي بالصلاة جامعة، ثم خطب فقال: «أيها الناس، أتعلمون أن الله عزَّ وجلَّ مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم؟»

قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: (قم، يا علي). فقامت، فقال: «من كنت مولاه فعلي هذا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...»

فقام زيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأبوذر، والمقداد، وعمار، فقالوا: نشهد لقد حفظنا قول النبي صلى الله عليه وآله - وهو قائم على المنبر وأنت إلى جنبه - وهو يقول: «يا أيها الناس، إن الله أمرني أن أنصب لكم إمامكم والقائم فيكم بعدي ووصيي وخليفتي، والذي فرض الله على المؤمنين في كتابه طاعته فقرنه بطاعته وطاعتي، وأمركم فيه بولايته. وإني راجعت ربي خشية طعن أهل النفاق وتكذيبهم، فأوعدني لتبلغنها أو ليعذبني».

وأنَّ ما ذكره ابن أبي الحديد هو التالي:

ومن ذلك قوله عليه السلام للبراء بن عازب يوماً: يا براء، أيقتل الحسين وأنت حيٌّ فلا تنصره؟! فقال البراء: لا كان ذلك يا أمير المؤمنين!

فلما قتل الحسين عليه السلام، كان البراء يذكر ذلك؛ ويقول: أعظم بها حسرة! إذ لم أشهده وأقتل دونه!

والفرق واضح بين متن الروایتين لمن تدبر فيهما.

فحسرتة إذن أنه لم يشهد قتل الإمام الحسين عليه السلام، ويقتل دونه! فقد يكون

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ جملة من أخبار عليٍّ بالأمور الغيبية : ١٥ .

فوجئ بقتل الإمام عليه السلام، وتذكر سؤال الإمام علي عليه السلام، وجوابه عنه: لا كان ذلك يا أمير المؤمنين!

ولا ندري فلعل هناك سبباً حال دون أن يُوفق لنصرة الإمام عليه السلام، خاصة أن التاريخ لم يذكر لنا مواقف الكثيرين ممن لم يوفقوا لرفقة الإمام عليه السلام، وقد عرفوا بالولاء لأهل البيت وكانوا من شيعتهم سواء في المدينة أو الكوفة أو البصرة... هل منعوا وتعرضوا للمحاصرة والتضييق بل والسجن، أو أنهم كانوا متفرقين في البلدان، أو لم يخطر ببالهم أن يُجتمع بالإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، ويمنع من الوصول إلى الكوفة حيث أنصاره ومريدوه..؟! حيث أنصاره ومريدوه..؟!!

وفاته رضوان الله عليه :

وبعد كل المشاهد التي حضرها بين يدي رسول الله ﷺ والمعارك الثلاث التي وقعت في خلافة الإمام علي عليه السلام ضد الناكثين أصحاب الجمل، والقاسطين معاوية وجنده، والمارقين الخوارج؛ فكان بين يديهما المباركتين مؤمناً مطيعاً، وجندياً مقاتلاً، وفارساً عنيداً.. إضافة إلى فتوحات العراق وفارس، وفي قول كان فتح الري على يديه سنة (٢٤هـ) كما شهد فتح مدينة تُستر أو شوشتر.

بعد كل هذا، يُقال: إنه سكن الكوفة في آخر عمره، حتى توفاه الله تعالى فيها بعد أن بلغ من العمر الثانية والسبعين.



معلومات حول نفوذ الشيعة الإمامية

في المدينة المنورة

في النصف الأول من القرن الهجري الثامن

رسول جعفر يان^١

المترجم: السيد عباس الصافي

الموجز:

كانت المدينة المنورة خاضعة لنفوذ السادة الذين كان يُطلق عليهم اصطلاحاً اسم (الأشراف) منذ أواخر القرن الثاني، وبشكل رسمي منذ القرن الرابع للهجرة، وكان هؤلاء السادة غالباً ما يميلون إلى المذهب الشيعي، لكن، وبسبب تسلط الخلفاء العباسيين كان هؤلاء القوم يتمسكون بالتقية بل ويتظاهرون أحياناً بأنهم من أهل السنة، بسبب العلاقات

١. أستاذ محاضر في جامعة طهران.

الأُسْرية، إِلَّا أَنَّهُمْ ظَلُّوا مَتَمَسِّكِينَ بِالْمَذْهَبِ الشَّيعِيِّ.

وفي عهد الخلفاء الفاطميين كان أولئك السادة يُظهرون تشييعهم بشكل علنيٍّ، ومع سقوط الدولة الفاطمية ومجيء الحُكَّام الأيوبيين ومن ثمَّ المماليك ازداد الضغط على السادة الأشراف. وكانت المدينة آنذاك تتألف من فئتين من الناس (المجاورون - المقيمون)؛ فأما (المجاورون)، فهم الذين كانوا يأتون إليها من الخارج وغالباً ما كانوا من أهل السُنَّة، وأما (المقيمون) فكانوا من الشيعة وتحت حماية الأشراف. وهكذا استمرَّ الجدل والاحتكاك بين تلكما الفئتين وبقيت ظلال تلك المنازعات قائمة حتى النصف الأول من القرن الهجريِّ الثامن وقد صوِّر تفاصيل تلك المنازعات بين هاتين الفرقتين الكتاب المسمَّى «نصيحة المشاور وتعزية المجاور».

الكلمات المفتاحية:

المدينة المنورة، نصيحة المشاور، الأشراف، العباسيون، الفاطميون، المقيمون، المجاورون.

مقدمة حول كتاب «نصيحة المشاور وتعزية المجاور»

صدرت مؤخراً طبعة جديدة ومنقّحة من كتاب «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» بإشراف عبدالله بن محمَّد بن فرحون اليعمرى (٦٩٣-٧٦٩ هـ) وهي طبعة جميلة ودقيقة للغاية. يتناول الكتاب المذكور تاريخ المدينة المنورة في إطار أخبار المجاورين للحرَم النبويِّ الشريف ويتضمَّن في الحقيقة أخبار بعض الشخصيات والقضاة وأئمَّة المساجد وكذلك بعض الأمراء الذين عاشوا في تلك المدينة ممَّن كان لهم تأثير كبير في تلك الحقبة من خلال المناصب الدينية أو السياسية التي كانوا يشغلونها.

واليعمرى شخصيَّة تونسية الأصل مالكيِّ المذهب قضى مُعظم حياته في المدينة إلى جانب المجاورين المغربيين وكان يشغل هناك منصب نائب القضاء منذ سنة (٧٥٦ هـ)، وكان والده وأخوه وبعض أقاربه موجودين كذلك في المدينة المنورة حيث أفرد القسم الأخير من كتابهم المذكور في ذكر سيرتهم. وبالاستناد إلى ما قاله اليعمرى في كتابه فإنَّ والده كان قد توفِّي سنة (٧٢٢ هـ) - الصفحة رقم (١٦٣) من الكتاب)، ووفق ما ذكره اليعمرى في الكتاب

نفسه فإنه كان أحد علماء المدينة المعروفين وكان يحاول إظهار نفسه بأنه المدافع عن أهل السنة في مقابل الشيعة هناك إلى جانب الآخرين والتحرك بظهر العالم المالكي والسعي إلى قيادة أبناء مذهبه من المغاربة في المدينة والحصول على بعض الامتيازات والجاه من السلطان.



قال مُصحح الكتاب في مقدّمته الموجزة: «كان - رحمه الله - من المُكثرين للحجّ، فقد حجّ خمساً وخمسين حجّة»، وظلّ يؤدّي صلاته في الصفوف الأولى من المصلّين في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) مدّة ستين عاماً، وكان يُظهر نفسه على أنّه أحد العوامل التي ساعدت على نشر المذهب المالكيّ في المدينة وأنه كان ناشطاً في مجال الحديث والعلوم الدينية

الأخرى.

إلا أن ما يهَمُّنا هنا هو أن المؤلف كانت له آراء تاريخية إلى جانب المجالات الدينية وكان يُكثر من الثقل عن جمال الدين المطري ومتأثراً به والمعروف أن المطري كان مؤلفاً محترفاً في مجال التاريخ كما يبدو من كتابه المسمى «التعريف». والحقيقة أن علماء السنّة كان يتميّزون بالنظرة التاريخية وذلك بسبب معرفتهم بعلم الحديث والرجال وكذلك الاهتمام بالموضوعات الخلافية بين المذاهب، إلا أن اليعمري كان أكثر اهتماماً وفاعلية في هذا المجال وكتابه: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» دليل ساطع على ما نقوله حيث كان ينظر إلى التاريخ نظرة احترافية، ومع ذلك فإن نظرتَه التاريخية متأثرة إلى حد كبير بفكره الديني والمذهبي. ويُعدّ كتاب اليعمري المصدر الرئيس للسخاوي عند تأليفه كتابه المسمى: «التحفة اللطيفة» الذي صدر مؤخراً في تسعة مجلدات وتناول تاريخ المدينة المنورة بالتفصيل لكنّه كان قد طُبِع أيضاً قبل هذا حيث أشار مُصحِّح الكتاب الحاضر إلى ذلك في هوامشه.

يضمّ كتاب «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» - بعد مقدّمة حول المسجد والجوانب المزيّنة فيه وضرورة الزّهد والعفو وغير ذلك من الأمور - تقريراً عن سيرة بعض الخدّام والقيّاشين والمجاورين في تلك المنطقة وهو في الحقيقة صورة منقولة عن المدينة بمنظار المجاورين، لكنّه بشكل عامّ يُعدّ تاريخاً مدوّناً للمدينة المنورة ويشتمل على الكثير من الأخبار الخاصة بعلاقات هذه المدينة مع الدولة الأيوبية ومن بعدها المماليك وكذلك علاقاتها مع أمراء مكّة آنذاك. ويبدأ نصّ السّير في الكتاب من الصفحة رقم (٨٢)، كما يتضمّن الكتاب كذلك معلومات تاريخية متفرّقة. فعلى سبيل المثال، تطرّقت بعض صفحات الكتاب المذكور إلى سيرة صلاح الدين الأيوبي وتاريخه وفتوحاته إضافة إلى شرح مُفصّل حول الدولة الفاطمية لكن بنظرة نقدية سنيّة متطرّفة وهي في الأغلب قضايا مُكرّرة ومذكورة سابقاً.

وقد ورد الكثير من المطالب أيضاً حول سيرة المؤلف نفسه، وكما أشرنا آنفاً فإن المؤلف أفرد الفصل الأخير من كتابه في شرح سيرة والده وأخيه.^١ هذا، وتمّ نشر كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» حديثاً في (٤٤٣) صفحة (أو ٥٤٥ صفحة مع الفهارس) بمناسبة اعتبار المدينة المنورة عاصمة للثقافة في العالم الإسلامي، ويحمل الكتاب المذكور عناوين عدد من المؤسسات ودور النشر ومنها مركز البحوث والدراسات في المدينة المنورة و(الدارة) كناشرين للكتاب. وتكمن أهمية الكتاب الحالي في كونه يضمّ الكثير من الأخبار التي تحكي تاريخ المدينة وهو مكتوب بأسلوب أدبيّ رصين ومتين ويشتمل على عدد كبير من الموضوعات المهمة حول التاريخ الثقافي والاجتماعي للمدينة. وقد تمّ نشر الكتاب المذكور مع التحقيق والتدقيق في الشكل والإعراب ويمتاز بالدقّة إلى حدّ كبير بمجرد إلقاء نظرة سريعة عليه. وبالنظر إلى أهمية الكتاب ولا سيّما في معرفة تاريخ المدينة فقد كثرت طبعاته وازدادت أعداده وإن كان تُشير عدّة مرّات قبل ذلك أيضاً وهو معروض على شبكة الإنترنت بحلّة جديدة.

تشير مقدّمة كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» - وفق المعلومات التي ذكرها المؤلف عن نفسه - إلى أنّ اليعمرّي قد لعب دوراً كبيراً في الوقوف بوجه فقهاء الإمامية ومنعهم عن الوصول إلى مناصب القضاء في المدينة، كما يدلّ كتابه المذكور بصراحة على أنّ فقهاء الإمامية استطاعوا الصمود والبقاء على قدرتهم المذهبية فترة طويلة نسبياً وذلك بفضل حماية الشيعة لهم في المدينة ودعم الأشراف الذين كانوا آنذاك يميلون إلى مذهب الإمامية.

ويحاول اليعمرّي إثبات أنّه و عدد من رجال الدين الذين تمّ إرسالهم من قبل

١. الصفحة ٤١٩ فما بعد .

السلطان المملوكيّ وبقوّة الدعم السياسيّ والماليّ التي كان هو وجماعته يتمتّعون بها استطاع الوقوف بوجه التيار الشيعيّ الإماميّ وفقهائه وأنه اشتغل مدّة طويلة لإقصائهم والقضاء عليهم. ويبدو أنّ نفوذ الشيعة الإمامية ونشاطاتهم قد ضعف و ضلّ بعد تلك المحاولات والفعاليات التي قام بها اليعمرّيّ وأقرانه وخصوصاً في أمر القضاء في المدينة المنورة. والحقيقة أنّ تلك المنافسة كانت منافسة بين الأشراف في المدينة والسلطان المملوكيّ، فكان أحدهم يمتلك السلطة على الأرض بينما يمتلك الآخر القدرة السياسية والمالية والأموال التي كان ينبغي له إرسالها إلى مكّة كلّ عام وكذلك إرسال خطيب وإمام من جهته إلى تلك الديار. ويُرينا الكتاب صورة واضحة ومتكاملة عن شكل تلك المنافسة في تلك الأيام.

إنّنا نعلم علم اليقين أنّ النفوذ الشيعيّ في تلك المدينة كان قد بدأ في العقود الوسطى من القرن الهجريّ السابع واستمرّ هذا الوضع حتى أواسط القرن الثامن للهجرة. ويُعدّ هذا الكتاب مصدراً مهمّاً للمعلومات التي نمتلكها بهذا الشأن، وقد أدّت جهود اليعمرّي التي استمات في تسخيرها للتقليل من سلطة الفقهاء والقضاة الشيعة في المدينة وإضعاف نفوذهم وسرد أخبارهم وسيرتهم في كتابه المذكور، أدّى كلّ ذلك إلى حثنا على إلقاء نظرة على هذا الكتاب. والحقيقة أنّ الكتاب الحالي يتضمّن أخباراً مهمّة بشأن تاريخ الشيعة الإمامية في المدينة المنورة.

يمكننا الاستنباط من هذا الكتاب بشكل جيّد أنّ أغلب المقيمين وأبناء المدينة المنورة كانوا على المذهب الشيعيّ وأنّ معظم المجاورين والأفراد الذين قدموا إلى المدينة من مختلف الأصقاع كانوا على المذهب السنيّ، ولهذا السبب حدث الكثير من النزاعات والصراعات المذهبية بين الطائفتين، فكان أشراف المدينة يحامون عن المقيمين في المدينة على حين كان السلاطين المماليك يذودون عن المجاورين فيها.

لن نخوض ههنا في المعلومات الأخرى التي وردت في كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» والتي تُعتبر غاية في الأهمية في محلّها، وسنكتفي بالإشارة فقط إلى تلك النصوص التي تخصّ علماء الشيعة أو المسائل المتعلّقة بهم، أمّا الهوامش والإرجاعات التي

اعتمدناها فهي مستندة إلى هذه الطبعة من الكتاب المذكور والمنشورة بتصحيح وتحقيق مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة سنة (١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م).

بداية التقرير

قال المؤلف في أول كلامه عن لزوم كرسي القضاء وضرورته في المسجد: «ودكة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مسجد الكوفة إلى الآن معروفة»^١. ثم تناول اليعمرى موضوع بناء الدكات في بعض نقاط المسجد لأمر خاص وأشار إلى بناء دكة للمؤذنين وإلى بعض الأبنية الإضافية الأخرى التي تسببت في إحداث جملة من المشاكل والتي قال عنها: إنها بدعة، وأضاف قائلاً: «وقد تساهل من كان قبلنا فزادوا على الحجرة الشريفة مقصورة كبيرة، عملت وقاية من الشمس إذا غربت، فكانت بدعة وضلالة يصلّي فيها الإمامية من الشيعة، لأنها قطعت الصفوف، واتّسمت بمن ذكر من الصنوف، فغلبت المفسدة بها، وندم على ذلك من وضعها. ولقد كنت أسمع الشريف عزاز يقف على بابها، ويؤذّن بأعلى صوته من غير خوف ولا خجل: «حيّ على خير العمل»، وكانت مواطن تدريسهم وخلوة علمائهم، حتى قبض الله لها من سعى فيها، فأصبحت ليلة مخلة أبوابها، معوجة أخشابها، متصلة صفوفها، وأدخل بعضها في الحجرة الشريفة، وجعل فيها الباب الشامي»^٢.

ومن هنا بدأ اليعمرى بالإشارة إلى «آل سنان» كواحدة من الأسر الشيعية الإمامية ويذكرهم في كل موضع وموطن من كتابه، ومن ذلك قوله في عدّ البدع التي صنعت داخل المسجد ويشير إلى الصناديق التي كان أحدها في مقابل رأس النبي (ﷺ) وكان الآخر مقابلاً لدار فاطمة (عليها السلام) وغير ذلك فيقول: «ومما أدركت من البدع التي أراح الله منها، ما

١. المصدر نفسه : ٤٠ .

٢. المصدر نفسه : ٥٢ .

كان يفعلُه الشرفاء من آل سنان وغيرهم»^١.

وهكذا يستأنف اليعمرى منهجه في كتابه الذي أراد به الإشارة بوضوح إلى قدرة آل سنان من الشيعة وإضعاف نفوذهم وتعزيز قوة أهل السنة بقوله: «لم يزل كذلك حتى قويت السنة وأهلها». ومن ذلك أيضاً ما قاله اليعمرى:

«أنى أدركت قراء الإمامية وأئمتها إذا دخل شهر رمضان، أخذوا من القبة شعماً وشعدانات على عددهم ينصبونها بعد صلاة الآخرة في مجالسهم، ويدعون في كتبهم، ويرفعون أصواتهم حول الروضة، والناس في الصلاة لا يعلمون صلاتهم من رفع أصواتهم، ولا يسمعون قراءة إمامهم لكثرة قرائهم، ويجتمع عليهم من الناس خلق كثير، ويتخللون تلك الأدعية بسجديات لهم مؤقتة. ولم يزالوا كذلك إلى أن اجتمعت الكلمة، وظهر الحق، فمُنِعوا من ذلك إلا في بيوتهم ومجالسهم، فانحسرت المادة، وزالت تلك العادة».

ثم يضيف اليعمرى قائلاً:

«ولقد أدركت جماعة من المجاورين والخدام لا يقرؤون كتبهم، ولا يسمعون حديث نبيهم إلا في خفية، حتى قدم الصاحب ابن حنّاً رحمه الله تعالى، وأقام بالمدينة فكثّر من قراءة المواعيد، وقام على آل سنان والقياشين، فهابوا مكانه من السلطان، وأذعنوا واستعملوا التقية حتى رجعوا فيما زعموا كلهم سنة»^٢.

«ويعدّ رؤساء الإماميين وكبار الشرفاء المقيمين، حتى أشهدوا على أنفسهم أنهم سنة، ولا يحكمون بأحكام البدعة، وكان الحكّام منهم والفقهاء منهم، ولم يزالوا كذلك حتى سافر الصّاحب عنهم، فرجعوا إلى حالهم، ولكن بعد هضم جانبهم وكسر شوكتهم، فاستمرت المواعيد والقراءات والاستماعات والسماعات، وذهب ببركة إقامته كثير من البدع المؤسّسة

١. المصدر نفسه : ٥٤ .

٢. المصدر نفسه : ٥٥ .

في المسجد الشريف منها: صلاة الرغائب التي روي أنها تصلّى ليلة أول جمعة من شهر رجب. أدركت القاضي سراج الدين الآتي ذكره يصلّيها في جماعة في الروضة المشرفة بلا نكير، ولا معارض، وسنده في ذلك ما رواه فيها وأخذ به كثير من الصوفية. إلا أن هذه المسألة لا تتعلّق بالشيعة»^١.

وأما المسألة الأخرى التي لا تتعلّق أصلاً بالشيعة واليعمرى كذلك لا يسندها إليهم فهو الخبر الذي يقول عنه اليعمرى:

«واتفق أن جاء إلى المدينة في أيامه رجل من اليمن ادّعى أنه شريف، كان له شكالة حسنة، مع طول قامته وسكون وحشمة، وكان معه جماعة في طوله يتبعونه ويعظمونه، فأظهر أنه صاحب الزمان، وسكن مع أصحابه في دار النفيس شامي المسجد الشريف، فانعطف عليهم الناس وهادوهم، وتمكنوا من خاطر الفاخري تمكيناً جيداً، ووعدوه أنه يكون عنده من المقربين إذا خرج، فأقام على ذلك مدة تُهدى إليه البذلات الرفيعة، والموائد الفاخرة تجري عليه من عنده، ومن عند إخوانه جماعة من الشرفاء، وكان في حفظ نفسه ومراعاة رئاسته عجباً، فلما طال مقامه وأبطأت عاداته تكعكع عنه الناس قليلاً، فلما أحسّ بذلك سافر إلى العراق، فلم يطلع بعد ذلك خبره.

ثم ظهر بعد ذلك رجل من أهل تونس وكان والدي رحمه الله يعرفه في تونس هو وأبوه، يُقال له: ابن حماس، ظهر بهذه الطريقة، واتّسم بأنه من أرباب الحقيقة، وانعطف عليه هذا الطواشي وغيره، فأسكنوه وقربوه، وأتحفوه بأنواع الملابس وفاخر الأطعمة، وكان قد تبذن وسمن من كثرة ما يأكل. وكان يقول: الآن قام من عندي الخضر عليه السلام وقال لي: كذا وكذا، إلى أن قال: لي ملك كذا وكذا. ثم ترقّى حتى قال: كلمني القلم، ورأيت الملكوت، وأنواعها من هذه الترهات والخزعبلات، وقام عليه جماعة من أهل الخير، وبلغوا

١. المصدر نفسه : ٥٦ .

الحاكم مقالته ونصب خيالاته، فأدعي في مجلس كبير وحضره شيخ الخدام، وجماعة من لفيف العوام، فسألوا عما نقلوا عنه، فكان يقول مقالة غير مقالة الآخر، لم يجتمع على الشهادة اثنان فخلّي سبيله، ثم سافر إلى القاهرة واشتهر بها ذكره وكثر أتباعه، ثم انتقل إلى العراق فقليل: إنه قُتِلَ بها»^١.

ويبدو أنّ التشيع في المدينة في ذلك الزمان كان مدعوماً بحماية بعض الأشراف الذين يعتنقون المذهب الإمامي ومنهم «آل مهتّا» الذين ذكرهم اليعمري في هذا الكتاب وأشار إلى بعض أخبارهم ومن ذلك ما ذكره عن بعض المشايخ الكبار المسمّى بعلي الواسطي الذي كان آل مهتّا يعتقدون به اعتقاداً عظيماً «حتى كانوا يصدرون عن رأيه، ويتبركون بعصاه وثوبه» إلا أنّ اليعمري لم يذكر شيئاً عن تشيع الواسطي هذا واكتفى بالإشارة إلى أنّه كان يقيم دهرًا في المدينة ودهرًا في العراق.^٢

ثمّ يشير اليعمري في خلال حديثه عن بعض المشايخ المنتمين إلى مدرسة الشهابية ممّن كانوا يسكنون المدينة أيضاً، يشير إلى الشيخ يعقوب الشريف الذي كان فقيهاً معروفاً «كان له فقه وعلم واشتغال وعليه هيبة وجلالة» ويؤكد اليعمري أنّ هذا الشريف «كان له غيرة عظيمة على أهل السنّة» وأنّه كان «لا يزال ينكر المنكر، ويتعرض لأهل البدع فيأخذ منهم بلسانه فيسفهمهم، ويحطّ منهم، وكان الوقت ليناً على حال أهل السنّة لا يتمكن فيه من القيام بالحق، كما هو اليوم الحمد لله».

ويمكننا استنباط ما يقصده المؤلّف من هذه الجملة التي أعاد تكرارها كثيراً كما أنّ ما يعنيه بالغيرة في مقابل أهل السنّة هم الشيعة الإمامية في تلك المدينة. وفي الواقع يقسم اليعمري الخواطر التي ذكرها في حياته إلى مرحلتين: المرحلة الأولى وهي المرحلة التي كان فيها الشيعة أقوىاء وذوي نفوذ كبير، ومرحلة ثانية تمّ فيها تقليص نفوذ الشيعة وإضعافهم

١. المصدر نفسه : ١٠١ - ١٠٣ .

٢. المصدر نفسه : ١٣٦ .

بجهود السلطان وجماعة من علماء أهل السنة، وهو ما أشار إليه في هذا الموضع من كتابه، فيسرد عندئذ قصة دفاع يعقوب الشريف بالشكل المذكور. وفي ذلك الوقت كان هنالك رجل من كبار علماء الإمامية واسمه يعقوب بن الصفي ينادي بأعلى صوته في وسط الروضة النبوية الشريفة قائلاً:

إن كان رفضاً حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي
فيفزع من ذلك أهل السنّة، وكان له في مثل هذا التعصب أمثال وله أعوان، فأذكر الشريف يعقوب عليه، وباحثه وخطأه في مسائل بحث فيها، فرفع الأمر إلى الأمير منصور، فرفع الشريف ورُمي في الحب، ولم يخرجوه منه حتى غرّموه ألف درهم، وكان لا مال له، فضيقوا عليه ونكلوا به وتشفّوا من أهل السنّة، فجُمعت له غرامته ودفعت إليهم.^١

وفي موضع آخر من كتابه أشار اليعمريّ إلى أسرة أخرى باسم العباية [العباشية] بقوله: «فرقة كبيرة من أولاد المدينة منهم يوسف الشربشير شيخ الشيعة وفقههم» ثمّ يُضيف قائلاً: «وكان جدّهم مغريباً سنياً، تزوّج من بنات المدينة ومات عن أولاد صغار، فنشأوا في مذهب أمّهم، ثمّ كثروا وانتشروا وتمذهبوا بمذهب الشيعة وغلوا فيه». وكان اليعمريّ قبل هذا قد ذكر محمّداً، ابن محمد بن يحيى الخشبيّ وقال: «وكان قد ربّاه والده محمد بن يحيى، وأنشأه الشيخ محمد بن إبراهيم المتقدم ذكره... استنقذه الله من تلك الطائفة».^٢

تشير كلّ تلك الأخبار إلى أنّ المذهب الشيعيّ كان مدعوماً ومحميّاً من داخل المدينة المنورة نفسها بينما كان أهل السنة مدعومين من قبل المجاورين فقط.
وجدير بالذكر أنّ اليعمريّ اعتمد في تأليف كتابه: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور»

١ المصدر نفسه : ١٥٢ - ١٥٣ .

٢ . المصدر نفسه : ٢٨١ - ٢٨٢ .

ونقل الكثير من أخباره على كتاب آخر يُسمّى «ذيل الروضتين» لأبي شامة ولا سيّما فيما يخصّ تاريخ الأيوبيين، وأشار فيه إلى وصول الماليك إلى سدّة الحكم سنة (٦٥٨هـ) وما قاموا به من أعمال تتعلّق بإعادة وتجديد مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الحريق الذي أصابه، وذكر في ذلك بيتين من الشعر هما:

لم يحترق حرم النبي لحادث يخشى عليه ولا دهاه العار
لكنما أيدي الروافض لامست ذاك الجنب فطهرته النار
ثمّ تطرّق بعد ذلك إلى موضوع التتار والمغول وسقوط بغداد وتكرار قصّة ابن العلقميّ^١ وأمّا روايته التي تعود إلى قرابة مئة عام بعد سقوط بغداد فهي نفسها التي نُسبت إلى الشيعة مع مرور الوقت على حين أنّ تلك النظرة لم تكن موجودة أبداً في النصوص التي كُتبت في وقت الحادثة بل وحتى بعد مرور عقدين أو ثلاثة عليها، ثمّ إنّ اليعمرى لم يُشر إلى المصدر الذي استقى منه تلك الحادثة إلّا أنّ المُصحّح نسب ذلك إلى كتاب: «البداية والنهاية» لابن كثير الذي عاش بعد اليعمرى بمدة طويلة وبذلك لا يمكن أن يكون الكتاب المذكور هو المصدر الذي استند إليه اليعمرى. ومهما يكن من أمر فمن الواضح أنّ تلك القصّة موضوعة ومنسوبة إلى الشيعة ظلماً وجوراً لكنّها تمكّنت من السيطرة على أذهان أهل السنة بشكل ممنهج عبر التاريخ.

وبعد ذلك يعود المؤلّف مرّة أخرى إلى الحديث عن المدينة المنورة وأمّا الصفحات التي كتبها في بداية كتابه فكانت استطراداً وبياناً لحساسيّته تجاه الإمامية الذين كان يواجههم في المدينة ويدخل معهم في جدال ونقاش. والحقيقة أنّ اليعمرى ومتى أشار في أيّ موضع في كتابه المذكور إلى أهل البدع ومحاربتهم والتصديّ لهم كان يقصد بذلك الشيعة الإمامية. وفي أثناء ذكره للشخصيّات التي كانت موجودة في المدينة ممّن كانوا يحامون عن

١. المصدر نفسه : ٣١٣ - ٣١٥ .

المجاورين أو كانت لهم معهم علاقات وثيقة، قال اليعمري:
«وكان من أعظم الناس موالاة للمجاورين واختلاطاً بهم القاضي نجم الدين مهنا بن
سنان، كان هو القاضي في الحقيقة من بين سائر قرابته، وبه يناط الحلّ والعقد، وإليه ترجع
محاکمات الشيعة وأنكحتهم وعقودهم وغير ذلك». من الواضح أنّ الشيعة كان لهم قاضيهم
الخاصّ بهم في ذلك الزمان كما كان لكلّ واحدة من الفرق السنيّة قاضيهم الذي ينتمي إلى
مذهبهم (كالمالكية أو الشافعية أو الحنفية). وقد أسند مُحَقِّق الكتاب ما ورد فيه من
المعلومات عن مهنا بن سنان إلى: («الدرر الكامنة» ٤ : ٣٦٨ «١٠٠٣») و: («المغانم
المطابة» الورقة ٢٦٧ / أ) و: («التحفة اللطيفة»: شرح حال، العدد «٤٣٠٣»).

ثمّ يستأنف الكاتب كلامه قائلاً:

«وكان مع هذا يتحبّب إلى المجاورين ويمدحهم بالفضائل الحسنة ويستقصيهم
الحوائج، ويحضر مواعيدهم ومجالس الحديث، ولا يُصلي قطّ إلاّ في الروضة المشرفة، وكان
يستعمل التقيّة كثيراً»^١. «وكان إذا نسخ كتاباً ومَرَّ به ذكر أبي بكر وعمر، يترضى عليهم
بالخطّ تقيّة، وكان يحطّ على أصحابه من الفقهاء الإمامية ويتبرأ منهم، وله فيهم هجو
ظريف فمن ذلك قوله:». وقد وردت هذه الأبيات أيضاً في «المغانم المطابة ٣ : ١٣٠٦»،
وذكر سبعة عشر بيتاً من الشعر المذكور وله في ذلك نقد ولا سيّما على بعض هؤلاء الفقهاء
المدّعين:

وينسب نفسه للعلم حمقاً وعند الله فهو من الطّغام
وفيتي المسلمين بغير علم ويخبط خبط عشوى في الظلام...
وعلق بعد ذكر الأبيات قائلاً: «وكان لديه فضيلة وعربية وآداب، وحسن محاضرة.

١. المصدر نفسه : ٣٣١ .

توفي سنة أربع وخمسين وسبعمائة»^١.

كان ذلك شرح حال ابن مهنا العالم والقاضي الشيعيّ ذي النفوذ في المدينة في ذلك الوقت؛ فأما ما يتعلّق بما إذا كان ابن مهنا قد قال تلك الأبيات بشأن الفقهاء من أبناء مذهبه أو في آخرين غيرهم فلا يمكن الحكم فيه إلاّ بعد مراجعة أصل الأبيات ولا أعلم ما إذا كان قد ورد ذلك في مصدر آخر أم لا لأنّ تلك الأبيات تشير إلى موضوع شامل وعام. وأما الفصل التالي من كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» فيتعلّق بالتعريف ببعض القضاة وأئمة الجماعة والجمعة، فقد كتب اليعمرى قائلاً:

«فأول من أدركته من قضاتنا وأئمتنا الشيخ الإمام العلامة سراج الدين عمر بن أحمد الحضري بن ظافر بن طراد بن أبي الفتوح الأنصاري الخزرجي، كان - رحمه الله - فقيهاً مجيداً أصولياً نحويّاً متفتّناً في علوم جمّة... قدّم المدينة سنة اثنتين وثمانين وستمائة [من جانب السلطان المملوكيّ بالطّبع] متولياً للخطابة، وكانت الخطابة بأيدي آل سنان بن غيلة الشريف الحسيني، وكان الحكم أيضاً راجعاً إليهم، ولم يكن لأهل السنة خطيب ولا إمام ولا حاكم منهم، والظاهر أنّ ذلك منذ استولى العبيديون على مصر والحجاز، فإنّ الخطبة في المدينة كانت باسمهم».

وبعبارات مبهمّة وغامضة يشير اليعمرى بقوله: «فلما كان في سنة اثنتين وستين وستمائة، وقع في مصر قحط ووباء لم يُسمع في الدهور بمثله، وكاد الخراب يستولي على وادي مصر... واشتغل العبيديون بما أصابهم من ذلك، فحينئذ تغلّب الخلفاء العباسيون على الحجاز، وأقيمت الخطبة لهم من ذلك العهد إلى يومنا»^٢.

لاحظ كيف أقحم اليعمرى هذه العبارات وسط كلامه وحديثه عمّا آلت إليه حالة الخطابة في المدينة في زمن العبيديين وانتقالها إلى آل سنان بعدهم!

١. المصدر نفسه : ٣٣٢ - ٣٣٣ .

٢. المصدر نفسه : ٣٣٦ .

ثم يواصل اليعمرى كلامه قائلاً: «وكان أخذ الخطابة من آل سنان في سنة اثنتين وثمانين وستمائة، واستمروا حكماً على حالهم، وكان لأهل السنة إمام يصلي بهم الصلوات فقط، وكان السلطان يومئذ الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى، فأول خطيب خطب لأهل السنة القاضي سراج الدين، وكان السلطان بعد ذلك يبعث مع الحاج شخصاً يقيم لأهل السنة الخطابة والإمامة إلى نصف السنة، ثم يأتي غيره مع الرجبية إلى ينبع، ثم إلى المدينة، وكل من جاء لا يقدر على الإقامة نصف سنة إلا بكلفة ومشقة، لتسلط الإمامية من الأشراف وغيرهم عليه»^١.

وبعد سراج الدين عمر جاء خطيب آخر يُسمى شمس الدين الحلبي: «ثم من بعده شرف الدين السنجاري، ثم استقر سراج الدين المذكور خطيباً فخطب بالمدينة أربعين سنة، ثم سافر إلى مصر يتداوى فأدركه الموت بالسويس متوجهاً إلى مصر، وذلك في سنة ست وعشرين وسبعمائة».

«وأما الأئمة من أهل السنة فلم يزلوا بالمدينة قبل هذا التاريخ، وأدركت ذرية «المجد» إمام الحرم، كان معظماً عند الشرفاء محبباً إليهم، وقد ملك أملاكاً أصلهم من تمليك الشرفاء له كأثارب وغيرها... وكان منهم «النظام» له ذرية وكان لهم بالمدينة أملاك، وذكر أنهم أقاموا في منصبهم مستضعفين يجنيهم الشرفاء ويؤذونهم، فارتحلوا بأولادهم وتركوا أملاكهم. وكنت أسمع من كبار أهل المدينة أن الشرفاء بعثوا إليهم وأمنوهم على أن يرجعوا إلى المدينة، فلم يفعلوا حتى أخذت أملاكهم وتملكت. وبالمدينة موضع يسمى: «النظام» منسوباً إليهم، وكان موضع يقال له «الإمامية» منسوب إلى إمام المسجد الشريف».

ثم يستأنف اليعمرى حديثه قائلاً:

«فلما قرّر القاضي سراج الدين بالمدينة خطيباً فلطالما عملوا معه من القبائح والأذى

١. المصدر نفسه : ٣٣٦ .

ما لم يصبر عليه غيره فصبر واحتسب، وأدركت من أذاهم له أنهم كانوا يرمونه بالحصاء وهو يخطب على المنبر. فلما كثر ذلك منهم تقدّم الخدام وجلسوا بين يديه، فكان هذا هو السبب في إقامة صفّ الخدام يوم الجمعة قبالة الخطيب، وخلفهم غلمانهم وعبيدهم خدمة وحماية للقضاة، وتكثرراً للقلة ونصراً للشريعة. وكان يصيح باب بيته عليه مغلوقة، وفي بعض الأحيان يلطخونه بالنجاسة ويتبعونه بكلّ أذى وهو صابر، وربّما عذرهم لاحتراقهم على خروج منصب الخطابة من أيديهم بعد توارثهم له، فقد كان «سنان» قاضي المدينة، خطيبها للجمعة آنذاك، وكذلك أبوه عبد الوهاب بن يحيى، فيما يغلب على ظني^١.

ويُضيف البيهقي قائلاً:

«حكى لي الشريف سلطان بن نجاد أحد شيوخ الشرفاء الواحدة قال: أدركت القاضي شمس الدين سنان يخطب على المنبر ويذكر الصحابة ويترضّى عنهم، ثمّ يذهب إلى بيته فيكفر عن ذلك بكبش يذبحه ويتصدّق به، يفعل ذلك كلّ جمعة عقب الصلاة». ثمّ يذكر المؤلّف في كتابه خبراً عن «رحلة ابن جبير» وعدّد ذلك من غرائب التي رآها في رحلته فقال: «أنّه قدم المدينة زائراً مع الحاج، فحضر صلاة الجمعة وهم بالمدينة. قال: فطلع الخطيب وكان من الشرفاء الإمامية فخطب ثمّ جلس في أثناء الخطبة، وتقدم من عنده غلمانهم يطوفون على الناس ويأخذون منهم شيئاً للخطيب فجمعوا له شيئاً ثمّ جاؤوا به إليه فردّه، وقال: لا يكفي، فعادوا على الناس الرجال منهم والنساء فزادوهم فلم يقبل، والناس في ضيق من تأخير جمعهم. قال: ثمّ لم يزل كذلك حتى قرب وقت العصر فنزل وصلى^٢».

والغريب في الأمر أنّ سراج الدين المذكور كان قد تزوّج بنتاً من «القيشانيّة» وكان

١. المصدر نفسه : ٣٣٨ .

٢. المصدر نفسه : ٣٣٩ .

«القيشاني» رئيس الإمامية وفتيها. وكان المصحح قد نسب الرجل المذكور في هامشه إلى مدينة: «كاشان». ثم أضاف قائلاً: «حتى قيل: إن المدينة لم يكن بها من يعرف مذهب الإمامية حتى جاءها القيشانيون من العراق».^١

ويقول المؤلف:

«وذلك أنهم كانوا أهل مال عظيم، فصاروا يؤلفون ضعفة الناس بالمال ويعلمونهم قواعد مذهبهم، ولم يزالوا على ذلك حتى ظهر مذهبهم وكثر المشتغلون به، وعضده الأشراف في ذلك الزمان، ولم يكن لهم ضد، ولا في مصر ولا في الشام من يلتفت إليهم، لأن الملك العادل نور الدين الشهيد كان حاكماً على البلدين، لكن همه الجهاد ولا يستقر له قرار. ثم ولي بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فسار على طريقة الملك العادل وزاد عليه، وكان صاحب المدينة أبو فليته قاسم بن المهنا يحضر معه الفتوحات، وبلازمه في الغزوات، فلم يكن أحد يجسر على الكلام في الإمامية في ذلك الزمان. ولما صاهرهم السراج انكف عنه الأذى قليلاً، وصار يخطب ويصلي من غير حكم ولا أمر ولا نهي. وكان إذا عقد في البلد عقد نكاح بغير إذن علي بن سنان وأمره، طلب الفاعلين لذلك وعزهم وسلط عليهم الشرفاء».^٢

وقال كذلك:

«وكان المجاورون وأهل السنة إذا أرادوا عقد نكاح أو فصل حكومة على مذهبهم، يأتون والدي ليعقد لهم أو يصلح بينهم. فيقول لهم: لا أفعل حتى يأتيني كتاب ابن سنان، فيذهبوا إلى علي بن سنان فيعطونه ما جرت به عادته، فيكتب لهم إلى والدي ما صورته: (يا أبا عبد الله اعقد نكاح فلان على فلانة)، أو (اصلح بين فلان وفلان). ولم يزل الأمر

١. المصدر نفسه : ٣٣٩ .

٢. المصدر نفسه : ٣٤٠ .

على ذلك حتى كانت أيام شيخ الخدام الحريري، وقد تقدم ذكرها وتاريخها، فكثرت المجاورون وسألوا الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يكون لأهل السنّة حاكم يحكم بينهم، ويحملهم على مذهبهم، فجاء تقليد بذلك للقاضي سراج الدين وجاءته على ذلك خلعة وألف درهم، وكان فيه معرفة ومداراة. فقال: أنا لا أتولى حتى يحضر الأمير منصور بن جماز، فأحضره. فقال له السراج: قد جاءني من السلطان مرسوم بكذا، وأنا لا أقبل حتى تكون أنت المولي لي، فإنك إن لم تكن معي لم يتمّ أمري ولا ينفذ حكمي. فقال له: قد رضيت، وأذنت فاحكم ولا تغير شيئاً من أحكامنا ولا حكامنا. فاستمر الحال على ذلك يحكم بين المجاورين وأهل السنّة.^١

ثمّ يُضيف اليعمريّ قائلاً:

«وآل سنان يحكمون في بلادهم على جماعتهم وعلى من دعى إليهم من أهل السنّة، فلا يقدر أحد على الكلام في ذلك والتقدم في الأمور لهم، وأمر الحبس راجع إليهم، والأعوان تختص بهم، والإسجالات تثبت عليهم، والسراج يستعين بأعوانهم وبحبسهم. استمر ذلك الحال مدة السراج حتى مات، وكان السراج — رحمه الله — يواسي الضعفاء ويتفقد الأراامل والأيتام بهره وزكاته، ويقصدهم في بيوتهم بنفسه، وكان لا يرد من سألته قرضاً، بل يأخذ منه ويعطيه ما أراد، وكان قبل ولايته الحكم طوعاً للناس الذين عاصروه من أهل الصلاح». وهنا يقدم اليعمريّ شرحاً حول الخدمات التي قام بها السراج لكتّاه يشير بقوله: «فلما ولي الحكم تنكرت عليهم أخلاقه، وصار يرمي عليهم كلمات يغيظهم بها وإن لم يكن تحتها طائل، فنفرت نفوسهم منه، وتفرقوا عنه». ويُعدّ جمال الدين المطري صاحب كتاب التعريف الذي يُعتبر من أهمّ المصادر التاريخية للمدينة، وهو كذلك شيخ اليعمريّ الذي نقل عنه الكثير من الأخبار [تلميذاً للسراج]. وهكذا يستمرّ اليعمريّ بذكر

١. المصدر نفسه : ٣٤١.

أسماء بعض الشخصيات وتقديم شرح وافٍ عن سيرتهم.^١

يقول اليعمرى: «وكان في أيامه رجل إمامي من حلب، وكان يسكن في «دار تميم الداري»، له ثروة و رئاسة، فكان يجلس السراج على طريقه عند باب الرحمة ، فإذا دنا منه يقول له: «**نَاصِيَّةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ**».^٢ هكذا أبداً وهو لا يجاوبه ولا يعيد الكلام له. حتى انتقم الله له منه، وذلك أنه كانت له جارية كائنه تقم عليها شيئاً فعاقبها حتى قتلها، فبلغ ذلك الأمير منصور فمسكه ودخل بيته وأخذ منه ألف دينار».^٣

ثم ذكر المؤلف عدداً من الخطباء الذين تلو السراج في الخطابة والصلاة ومنهم يعقوب بن جمال القرشي وبهاء الدين بن سلامة المصري الذي توفي سنة (٧٤٥هـ) ثم ولي بعده شرف الدين أبو الفتح محمد بن القاضي عز الدين أبي عبد الله محمد.^٤

ويصف اليعمرى شرف الدين المذكور بأنه كان «فقيهاً فروعياً حافظاً للمذهب» وتلك مقدمة لشرح ما قام به فيما بعد ضد الإمامية، ومن ذلك قوله:

«وكان في القاضي شرف الدين شدة على الأشراف، وكان له هيبة عظيمة سقاهاهم المرّ وأذاقهم الصبر، وأما سطوته على الإمامية وتوبيخه لهم في المحافل وسبهم على المنبر، فأمر مشهور لا يحتاج إلى وصف، ولا تكاد السنين تبديد ذكره. وكان إذا قام في الأمر لا يرجع عنه ولو خوفاً في عاقبته، وكان متمسكاً بالسنة يتبع أشدها ويحمل نفسه على أشقها... وهو الذي أبطل صلاة النصف من شعبان، وكان تبطيلها عزيزاً على النفوس فقد اعتادوا صلاتها، ومبتدعات كانت معها منها: زينة المسجد الشريف، وكثرة الوقيد، وكثرة النساء واختلاطهم بالرجال، والصياح من الصغير والكبير حتى لا يبقى للحرم حرمة ولا يملكه

١. المصدر نفسه : ٣٤٢ - ٣٤٤ .

٢. سورة العلق : ١٦ .

٣. نصيحة المشاور و تعزية المجاور: ٣٤٥ .

٤. المصدر نفسه : ٣٤٧ .

القوم. وكان له غيرة على أهل السنّة وإن علم من كثير منهم الكراهة له، فيسدّد أحوالهم ويقيم حرمتهم عند أمير المدينة ويجاهد بنفسه في حقهم»^١.

وله كتاب اسمه: «الجواهر السنّية في الخطب السنّية»، والظاهر أن إطلاق اسم «الخطب السنّية» في عنوان هذا الكتاب يشير إلى وجود وضع خاص للمجادلة في ذهنه بينه وبين المجتمع. قلّ أن يخلو منها خطبة إلاّ وفيها ذكر البدعة وأهلها، وتوبيخهم لما هم عليه. ويستأنف المؤلّف كلامه قائلاً:

«ونزل مرّة من على المنبر لضرب رجل من الإمامية كان يتنفّل زيادة على تحية المسجد، ويؤدّي ظهر الجمعة أربعاً في أثناء ذلك التّنفل، لأنّهم لا يعتقدون إقامة الجمعة إلاّ خلف إمام معصوم، وهذا كان عادتهم معه ومع غيره، فنهاهم عن ذلك فانتهوا إلاّ من قوي تشيعه وتعصبه، فكان يصيح عليهم وهو على المنبر ويأمر بجرّهم إلى عنده فيضربهم. وكان الإمامية يصلّون صلاة العيد في المسجد الذي في المصلّى المنسوب بزعمهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فمنعهم من الصلاة فيه، وألزمهم بالدخول مع أهل السنّة في المسجد الموجود اليوم»^٢.

تشير عبارات اليعمرى بوضوح إلى أمور دقيقة ومهمّة حول عقيدة الإمامية بشأن صلاة الجمعة وينقل صراحة أنّهم كانوا يعتقدون عدم جواز إقامة الجمعة إلاّ خلف إمام معصوم. وكلّنا يعلم أنه في العهد الصفويّ حدث الكثير من الاختلاف في الرأى حول العبارات الفقهيّة المنقولة عن القرن السابع والثامن الهجريّين وكذلك حول ما كانوا يعتقدونه بشأن إقامة صلاة الجمعة. وأمّا النقطة الأخرى في عبارات اليعمرى فهي السلوك القبيح والتصرّف المشين الذي كان الخطيب السنّي المذكور يمارسه مع الشيعة آنذاك ولا شكّ في أنّ سلوكه هذا كان مدعوماً بحماية السلطان المملوكي.

١. المصدر نفسه : ٣٤٩ .

٢. المصدر نفسه : ٣٤٩ .

هذا، ويضيف اليعمرى قائلاً:

«وكان الإمامية يصلون صلاة العيد في المسجد الذي في المصلى المنسوب بزعمهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فمنعهم من الصلاة فيه، وألزمهم بالدخول مع أهل السنة في المسجد الموجود اليوم، وذلك في يوم عيد الأضحى من سنة ست وثلاثين وسبعمئة. وكان عليهم سيفاً لا يُعتمد، لكنّه لم يتعرّض لحكامهم، فكانوا في أيامه على عادتهم مع السراج، وكان يحبس في حبسهم ويستعين بغلمان الوالي، وكان حبس المدينة واحداً يجلس فيه الأمير والقاضي، وهو الموجود اليوم في ساحة القلعة. كان لي معه - أعني القاضي شرف الدين - مقامات سوء لا يحسن ذكرها هنا، لأنّها مبنية على حظوظ نفوس الحسدة الذين كانوا حوله، حتى إني وصلت أنا وهو إلى الملك الناصر لما حجّ حجّته الثالثة سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة، فأمره السلطان أن لا يتعرّض لي وأن ينصفني من نفسه، ووصّى صاحب المدينة بمراعاتي والنظر في الأحوال التي أشكوها منه، فلم يفد فيه ذلك»^١.

«توفي القاضي شرف الدين رحمه الله بالمدينة ودُفن شامي قبة سيّدنا عثمان وذلك في سنة خمس وأربعين وسبعمئة. ثمّ وُلّي بعده الحكم والخطابة والإمامة الشيخ الإمام العلامة تقي الدين عبد الرحمن بن جمال الدين بن عبد المؤمن بن أسيد بن عبد الملك الهوريني الشافعي المصري، قدم المدينة في ذي الحجة آخر سنة خمس وأربعين».

ثمّ قال اليعمرى:

«وفي تلك السنة استنابني في الحكم عنه فسلكت مع الناس سبيل السياسة وسدّدت الأحكام، وجريت على الصلح بين الخصوم، فمال إليّ أهل المدينة، ورأوا أني لا آخذ منهم شيئاً في حكم ولا إثبات، ولا وراقة، بل ربما أعطي من عندي من أتحقّق ضرورته من الغرماء، فأحبّني أهل البلد ومالوا عن «قضاة الإمامية» واعتزلوهم وتركوا المحاكمة عندهم،

١. المصدر نفسه : ٣٥٠.

حتى إنَّ القاضي حسن بن علي بن سنان الملقب عزيز، صار يجلس على باب زقاقنا فإذا رأى الخصمين دعاهما إليه فلا يلتفتان إليه، لأنَّهم كانوا إذا حكموا ألحقوا المحكوم له رسولاً أو ورقة يطلبون منه شيئاً، وإن كتبوا ورقة طلبوا عليها أجراً، ويقبلون من الشهود من كان من رعا ع الناس. وبلغني أنَّهم اجتمعوا بالأمر طفيل وشكوا عليه ما يلقون مني، فقال لهم: إذا سكت عنكم وعن أحكامكم فلا تطلبوا منه غير ذلك. وقال لي القاضي نجم الدين مهنا بن سنان - وكان أعلمهم وأرأسهم: قطعت رزقنا يا فلان»^١.

ثمَّ يُضيف اليعمرى قائلاً :

«ولم أزل معهم كذلك حتى خمل ذكرهم، وماتوا أحياء، ولم يبق لهم في البلد أمر ولا نهى إلاَّ في الشيء التافه والأمر النادر».

وقال أيضاً :

«ولقد أدركت من حكاهم فوق عشرة من آل سنان ومن الصفيان الذين كانوا عند رباط المعين كلَّهم يحكم ويفصل الخصومة، إلاَّ أنَّ الحكم كان له إذا حكم عليه القاضي من آل سنان أو يقول: ارفعني إلى الفقيه فيرفعه ولا يراجعه، وكان الفقيه علي يصلح ويسدد من غير أن يتطلع لشيء بخلاف القضاة يومئذ، ثمَّ لم يزل أمرهم يتقاصر، وعددهم يقل، حتى مات كبارهم. ثمَّ إنَّ الفقيه الهوريني كفَّ بصره في أثناء تلك السنة بسبب ماء نزل في عينيه، فسافر إلى مصر مع الحاج ليقده عينيه ويعود إلى المدينة، واستمرت نائباً عنه في سنة سبع وأربعين، وشدَّدت على الإمامية في نكاح المتعة ونكلت بفاعلها، وحملت الناس على مذهب مالك، وأحملت البدعة وأظهرت السنَّة»^٢.

١. المصدر نفسه : ٣٥٤.

٢. المصدر نفسه : ٣٥٥.

وقال كذلك:

«ثم وُلِّي الحكم والخطابة والإمامة القاضي الأجل الخطيب المصقع، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن زكي الدين عبد المعطي بن سالم بن عبد العظيم بن محمد الكناني المصري الشافعي العسقلاني المحتد - المعروف بابن السبع - ... وكانت ولايته وولاية الأمير سعد في سنة واحدة، وهي سنة خمسين وسبعمئة. ولما استقر الأمير سعد في المدينة، بدأ بمنع آل سنان وغيرهم من التعرض للأحكام وعقد الأنكحة وغيرها، وردّ الأمر جميعه لأهل السنة تقريباً إلى قلوب السلطنة بإظهار السنة وأهلها، وإخمال البدعة وأهلها. وأمر بالنداء بالمدينة في يوم الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة أحد شهور سنة خمسين وسبعمئة: أن لا يحكم في المدينة مع القاضي شمس الدين غير فلان، ومن تعرض ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فمن يومئذ انقطع أمرهم ونهيمهم بالكلية، وظهر علم أهل السنة»^١.

ثم يستطرد اليعمري قائلاً:

«ولما تمّ الأمر لأهل السنة وانقطع دابر القوم، وقع بينهم افتراق الكلمة وطهرت من الفتنة»^٢. «ولما رأيتهم على هذا الحال، وقد كثر بينهم القيل والقال، لزمْتُ بيتي رغبة في السلامة».

ومهما يكن من أمر فإنّ الواضح أنّ السلطة المملوكية كان لها الأثر الفعّال في تقليص قدرة الشيعة وتحديد نفوذهم في المدينة، والظاهر كذلك أنّ المماليك كانوا قد وضعوا خطة طويلة الأمد لتنفيذ مآربهم. والحقيقة أنّ موضوع حذف التشييع والقضاء على الشيعة في كلّ مكان كان جزءاً من السياسة الدينية للسلطين المماليك - بدءاً من حلب وانتهاءً ببلبنان ومن هناك إلى المدينة ومكة بل وكانوا ينوون القضاء على التشييع حتى في مصر نفسها -

١. المصدر نفسه : ٣٥٩ .

٢. المصدر نفسه : ٣٥٩ .

فلقد كان لهذا الأمر هدفٌ سياسيٌ فضلاً عن الهدف الديني المعروف، لأنَّ المماليك - على أيِّ حال - كانوا يتخوَّفون من استيلاء الشيعة على سلطانهم وتولِّي الأمور في بلدانهم. وهكذا، يمكننا وضع رسالة بحثية مستقلة بشأن المسار الإعلامي والتبليغي المضاد للشيعة في عهد المماليك.

وبعد ذلك يقول اليعمري:

«ثمَّ كشف الحال أنَّهم جماعة الأمير جهاز بن منصور قدم المدينة متولياً لها بمرسوم السلطان، ومعه القاضي تقي الدين الهوريني متولياً... فحاول الأمير جهاز رجوع الإمامية إلى ما كانوا عليه، وأذن ليوسف الشريشير أن يحكم بين الغرماء، وظهرت كلمتهم، وارتفعت رايته». ^١ «وأظهر الأمير لي وللمجاورين الجفاء والغلظة في الكلام، فسافر الناس في أثناء السنة إلى مصر وتحذثوا بذلك فبلغ السلطان فاغتاظ لذلك، وبلغه أيضاً ما جرى للشيخ ضياء الدين الهندي من الضرر في القلعة... فلمَّا كان في أول سنة ستين وسبعمئة توفي القاضي تقي الدين إلى رحمة الله تعالى... فوُلِّي المنصب الشريف الشيخ الإمام العلامة المتفنن تاج الدين محمد بن عثمان الكركي... وجاء إلى المدينة بأخلاق رضية، ونفس زكية». ^٢

وهنا يذكر اليعمري أنَّ ثمة اختلافات وقعت بين الكركي وبعض الخدام بقوله: «ثمَّ سعوا بينه وبين الخدام فأفسدوا ما بينه وبينهم من الألفة والمحبة... فأفسدوا عقيدته في أصحابه، وكان رجلاً متخيلاً... فاستحكم الفساد، وصارت آراؤه تصدر عن مشاورة الشبان، وبدت منه أشياء لا تليق بعقله وحسن سياسته، ونفر عنه أكثر المجاورين والخدام، ومالت عنه قلوبهم واجتمعت كلمتهم على غيره» ثمَّ أشار اليعمري إلى أنَّ الأمر قد بلغ

١. المصدر نفسه : ٣٦٥ .

٢. المصدر نفسه : ٣٦٥ - ٣٦٦ .

عزله هو شخصياً عن منصبه. «وكان قد عزلني عن نيابته في الأحكام»^١.
«وولي المنصب الشريف الشيخ الإمام العلامة جامع أشتات الفضائل، شمس الدين محمد بن سليمان الشهير الحكري المصري الشافعي، وصل المدينة المشرفة في ذي الحجة سنة ست وستين وسبعمئة»^٢.
ويبدو أن الحكري هو آخر شخصية احتلت المنصب المذكور بحسب ما ذكره اليعمري في كتابه: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» وذلك لوفاته هو بعد ثلاث سنين من تأليف الكتاب المذكور. وفي الفصل التالي تناول اليعمري شرح حال بعض الأمراء الذين شهدهم وعاشرهم، فيقول:
«فأول من أدركته من الأمراء الأمير عز الدين حماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن حسين بن جعفر بن حسين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن فاطمة الزهراء البتول وعن ذريتهما الطيبة الطاهرة، وحشرنا في زمرتهم، ونفعنا بمحبتهم»^٣.
ثم يقدم اليعمري شرحاً عن حال صلاح الدين الأيوبي في أثناء ذكره لحكام المدينة القدماء ومنهم الأمير قاسم بن مهنا وكيف أن هذا الأخير كان قد صحب صلاح الدين في كل غزواته وفتوحاته وتأسيسه به، ويبدو أن المصدر الرئيس الذي استقى اليعمري منه معلوماته هو كتاب: «الروضتين»^٤.
وبعد ذلك يقر اليعمري بلسانه قائلاً: «وقد خرجتُ بذكر هذين الملكين عن المقصود الذي أردناه لكن لمصلحة عظيمة»، ومع ذلك فقد خرج ثانية عن موضوع الكتاب

١. المصدر نفسه : ٣٦٨ .

٢. المصدر نفسه : ٣٦٩ .

٣. المصدر نفسه : ٣٧٠ .

٤. المصدر نفسه : ٣٧٢ - ٣٧٣ .

وبدأ يتحدث عن الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور الأصبهاني والجهود التي بذلها في بناء السور حول المدينة ليمنع عنها غارات الأعراب والبدو.^١

ومن خلال بيانه لفضائل الملك العادل شرع اليعمري بالحديث عن الأيوبيين وكيف أنهم استطاعوا الوقوف بوجه البدع في ذلك الوقت، قائلاً: «وأخرج الروافض من حلب وأعمالها، وشئت شملهم»، ثم يستمر اليعمري بذكر تلك الترهات التي دوّنها المؤرخون التابعون لبلاط الأيوبيين والمُشتغلين لحسابها، وأشار في أثناء ذلك إلى قيام الدولة الفاطمية وقال: «وقيل: كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حدّاداً، فلمّا دخل المغرب تسمّى بعبيد الله، وزعم أنّه فاطمي، وادّعى نسباً غير صحيح».^٢

ويستأنف المؤلّف عباراته المنكرة وتكراره المملّ وكلّها وليدة الخرافات والخزعبلات التي اصطنعها مُخالفو العباسيين والأيوبيين ضدّ الدولة الفاطمية وراحوا يروّجون لها في الأصقاع فكانت مائدة دسمة للمؤرّخين الذين لا يهتمّون سوى بنسخ المطالب وكتابة الموضوعات دون تروّ ولا تدبّر. يقول اليعمري: «وبقي هذا البلاء على الإسلام من أوّل دولتهم إلى آخرها ... وفي أيامهم كثرت الروافض واستحكم أمرهم»، ثمّ يذكر فهرستاً بأسماء الخلفاء الفاطميين الأربعة عشر بقوله: «... هو المهدي ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وحجّة الله، ويقولون لطائفة أجهل من هؤلاء: هو الله الخالق الرازق».^٣

ثمّ أشار إلى بعض المطالب بشأن القرامطة والحكّام الإسماعيليين وغير ذلك.^٤ وكلّها موارد مكرّرة في كتابه؛ ثمّ ذكر الجهود التي بذلها صلاح الدين للقضاء على الدولة الفاطمية (إلى صفحة: ٣٨٨). وأمّا آخر ما أشار إليه اليعمري في هذا الصّد فهو قوله:

١. المصدر نفسه : ٣٧٥ .

٢. المصدر نفسه : ٣٨١ .

٣. المصدر نفسه : ٣٨٣ .

٤. المصدر نفسه : ٣٨٤ - ٣٨٥ .

«واتَّفَق في سنة سبع عشرة وسبعمائة أن خرجت طائفة من النصيرية القائلين بقول العبيدين، القائلين بقولهم في بلاد الشام، وكان أكثر أتباع العبيدين القائلين بقولهم ظاهراً وباطناً في ثغور الشام، فخرجت هذه الجماعة النصيرية عن الطاعة وأقاموا شخصاً ادعوا أنه المهدي، وقاتلوا الناس، وادعوا أن المسلمين كفرة وأن دين النصيرية هو الحق، ورفعوا أصواتهم بقول: لا إله إلاّ علي، ولا حجاب إلاّ محمد. وبسبّ أبي بكر وعمر، وخربوا المساجد، وجعلوها خُمّارات، فخرج عليهم عسكر المسلمين فكسروهم، وقتلوا منهم جماعة واضمحل أمرهم، ومزقهم الله كل ممزق»^١.

من الواضح أن أدب هذا التقرير وهذا النوع من الإخبار قائم على أساس نشر الأكاذيب وتوجيه التُّهم ويمكننا ملاحظة ذلك حتى في وقتنا هذا في مثل هذه المصنّفات. في الحقيقة، وكما أسلفنا قبل هذا فإن ترتيب موضوعات كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» وتنظيمها بالشكل المذكور يهدف إلى تشويه سمعة الشيعة والتشيع ولا سيما مذهبي الإمامية والإسماعيلية، وإن بدا هدف المؤلف بيان تاريخ المدينة على أساس ساكنيها من المجاورين والخدم والدفّاع عن هاتين الطبقتين. فقد عاد اليعمري من جديد وبدأ باستقصاء سيرة قاسم ابن مهنا بعد عشرات الصفحات من البحوث المتفرقة والقضايا المتشعبة، ليقدم شرحاً مفصلاً عن إمارة هذا الرجل وأعماله.^٢

وهكذا يستمرّ اليعمري في تقريره في شرح حال أمراء المدينة حتى عام (٧٦٠هـ) لينتهي هذا الفصل في الصفحة رقم (٤١٧) من كتابه، ثمّ يذكر سيرة الحاكم عطية بن جمار الذي يدعو له الكاتب ويمدحه بشدة.

وقد أفرد اليعمري الفصل الأخير من تاريخ أسرته لشرح حال والده وأخيه وأغلب حديثه يدور حول توارث العلم في أسرته والمؤلفات وبعض المسائل الأسرية الأخرى. ثمّ

١. المصدر نفسه : ٣٩٣ .

٢. المصدر نفسه : ٣٩٤ .

تحدّث اليعمرىّ بالمشاكل التي واجهته سنة (٧٦٣هـ) وكذلك تعرّضه للقتل،^١ وفي ذلك يذكر قصيدة طويلة ادّعى أنّها شكوى يرفعها لرسول الله (ﷺ) وبيان فضائل المدينة المنورة.^٢ وله قصيدة أخرى كذلك في شأن المدينة يشير فيها إلى الكثير من الأماكن التاريخية والدينية.^٣ وتشير آخر العبارات الواردة في كتابه إلى أنّه انتهى من تأليفه الكتاب سنة (٧٦٧هـ).^٤

وكان عبد الله بن محمّد بن فرحون اليعمرىّ قد وُلد سنة (٦٩٣هـ) وتوفّي سنة (٧٦٩هـ) أي بعد سنتين على انتهائه من تأليف كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور».

استنتاج...

يُعدّ اليعمرىّ لسان حال طائفة المجاورين في المدينة والمدافع عن مذهب أهل السنة، ووفق المعلومات التي قدّمها فإنّ الشخصيات التي كانت تحكم المدينة وذات النفوذ فيها كانوا ينتمون إلى مذهب الإمامية، إلّا أنّ ذلك لا يعني موافقة جميع المقيمين لهذا الرأي وإن كان المذهب المذكور هو السائد في المدينة وهو المعنيّ بتولّي أمر الخطابة والقضاء. وفي تلك الفترة لم تُخف دولة المماليك - التي استنفرت كلّ قواها للقضاء على الشيعة في الشام كلّها - قلقها واهتمامها بالمدينة المنورة فقامت بإرسال الخطباء والقضاة إليها، ويقدم لنا اليعمرىّ في كتابه: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» تقريراً وافياً حول محاربة المماليك للتشيع وإقصاء الشيعة وتشيتيتهم، مع تأكيد اليعمرىّ نفسه على أنّ الأشراف في المدينة كانوا يزودون عن الشيعة ويحامون عنهم إلّا أنّ الضغط الذي مارسه المماليك عليهم أدّى إلى تقليص تلك الحماية عن

١. المصدر نفسه : ٤٣٣ .

٢. المصدر نفسه : ٤٣٣ - ٤٣٦ .

٣. المصدر نفسه : ٤٣٧ - ٤٤٢ .

٤. المصدر نفسه : ٤٤٣ .

معلومات حول نفوذ الشيعة ...

الشيعة. ولا شكّ في أنّ النشاطات والأعمال التي كان المماليك يقومون بها كان لها الأثر الأكبر في إيذاء الشيعة في المدينة وتعريضهم للتنكيل وهو ما بيّنه اليعمريّ بالتفصيل في كتابه المذكور.





الحجّ ومكة المكرمة

في كتابات المكيين (٢)

أ. حسين محمد بافقيه / أ.د. أبوبكر أحمد باقادر

... و كانت الاستجابة لنداء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي
بُؤَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي
إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^١

بداية التدافع البشري نحو مكة المكرمة، بقصد الحج وحده، وبقصد الحصول على
منافع اقتصادية وثقافية واجتماعية، وهو ما لا يتعارض مع المفهوم العميق للحج، المتحدّد

١. سورة إبراهيم : ٣٧ .

في قوله تعالى: ﴿وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَامِرَ الْفُقَرَاءِ﴾^١.

ما أدّى إلى أن يضايق هؤلاء القادمون إلى الأماكن المقدسة أهل مكة في رزقهم و معيشتهم، ببقائهم بعد الحج، بهدف الانتفاع من حركة البيع و الشراء في مكة المكرمة، فاضطر عمر بن الخطاب أن يقف، بعد انتهاء الموسم، منادياً «يا أهل الشام شامكم، و يا أهل اليمن يمنكم»، و «ذلك لئلا يكثر المجاورون فيستأثروا بما لهم من الثروة بأرزاق أهل مكة فيضيّقوا...»^٢.

غير أن هذا الإجراء الذي استنّه الخليفة الثاني لم يكتب له الاستمرار في التاريخ، لأسباب؛ منها ما جاء في الأثر من فضل المجاورة في مكة المكرمة، و اشتداد الأزمات التي حاقت بالعالم الإسلامي، بسبب الحروب و الفتن، فكان الحرمان الشريفان - وبخاصة مكة المكرمة - ملاذاً للناجين بأنفسهم من الهلاك، و طلباً للأمن و اللياذ به، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾؛ و بناء عددٍ من السلاطين و الولاة و الأثرياء أربطة و مدارس خاصة بأبناء جلدتهم من فقراء الحجاج، الذين يجدون أنفسهم، بعد حين من الدهر، قد استوطنوا الديار المقدسة؛ فضلاً عن شرف مجاورة البيت الحرام، الذي كان مطمح جيلٍ من العلماء و الأدباء الذين لم يكن لهم من مطمع و مطمح سوى أن ينادوا بـ «جار الله»!

و أدّى هذا التدافع البشري المستمر على مكة المكرمة، أن غدت مدينة بامتياز، وذلك لعدّ المدينة - أيّ مدينة في العالم - مجتمعاً من الغرباء، يحافظ على وجوده، في الوقت الذي يحفظ فيه استقلال الآخرين، ما يؤدّي في النهاية، إلى أن تغدوا تلك المدن، نموذجاً

١. سورة الحج: ٢٧- ٢٨ .

٢. العامودي، محمد سعيد، من تاريخنا، الدار السعدية، جدة : ١٧٩؛ الراددي، عائض، الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري، ط ١ جدة: مكتبة المدني، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، : ٨٦ .

للتعاش السكّاني، و التثاقف المستمر. فمكة المكرمة - كما رآها محمد ليبس البتنوني - «يجدر بها أن تسمّى بالمرعز الإسلامي»،^١ لكثرة الأزياء، و تعدّد الأجناس فيها في أثناء موسم الحج، ومن ذلك الانصهار العرقي، و الامتزاج السكّاني، غدا أهل مكة المكرمة - كما يرصد البتنوني - «خليطاً في خُلُقهم، خليطاً في خُلُقهم: فتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم وداعة الأناضولي، وعظمة التركي، واستكانة الجاوي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وصلابة الشركسي، وسكون الصيني، وحدة المغربي، وبساطة الهندي، ومكر اليمني، وحركة السوري، وكسل الزنجي، ولون الحبشي، بل تراهم جمعوا بين رفعة الحضارة و قشف البداوة: فبينما ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك، و ضعته بين يديك، إذ هو قد استوحش منك وأغلظ في كلامه، حتى كأنّ طبيعة البداوة تغلّبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه في حضرتك».^٢

والذي يسترعي الانتباه في هذا التدافع البشري في مكة المكرمة، موقف المكّيين من الآخر، القادم إلى ديارهم، بقصد الحج والعمرة، أو بقصد المجاورة، فمكة المكرمة تتكوّن من نسيج فسيفسائي بشريّ، تشكّل عبر العصور في هذه الملامح المكيّة المؤتلفة، على الرغم من انبثاقها من عناصر مختلفة، ولكنّها تصبّ في نهاية الأمر في شخصية مكة المكرمة وعبقرية المكان فيها.

فعامة أهل مكة المكرمة، في نظر عددٍ من الرحالة، وبخاصة البتنوني ورفعت باشا، مجموعة من الأغراب،^٣ ولذا فإنهم ينظرون إلى أهل مكة المكرمة، بحسب أصولهم، دون أن يتنبّهوا إلى الطبيعة الفسيفسائية التي جعلت المكّيين أنفسهم يتجاوزونها؛ فمكة المكرمة - يقول محمد عمر رفيع - : «أشبه بباقة من الزهر، فيها من كلّ نوع ولون وردة، ويتفاضلون

١. الرحلة الحجازية، الطائف، ط ٣ (مكتبة المعارف، دت)، : ٤٠ .

٢. السابق : ٤٢ .

٣. البتنوني، الرحلة الحجازية: ٤٠ ، ٤١؛ رفعت باشا، إبراهيم، مرآة الحرمين، (دن، د.م، دت)، ١: ٢٠١.

ويتمايزون فيما بينهم بالعراقة في الهجرة، وإيغالها في القدم، فمن كانوا أعرق إقامة، عدوا أنفسهم هم أهل مكة، ونبذوا حديث الهجرة، ووصفوه بأنه آفاقي...^١.

ومع سرعة خلع صفة المكيّة على من حلّ بمكة واستوطن بها أو جاورها؛ فإنّ مقولة «يا غريب بلادك»! ظلّت ملازمة لأهل مكة المكرمة، ومنطقة الحرمين الشريفين، بصورة عامّة. ومن ذلك تذرّ محمد كبريت المدني - في القرن الحادي عشر الهجري - من كثرة الوافدين على المدينة المنورة، وإيثارها إياهم على أهلها،^٢ لتصبح هذه المقولة عالقة في ذهن أهل مكة، وبخاصة حينما تشتدّ السنّة، بسبب الجفاف وشحّ إقبال الحجاج، فلا تكفي الجراية التي يفرضها السلطان العثمانيّ لأهل مكة، لأنّ المجاورين و الآفاقيين يزحمون المكيّين، حتى في الصدقات التي ترد إليهم.

فلا غرو أن يلهج المكيّون بتلك المقولة، وبرصيفتها «شور الأمانة لا تبات الليلة»،^٣ و كأنّ القانون غير المدوّن لدى المكيين، هو أننا نحبّ الأعراب، ولكن شريطة أن لا يستقروا في ديارنا!

وتتأكد علاقة المواطنّة والانتساب إلى مكة المكرمة، فضلاً عن تقديم خدمات الحجّ لحجّاج بيت الله الحرام، في حساسيّة المكيّين في أن يطلق على أحدٍ منهم لقب «حاج»! إذا قام بأداء هذه الفريضة، هذا اللقب الذي يحرص على التحلّي به كثيرٌ ممن حجّ البيت الحرام؛^٤ وذلك لكون هذا اللقب يحمل بعض دلالات الغريب، والطارئ على البلاد، إضافة

١. المرجع السابق : ١٨، ١٩ .

٢. الردادي، عائض، المرجع السابق ١ : ٨٧ .

٣. الكردي، محمد طاهر، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، مكة المكرمة (مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م)، ٥ : ١٩٩ نقلاً عن مخطوطة إفادة الأنام لعبد الله الغزي المكي.

٤. هرخرونيه، سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، (نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م)، ٤٠٨، البتنوني، المرجع السابق : ٣١٠، ٣١١.

إلى ما يحمله هذا اللقب، في سياقه التداولي الشعبي، من معاني الغفلة والسذاجة التي عادة ما يتحلّى بها الحاج، لذا فإنّ المكي حينما يفصل صاحب المتجر، يؤكد عدم سذاجته وغفلته وإمكان خداعه، بقوله: «أتظنّني حاجاً!» وهذا مغاير للدلالات التكريمية التي تدور في حقل مفردة «حاج» في عدد من الدول الإسلامية، والتي تعدّ مطمحاً لحجاج تلك الديار! «لذا كان ولا يزال لقب الحاجّ عند سواد المسلمين أشرف الألقاب التي يتحلّى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى، وهو يدلّ على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبّان، فإذا قيل لواحد منهم يا حاج فلان يعني يا أيها الشهم الشجاع، أمّا إذا لقبت به الشيوخ والكهول فإنما يكون ذلك إشارة لكمال يقينهم ومتانة دينهم الذي تحمّلوا في طريقه الأهوال التي تشيب منها الأطفال». ^١ بل كان المستعمر الهولنديّ في إندونيسيا يفرق من لقب «حاج» الذي يفاخر به الحاج الجاوا - آنذاك - ويساوي بين هذا اللقب وكلمة «عالم» في المخيال الرمزي الإسلامي، حتى لو كان ذلك الحاج لا يفقه كثيراً من أمور الدين! ^٢

هياً الحج بوصفه جماع الحياة في مكة المكرمة كونها «ملتقى الغرباء»، وأثر هذا الملتقى في الثقافة الاجتماعي والفكري، والتبادل الاقتصادي والتجاري... ومركز التقاء شرق العالم الإسلامي بغربه، بدءاً من عدّ هذه المدينة المقدّسة النادي السنوي لالتقاء علماء الأُمّة الذين قد لا تتاح لهم الفرصة للالتقاء بسوى هذه المدينة، «فكم من عالم تشوّق لرؤية عالم آخر وحال دون مُنيته بعد الشقّة حتى إذا ما قدم الحجاز تحقق له أمله، وكم من عالم آخر في الحجاز وفّر عليه مقامه فيه مشقّة الرحيل إلى أحد الأقطار الإسلامية للأخذ عن عالم سرت بخبر علمه الركبان»، ^٣ وقد غدت فضيلة كتابية أن يولع الرحالة القادمون إلى

١. البتنوني، المرجع السابق : ٣١٠، ٣١١.

٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ٤٠٨.

٣. الرادادي، عائض، المرجع السابق ١ : ١٠٢.

الحرمين الشريفين - ومكة المكرمة بوجه خاص - بذكر العلماء الذين التقوهم، وذكر مناقبهم، والكتب التي درسوها عليهم، كما فعل ذلك ابن بطوطة، وابن رُشيد، والعبدي وآخرون، ولتصبح المجاورة في مكة المكرمة والمدينة المنورة منقبة من مناقب العلماء والأدباء، كما في حالة الإمام البخاري الذي روي عنه قوله: «صَنَّفْتُ كِتَابِي الْجَامِعَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»، وجار الله الزمخشري، الذي تلقب بهذا اللقب لمجاورته بيت الله الحرام، الذي أنجز مؤلفه العظيم «الكشَّاف عن حقائق التأويل»، «بين ظهراي الحرم، وبين يدي البيت الحرام، حتى وقع التأويل حيث وجد التنزيل»،^١ إلى أن يصل عدد المجاورين من العلماء والأدباء المئات في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، كما تنبئ بذلك كتب التراجم، وبخاصة «الضوء اللامع» للسخاوي، و«البدر الطالع» للشوكاني، و«الكواكب السائرة» للغزّي، و«درة الحجال في أسماء الرجال» لابن القاضي، و«ريحانة الألبا» للخفاجي،^٢ وأن يصبح المجاورون من السمات الثقافية الأصلية لمكة المكرمة، إذ تولّى عددٌ منهم «إمامة الحرم المكي، والأذان، والقضاء، والتدريس، والفتوى»،^٣ وأسهموا في تأسيس المدارس والمكتبات والأربطة، والمشاركة في إنعاش حركة التأليف فيها، ومروراً برؤية عددٍ من مفكري عصر النهضة إلى مكة المكرمة بوصفها الملاذ والمنقذ للعروبة والإسلام في العصر الحديث، كما في كتاب «أم القرى» لعبد الرحمن الكواكبي؛ ووصولاً إلى دور علماء الحرم المكي الشريف والمطوفين في حلّ الكثير من النزاعات السياسية،^٤ وتدشين النهضة العلمية في عدد من الدول الإسلامية، وبخاصة إندونيسيا وماليزيا، ولعل من أبرز دلائلها «مدارس نهضة

١. أبو سليمان، عبد الوهاب، الحرم الشريف: الجامع والجامعة، (نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١٧ هـ)، ص: ٧.

٢. الراددي، عائض، المرجع السابق ١: ١٢١.

٣. العبيكان، طرفة، الحياة العلمية، والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، (الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م) : ١٤٤.

٤. أبو سليمان، المرجع السابق : ٢٤، ٢٥.

العلماء بإندونيسيا التي يبلغ تعداد مدارسها ما يربو على أربعمئة مدرسة لمختلف المراحل العلمية ابتداء من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية العالية، وهي واحدة من مؤسسات علمية كثيرة تملأ البلاد الإندونيسية، يرجع الفضل في تأسيسها إلى تشجيع فقهاء الحرم الشريف وتوجيههم لتلاميذهم هناك^١، ليصل التأثير العلمي والثقافي لعلماء مكة المكرمة إلى سلاطين تلك الدول والولايات وأمرائها ووزرائها وقضاتها الذين تلقوا طرفاً مهماً من تعليمهم في مدارس مكة المكرمة، وبخاصة «الصولتية»^٢ بل إن عدداً من حركات التحرر الوطني في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي انطلقت من جوار البيت العتيق، ولعل من أهمها «شركة الإسلام» الإندونيسية، وهي أول حزب إسلامي طالب بحقوق المسلمين، استمدّ روح الجهاد من جوار الحرم الشريف^٣.

وانتهجت مكة المكرمة، منذ عصورها الأولى، التي تمتدّ إلى الجاهلية، نظام تقسيم العمل، ليظل هذا النظام معمولاً به، حتى وقت قريب، ممثلاً ذلك التقسيم صورة المهن والتقابات والحرف في المجتمعات العربية والإسلامية، لمرحلة ما قبل العصور الحديثة؛ وهذا ما كانت عليه الحال في المجتمع المكي الذي تكوّن، عبر قرون متتالية، من عناصر سكانية، بحكم حركة الحج، والمجاورة، ومن ثم التوطن والاستقرار، ليؤدّي هذا النسيج السكاني المتنوّع إلى توزّع العمل في مكة المكرمة، الذي يعود في غالبه إلى الدوران حول مركزية الحج دينياً واقتصادياً، ليتأثر أهل مكة - فيما يذكر هرخرونيه - «تأثراً بالغاً بالحرفة الرئيسية في مكة، ألا وهي الاستفادة من مواسم الحج كلّ عام. وتعتمد حياة أهل مكة

١. أبوسليمان، المرجع السابق : ١٥.

٢. أبوسليمان، المرجع السابق : ١٦.

٣. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ٣١٢؛ أبوسليمان، المرجع السابق : ٢٠، ٢١.

اعتماداً مباشراً على خدمة ضيوف الرحمن القادمين إلى البلد المقدس...^١ ليتفرَّع عن الحج وخدماته، التقسيم الاقتصادي للعمل؛ فالهنود يعملون في التجارة؛ وبخاصة البهارات والأقمشة،^٢ والشوام في تجارة الأحاريم والمكسرات والفواكه المجففة،^٣ والحضارمة في تجارة السكر والشاي والحبوب،^٤ والبخارية في تجارة أدوات الخياطة،^٥ في حين يعمل أبناء البادية بتأجير جماهم بين جدة والطائف والمدينة المنورة.^٦

غير أن مهنة «الطواف» المكانة الكبرى في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمكة المكرمة؛ وهي مهنة ذات تأثير عميق، لاتصالها - في أساس نشأتها - بتطويف الحجاج بالبيت العتيق، وكانت بدايتها متصلة بتطويف سراة القوم وكبارهم،^٧ ليصل بها الأمر إلى أن تغدو العمود الفقري للأعمال المتعلقة بالحج، وتشمل جميع الحجاج القادمين إلى البيت الحرام، ويطاؤها كذلك نظام تقسيم العمل، منذ عام ١٣١٨ هـ ليصبح لكل مجموعة من البلدان مطوف خاص بها.

وأثر الحج والمهن المرتبة به، وبخاصة الطواف، في حياة المكيين، ونظرة حجاج بيت الله الحرام إليهم، إذ أكسب اتصال المكيين بالأجناس واللغات واللهجات المختلفة، معرفة واسعة بأحوال العالم الإسلامي، ولغاته، وأطعمته، وعاداته وتقاليده؛ التي وحدت طريقها إلى النسيج الاجتماعي والثقافي لمكة المكرمة، وحواضر الحجاز بشكل عام، خاصة أن تنظيمات

١. هرخرونيه، المرجع السابق : ٦٤.

٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ٥٥؛ رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٦١.

٣. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٦١.

٤. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق.

٥. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٦٣.

٦. هرخرونيه، المرجع السابق : ٥٧.

٧. سباعي، أحمد، تاريخ مكة، (نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م)، : ٣٣٧.

الحج - بسبب حركة النقل والمواصلات - كانت تسمح بأن تقضي طوائف مختلفة من الحجاج ما يقرب من سبعة أشهر في رحاب مكة المكرمة، ملتحمين بالنسيج الاجتماعي لأهلها، ومتصلين بالحياة الدينية والاجتماعية والثقافية في البلدة المقدسة، إذ كان الانضمام إلى الحلقات العلمية الكبرى في المسجد الحرام حلم عدد كبير من طلبة العلم من حجاج بيت الله، والذين يجعلون جانباً كبيراً من وقتهم وفراغهم الانتماء إلى تلك الدروس العلمية التي يقوم عليها أكابر علماء مكة المكرمة، في ذلك الوقت.

يقول محمد عبد الحميد مرداد: «كان الحجاج الوافدون إلى بيت الله الحرام في ذلك الحين يتعلمون قراءة القرآن مع التجويد، لأنهم كانوا يصلون من شهر رجب، وخاصة سكّان جزر جاوه وبورنيو وسومطره والهنود والبنغاليون وسكّان الهند الصينية الفرنسية والسياميون وسكّان جنوب إفريقيا وأهل بخارى وشبه جزيرة القرم والأناضول وغيرهم. وكانوا يدرسون على يد نخبة من علماء مكة وقراءها...»

وكان المسجد الحرام صورة حية لجميع أدوار التعليم، إذ بعض الحجاج يعشق الاستماع إلى الفقه، وبعضهم إلى الحديث والتفسير، وبعضهم يعشق تعلّم اللغة العربية...^١ وكفلت الطواف، بصفته مهنة عائلات و أسر، اشتغال جميع أفراد أسر المطوفين في أعمال الحج، وهي فرصة أتاحت معرفة أكثر بالحجاج وأسره، طوال الأشهر الطويلة التي يقضونها في جوار البيت العتيق، عن طريق الزيارات المتبادلة بين أسر المطوفين والحجاج، وتبادل الهدايا، وبخاصة من كتب لهم الحج عدّة مرّات،^٢ وقيام المطوفين بمهام اجتماعية ذات طبيعة شخصية؛ كعقد زيجات للحجاج، أو الحج بدلاً من أقاربهم الموتى أو الأحياء،^٣

١. رحلة العمر : ٣٨٩.

٢. مرداد، محمد، المرجع السابق : ٤٠٣.

٣. هرخرونيه، المرجع السابق : ٩٨.

والإسهام في حلّ مشكلاتهم الأسرية و السياسية - كذلك - .

وأصبح المطوفون بسبب العوائد المالية الطيبة التي يحصلون عليها، وبخاصة إذا كان الموسم كبيراً، يؤلفون طبقة اجتماعية واقتصادية مهمّة في المجتمع المكي، الذي يتأسّس عماده الاقتصادي على الحج وموسمه، حتى غدت مهنة «الطوافة» - فيما يشير هرخرونيه في أواخر القرنين الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي - حلم شبّان مكة المكرمة وفتيانها، «فمنذ نعومة أظفار الطفل وهو يرى هؤلاء المطوفين يتمتعون بمنزلة عالية ونفوذ كبير في صفوف المجتمع المكي. وفي كلّ مكان تراهم يأمرّون فيطاعون، وحتى مساعدتهم (كذا!) يتمتعون بهذه الشهرة في أشهر الحج. حيث ترى شموخ هؤلاء ومظهرهم المتعالي على مختلف فئات الحجاج الذين يمشون خلفهم ويستمعون إلى أوامرهم ويتقيدون بهم في كلّ حركة يقومون بها.

إنّ مظهر الخيلاء هذا يستهوي الكثير من اليافعين، لأنّه يرضي غرورهم من ناحية، كما أنّ جيوب المطوفين ومساعدتهم المليئة بالنقود تثير شهية هؤلاء من ناحية أخرى. إنّ المرء يسمع دائماً بعض هؤلاء الشباب يقول: لو أنّني أستطيع جمع نصف قرش من كلّ حاج في سهل عرفات لما وجد فقير ولأصبح الكل أغنياء. ولهذا يفكر هؤلاء الشباب كثيراً في امتنان حرفة الطوافة التي يستطيع المرء من خلالها أن يكسب من المال خلال أسابيع ما لا يستطيع جمعه خلال السنة كلّها!»^١

ويعدّ كتاب محمد عبد الحميد مرداد «رحلة العمر» صورة مقربة للسّمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحج والحجاج والمطوفين في مكّة المكرمة، منذ نحو ثمانين سنة، وبخاصة ما له علاقه بحجاج جزر الهند الشرقية (الحجاج الجاوه)، والعلاقات الإنسانية والاقتصادية الفريدة من نوعها بين الحاج والمطوّف آنذاك.

١. هرخرونيه، المرجع السابق : ٢٣٠ ، ٢٣١.

فقد كان الحجاج الجاهل - كما يذكر مرداد - أغنى الحجاج وأسوأهم، إذا كانوا «عصب الحياة بل الموسم كلّ في الحجاز، وكانوا يكتثون زهاء خمسة أو ستة أشهر، وكانوا أصحاب ثروة، ونقودهم أغلى النقود على الإطلاق»^١. وكانت علاقة المطوّف بالحاج - فيما يذكر مرداد - تتجاوز الشأن الاقتصادي أو التجاري، لتصبح علاقة أسرية وثقافية، تشمل أفراد أسرة المطوّف كافة، بمن فيهم الأطفال الذين يصوّرهم مرداد، حينما كان في سنّهم، بقوله: «وصرتُ صديقاً للمئات ممن سكن عندنا أو تعلّم أو دُعي إلى وليمة بدارنا، ثم الطلوع والزول يومياً وردّ السلام والأخذ والردّ مع هؤلاء السكان والاختلاط والاحتكاك والتزاور... وأحياناً يزورنا بعض من هؤلاء السكان، وبعض يطلبون تصحيح القرآن على يد المرحوم العمّ جمال.. حتى أنّ بعضاً ممن يسكنون بدارنا يطلبون من العمّ أن أكون معلّماً لزوجاتهم وبناتهم لتصحيح القراءة والتجويد...»^٢.

وهذا ما يعني أنّ علاقة مكة المكرمة وأبنائها بحجاج بيت الله الحرام، ليست علاقة «مطوفين وحجاج»، في مفهومهما التبادلي السطحي؛ فالحاج - قديماً - لم يكن ليمرّ بمكة المكرمة مرّاً سريعاً، بل كان يعنيه المكان ومن حلّ فيه، فإذا كان عالماً اجتمع بالعلماء وطلبة العلم؛ وإذا كان تاجراً أسهم في حركة البيع والشراء، وإذا كان من أهل اليسار أفضل على المكّيين، وإن كان من عامّة الناس عرّف المكّيين على طعامه وشرابه وملبسه. فللحاج أثر في مكة المكرمة لا ينمحي، تنبئ به تلك المدارس والأربطة والتكايا والأوقاف التي كانت هدايا الحجاج لتلك الديار، وكان موسم الحج فرصة كبيرة لكي يتلمّس سراة الحجاج احتياج بعض الأوقاف والمدارس، إذ لولا مساعدتهم السريعة لتوقف

١. المرجع السابق : ٣٩٥.

٢. المرجع السابق : ٣٩٥ ، ٣٩٦.

عددٌ من تلك المدارس عن أداء رسالتها الجليلة.^١

ولأهل مكة المكرمة مكانة خاصة في قلوب مسلمي جنوب شرق آسيا، وبخاصة إندونيسيا وماليزيا، تنبئ بذلك المنزلة التي يحتلها سراة المكيين وعلمائهم لدى سلاطين تلك الدول وأمرائها،^٢ وقادت الحركة المستمرة لحجاج جزر الهند الشرقية أن يتعرّف المكيون بصورة قوية، على طبائع تلك الشعوب، عاداتها وتقاليدها،^٣ خاصة أن حجاج تلك المناطق - وبخاصة إندونيسيا - يتميزون عن غيرهم بالثراء والإقامة الطويلة في مكة المكرمة والسخاء، وأنهم قدموا للحج وطلب العلم، وليس للتجارة.^٤ و وصل حُبُّ الحجاج الجاوا لمكة المكرمة وأهلها، أنه بمجرد وصوله إليها يقوم الحاج منهم بشراء حلّة مكيّة، لكي يرتديها بعد عودته إلى بلاده، رمزاً لأدائه فريضة الحج،^٥ ويغدو ارتداء الزيّ العربيّ في تلك الجزر من الرموز الدينية التي يحبّ أن يظهر بها الحاج الإندونيسي أمام مواطنيه،^٦ ليغدو ارتداء الزيّ العربيّ ذا دلالة سياسية لم يشعر به سوى المستعمر الأجنبي، الذي بات يعرف ارتباط الحج إلى بيت الله الحرام بالنهوض الوطني والسياسي، إذ يشكل لهم ذلك الركن

١. يقول محمد عبد الحميد مرداد: «وكان للموسم أثر فعّال بالنسبة لمدرسة الفلاح؛ إذ إن الرواتب على ضآلتها وقلتها لا تعتمد إلّا على موسم الحج، وكان المدير يطبع رسالة و يبعث بها إلى المطوفين و مشايخ الجاوين ... يدعوهم إلى إحضار الأغنياء من الحجاج في أيام الموسم فيجمعونهم في (المنتزه) ثم يحضر الأساتذة و المدير، فيشرحون للحجاج موضوع المدرسة و حاجتها إلى المساعدة فيتبرعون بما تود به نفوسهم...» : ٥٥٣.

٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ٣٧٠.

٣. المرجع السابق : ٣٧٢.

٤. المرجع السابق : ٣٧٢.

٥. المرجع السابق : ٣٧٩.

٦. المرجع السابق : ٤٠٧.

الإسلامي المهيب حلماً لـ «القوة الدينية و السياسية للإسلام التي كان يسمع بها هؤلاء من خلال التراث الشعبي عن أيام الإسلام الأولى...»^١ ليسهم من استقرّ في مكة المكرمة وجعلها وطناً له في النسيج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، في أعمال الطواف والتجارة، والتدريس في الحرم المكي الشريف، وإصدار المؤلفات الدينية وسواها، ويصبح التأليف باللغة الملاوية مصاحباً للتأليف باللغة العربية في مطابع مكة المكرمة.^٢

ويقسم الحج حياة المكّين إلى «الموسم» - أي موسم الحج - و «البصارة»، وهي الفترة الممتدة من انتهاء الموسم إلى ما يقرب من حلوله في العام القابل، وتتأرجح حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ما بين هذين الزمنين، اللذين يتركان أثراً بالغاً في صفاتهم وعلاقتهم بالحجّاج، أو بمواطنيهم من أبناء مكة ذاتها، فموسم الحج هو عصب الاقتصاد المكي، وقوام حياة المكّين ومعيشتهم، وهو على قصره، مطمح حلم المكّين في سعة رزقهم، وخروجهم من الفاقة، والذخيرة التي يصمدون بها أمام عوادي الزمن وصروفه، ويغدو ترقّب المستقبل هاجساً ملحاً لدى كل مكّي، يحلم بأن يكون «الموسم» عظيماً، وأن يعم العالم السلام، وأن يظل اقتصاد الدول التي يفد منها الحجّاج قوياً معافى. كل ذلك يخرج المكّين عن زمنهم الطبيعي - خارج الموسم - ويحوّل حياتهم من الدعة، إلى أن ينصرفوا إلى قوام حياتهم ومعيشتهم، بحثاً عن خدمة الحاج، والفوز بأكبر عدد منهم، ولعل ذلك ما يجعل «الحاج الورع الذي يتخيل أن كل شيء في حالة مثالية في هذا البلد المقدس يفاجئ حينما يرى السعي المتواصل إلى مزيد من الربح في هذا الموسم. وهذا في واقع الحال أمر طبيعي؛ لأن مكة ليس لديها مصدر حيوي للدخل سوى هذا المورد، ولذا نجد أن التنافس حول طلب الرزق يزداد كثيراً بدل أن يقلّ. ويجب أنؤكد هنا أن الذي يرى أهل مكة خارج موسم الحج يجدهم عذبي المعشر، مولعين بالمرح، كرماء إلى درجة التبذير، يكرسون

١. هرخرونيه، المرجع السابق : ٤٠٩.

٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ٤٨١.

جهودهم لحياتهم الاجتماعية. وإن الذي يراقب حياتهم عن كثب يجد بجانب الخشونة والفظاظة التي عند بعضهم أناساً نبلاء المعشر كريمي الصفات أتقياء ذوي ورع وصلاح.^١ وما أن ينتهي «الموسم»، حتى تبدأ أشهر «البصارة»، في عرف المكيين، وتُستأنف مواسم أخرى، ملؤها السمر والفرح والتمتع بالحياة، حيث تتحوّل مكة المكرمة إلى مواسم متتالية، يختلط فيها الديني بالديني في نسيج عجيب، قوامه القانون المكي غير المسطر، الذي أشار إليه هرخرونيه - أواخر القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي - وهو «أن أهل المدينة يعيشون فقط للدين، ومن أجل الدين. (و) أهل جدة .. يعيشون من أجل الدنيا. أمّا أهل مكة فيعيشون من أجل الدين و الدنيا معاً».^٢

و منذ أن يبدأ حجاج بيت الله الحرام بمغادرة الديار المقدّسة، يستعيد المكّيون مناسباتهم الاجتماعية التي لا تكاد تنتهي، و لكلّ موسم أكلاته و حلوياته المكيّة الشهيرة: فالحليب في بداية العام الهجري الجديد، رمزٌ لسنة بيضاء؛^٣ وفي العاشر منه أكلة «العاشورية» الشهيرة؛ وحتى حينما يتشاءم المكّيون في آخر أربعمائة من شهر صفر، يخرجون في ذلك اليوم إلى البساتين، ويصنعون فيه «العيش باللحم»؛^٤ و «الشعنة» في شهر شعبان؛^٥ وتبدأ في شهر ربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى مناسبات الزواج،^٦ فضلاً عن المواسم الدينية التي تستمر طوال العام؛ كـ «مولد النبي الأعظم ﷺ» في الثاني عشر من شهر

١. هرخرونيه، المرجع السابق : ٦٤.

٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ١٤٢، ١٤٣.

٣. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٢٩.

٤. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٣٠.

٥. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٣٨.

٦. هرخرونيه، المرجع السابق : ١٢٧.

ربيع الأول؛^١ و العمرة الرجبيّة، وفي ذكرى الإسراء والمعراج؛ وزيارة المدينة المنورة في شهر رجب،^٢ في ركب مكّي مهيب استمرّ إلى ما قبل عدّة عقود من الزمان.

و يبدو أنّ ولع المكّيين بالمناسبات الاجتماعية يعود إلى قرون ماضية، فقد حفظت لنا كتب التاريخ والرحلات طرفاً من أفراحهم و ألوان سمرهم، على ذلك التّحو الذي ألمح إليه ابن جبير في القرن السادس الهجري، و من ذلك تفتّن المكّيين في صنع الأطعمة والحلويات التي سلبت لُبّه و فضّلها على ما يوجد في بلدان أخرى،^٣ وهو ما تشتهر به مكة المكرمة في وقتنا هذا، دون مدن المملكة الأخرى! فضلاً عن تفتّنه في ألوان الأطعمة الشهيرة، التي يعود عددٌ منها إلى أكثر من خمسة قرون، كما سجّل ذلك تواريخ مكة المكرمة، وبعض هذه المأكولات معروف متداول في عصرنا هذا كـ «المندي والفتوت والهريسة». ولعلّ من أطرف ما يتّصل بهذا الموضوع، أنه لشدة حبّ المكّيين لعقد الولائم، تمّ تخصيص وقف لتيسير أمر هذه الولائم، «تستعار منه أدوات السفر والمفروشات للولائم والوضائم»،^٤ وذكر محمد طاهر الكردي المكّي: «أنّ بعض البخاريين من سكّان مكة المشرفة قد أوقف لله تعالى ما يملكه بمكة وهو بستان البخاري المشهور بمحلة المسفلة لعمل الولائم لكلّ من أراد ذلك، ولقد جعل فيه من أدوات الطبخ ولوازمه من القدور والتباسي والصواني والصحون والملاعق وغيرها شيئاً كثيراً، وذلك بعد سنة ١٢٠٠ هجرية...»^٥

وتبعاً لافتتاح مكة المكرمة على العالم بأسره، بسبب الحج، استطاع المكّيون منذ

١. المرجع السابق : ١٢٤.

٢. المرجع السابق : ١٤٥.

٣. رحلة ابن جبير، (القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٠ م)، : ١١١.

٤. من تعليقات الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي، نقلاً من محمد طاهر الكردي، المرجع السابق ٦ : ١٨١.

٥. المرجع السابق ٦ : ١٨٥.

القدم، التغلُّب على طبيعة بلادهم القاسية، فغدا الوادي غير ذي الزرع مدينة كونية، يُجْلَبُ إليها خراج كلِّ شيء! فهي الملتقى السنوي للمسلمين، وهي - كذلك - مصفاة لغات الشعوب الإسلامية ولهجاتها، وطعامها وشرابها وأزيائها. فأزيائها - فيما وصف البتوني - «مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الإسلامية: عمامة هندية، وقفطان مصري، وجبة شامية، ومنطقة تركية...»^١ وطعامها يمثل نموذجاً للمطبخ الإسلامي، الذي قد يجتمع في وجبة واحدة: فالقول مصري، والسمن حضرمي، والتميز بخاري، ولكنّه في الأخير، ليس إلا وجبة مكية - وإن شئت حجازية - تتميز بنكهتها الخاصة، وخلطتها السريّة التي لا تنتمي إلى جذورها إلا على سبيل المجاز، أو ما يشبهه المجاز، وهو ما لعلّه أن يكون سرّاً من أسرار مكة المكرمة التي حباها الله - جلّت قدرته - بهذه السمات الكونية، في كلِّ شيء، ﴿فَأَجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^٢ ﴿أَوْ لَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^٣.

و «برهان ذلك - يقول ابن جبير - فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوي إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة، والثمرات تجبى إليها من كلِّ مكان، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد - فضلاً عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والعنبر والعود والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية

١. الرحلة الحجازية : ٤٢.

٢. سورة إبراهيم : ٣٧ .

٣. سورة القصص : ٥٧ .

والبضائع المغربيّة إلى ما لا ينحصر ولا ينضب - ما لو فُرّق على البلاد كلّها لأقام لها الأسواق النافقة، ولعمّ جميعها بالمنفعة التجارية.

كلّ ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطراً بها - مع طول الأيام - من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع، ولا ذخيرة من الذخائر، إلّا وهي موجودة فيها مدّة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، وآية من آياتها التي خصها الله بها!^١

واستطاعت مكة المكرمة، وقد أحاطت الصحراء بها من كلّ جانب، أن لا تجعل للصحراء من أثر بين في تكوينها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي واللغوي، فظلت محافظة على مدنيّتها وتحضرّها طوال العصور، وكأنّ جامع ملاحظها، عبر التاريخ، ظُرف أهلها - الذي هو أصل لظرف الحجاز - وولعهم بالتأنّق في الملبس والمأكّل والمشرب^٢، وهي من السمات المتماثلة في المجتمع المكيّ، والتي استرعت نظر الرّحالة الشهير ابن بطوطة، حين أشار إلى تأنّقهم في الملابس، وكثرة استخدامهم للطيب، سواء لدى رجالهم، أو نسائهم اللاتي كنّ رموزاً للأناقة منذ قرون طويلة، فنساء مكة - يقول ابن بطوطة - «فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف، وهنّ يكثرن التطيّب حتى إنّ إحداهنّ لتبيت طاويةً وتشترى بقوتها طيباً! وهنّ يقصدن الطواف بالبيت في كلّ ليلة جمعة فيأتين في أحسن زيّ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهنّ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عباقاً...»^٣، فضلاً عن ذوقهم الرفيع في بيوتهم ومجالسهم، وتعدّد مشاربهم ومآكلهم. ويجمع شملهم رباط وثيق من التكافل الاجتماعي، ومساعدة الغريب، وهي فضيلة تأصّلت في المجتمع المكي - منذ الجاهلية، وإلى وقتنا الحاضر - وغدت مأثرة من مآثره، التي لهج بها الرّحالة، وبخاصة ابن بطوطة الذي غمره المكيّون بسماحتهم وفضلهم، فسجّل لهم هذه

١. رحلة ابن جبير : ١١٠ .

٢. البتنوني، المرجع السابق : ٤٩ .

٣. رحلة ابن بطوطة ١ : ٣٨٧ .

المأثرة، شهادة من ذلك الرحالة الكوفي الكبير أمام التاريخ:
«ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء والمنقطعين والمجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردُّهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة، فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر.

ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى... فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيئاً له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يُذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه، ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس»^١



١. المرجع السابق ١ : ٣٨٧ .

مرويات أهل البيت عليهم السلام

من كتب تواريخ المدينة المنورة القديمة

أحمد خامه يار

تحتوي مصادر حديث الشيعة على كمّ كبير بل هائل من تراث أئمة أهل البيت عليهم السلام وما رُوي عنهم، ولكن نعلم أنّ رواياتهم وأخبارهم ليست منحصرة في مصادر الشيعة فقط، والباحث في تراثهم عليهم السلام يجد في ثنايا مصادر التراث الإسلامي القديمة بمختلف مواضيعها، كالفقه والحديث والسيرة والتاريخ، مرويات كثيرة أخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ومن المصادر التاريخية الهامة التي تحوي عدداً لا بأس به من مرويّات أهل البيت عليهم السلام، تعدّ تواريخ المدينة المنورة. فهذه المدينة المقدسة نظراً إلى أهميتها التاريخية والدينية باعتبارها مقصد رسول الله صلى الله عليه وآله لهجرته، حيث أسّس بها المجتمع الإسلامي الأول، وتضمّن تراها جسده الشريف بعد أن انتقل إلى جوار ربّه، ثم سكن بها من بعده صلى الله عليه وآله أولاده وأحفاده من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأصحابه وتابعيهم أيضاً، فكان من شأنها أن قام عدد من المحدثين المسلمين بتصنيف تواريخ للمدينة المنورة جمعوا فيها أخبار هذه المدينة خلال القرون الإسلامية الأولى.

ويُرجّح أن أول تاريخ صُنّف للمدينة المنورة هو أخبار المدينة لابن زبالة، ثم اتّبعه كلّ من ابن شبّه النميري ويحيى بن الحسن العلوي - وكلاهما من أصحابه - بتصنيف كتاب في أخبار المدينة، ولكن لم تُحفظ من هذه الكتب إلا أخبار المدينة لابن شبّه، وضاعت تواريخ المدينة القديمة الأخرى بفقدان مخطوطاتها، فلم تصل إلينا من أخبارها إلا ما نقلها مؤرّخو المدينة في العصور اللاحقة، كابن النجار البغدادي، ومجد الدين الفيروزآبادي، ونور الدين السّمهودي.

وبما أن الأئمة عليهم السلام بالإضافة إلى الكثير من أولادهم وأحفادهم، كانوا يعيشون في المدينة المنورة، وهم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وهم أدري به من غيرهم، فمن الطبيعي أن تصبح الأخبار المروية عنهم، ولا سيما في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله ومسجده الشريف والمدينة نفسها، من مصادر مصنّفي تواريخ المدينة، وأن يعتمدوا على هذه المرويّات ويعمدوا إلى نقلها في تصانيفهم.

وقد حاولنا في هذا المقال باستخراج ما رُوي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في أهمّ تواريخ المدينة القديمة، وهي «أخبار المدينة» لكل من ابن زبالة، ويحيى بن الحسن العلوي، وابن شبّه، ففيما يتعلق بتاريخني ابن زبالة ويحيى العلوي، وهما مفقودان، اعتمدنا على ما رُوي عنهما في مصادر تاريخ المدينة المتأخرة، أما فيما يتعلق بتاريخ ابن شبّه، فقد اعتمدنا على النسخة المطبوعة من الكتاب. ثم أعقبنا بعض الروايات بتعليقات يسيرة، وضعناها بين

المعقوفتين [] للتمييز عن النصوص الأصلية المنقولة من المصادر.

تواريخ المدينة المنورة القديمة

١. أخبار المدينة لابن زبالة: وهو محمد بن الحسن بن زبالة القرشي المخزومي المدني، من أصحاب مالك بن أنس. اتهمه علماء رجال أهل السنة بالضعف. فقد ذكر يحيى بن معين أن ابن زبالة كذاب خبيث، لم يكن بثقة ولا مأمون، يسرق الحديث؛ وذكر البخاري أن عنده مناكير؛ وقال عنه النسائي: متروك الحديث.^١

ويُعدّ كتابه أخبار المدينة، من أوائل ما ألّف في تاريخ المدينة المنورة، حيث ألّفه سنة ١٩٩هـ. وقد أكثر النقل عنه مؤرخو المدينة كالمطري في كتابه «التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة»، والمجد الفيروزآبادي في «المغائم المطابة في معالم طابة»، ونور الدين السمهودي في «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى».

٢. أخبار المدينة، ليحيى بن الحسن الحسيني العلوي: وهو يحيى بن الحسن بن جعفر - الملقب بالحجة - بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، وهو جدّ أمراء المدينة المنورة؛ وُلد فيها سنة ٢١٤هـ، وتوفي بمكة سنة ٢٧٧هـ.^٢

وله من المصنّفات كتاب النسب، وقد يُعرف بنسب الطالبيين،^٣ أو أنساب آل أبي طالب،^٤ ولم يُعرف لهذا الكتاب إلى الآن نسخة خطية، فهو بحكم المفقود. ومن مصنّفات كتاب المُعَقِّين من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، طُبِعَ مرتين، الأولى بتحقيق

١. تهذيب الكمال، للمزي ١٦ : ٢٠٢ - ٢٠٥.

٢. الأعلام، للزركلي ٨ : ١٤٠.

٣. الإكمال، لابن ماكولا ١ : ٢٢٠؛ ٣ : ١٧١.

٤. الذريعة، لآقا بزرك الطهراني ٢ : ٣٧٨.

فارس حسُون وجواد الموسوي، والثانية بتحقيق محمد بن حسين الصمداني الحَسَنِي. وله أيضاً كتاب «أخبار المدينة»، أكثر النقل عنه مؤرخو المدينة في العصور اللاحقة، ولا سيما السهمودي في كتابه «وفاء الوفا»، حيث أشار في بعض المواضع إلى نقله عن «أخبار المدينة»، ليحيى بن الحسن الحسيني^١ واكتفى في مواضع عديدة أخرى بالقول عنه: «أسند يحيى»، أو «روى يحيى»، أو «قال يحيى»، أو ما شابه من العبارات. ويظهر من كتاب السهمودي أنه كان يمتلك عدة نسخ من أخبار المدينة للعلوي، منها النسخة التي رواها ابن المؤلف طاهر بن يحيى عن أبيه^٢، ومنها النسخة التي رواها حفيده الحسين بن محمد بن يحيى عن جده^٣.

٣. أخبار المدينة، لابن شَبَّه: وهو أبو زيد عمر بن زيد - الملقَّب بالشَّبَّه - بن عبيدة النُمَيْرِي البصري، المتوفى بسامراء سنة ٢٦٢ هـ. ذكر له ابن النديم عدداً من المصنّفات التاريخية، ولا سيما ما ألفها في أخبار المدن، منها كتاب مكة، وكتاب الكوفة، وكتاب البصرة^٤. وقد وثَّقه علماء الرجال كابن حِبَّان والدارقطني والخطيب البغدادي^٥.

وكتابه «أخبار المدينة» يعدُّ الوحيد مما وصلت إلينا من تواريخ المدينة القديمة والتي ألُفَّت خلال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى، وإن لم يصل إلينا النص الكامل للكتاب. فالنسخة الخطية الوحيدة منه تنقصها فصول من الكتاب منها فترة خلافة الإمام علي عليه السلام. وقد طُبِعَ / نُشِرَ الكتاب أولاً بتحقيق فهم محمد شلتوت باسم «تاريخ المدينة المنورة»، ثم أعادت نشره دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤١٧ هـ بتحقيق علي محمد دندل وياسين

١. وفاء الوفا ١ : ٤٢٤ ؛ ٢ : ١٥٩ ؛ ٥ : ٢٧ و ٦١ و ١٠٧.

٢. وفاء الوفا ١ : ١٥٥ و ٤٢٤ ؛ ٢ : ١٦٠ و ٢٣٩ و ٣١٤ ؛ ٣ : ٢١٥ ؛ ٥ : ٢٩.

٣. وفاء الوفا ٥ : ٢٩.

٤. النديم، الفهرست : ١٢٥.

٥. تهذيب الكمال ١٤ : ٩١.

سعد الله ببيان. وقد اعتمدنا في هذا المقال على طبعة شلتوت.

كتاب أخبار المدينة لابن زبالة

«[أخبرنا يحيى بن أسعد بخطه، أنبأنا أبو علي الحداد، عن أبي نعيم الأصبهاني، قال: كتب إلى أبو محمد الخواص، أن محمد بن عبد الرحمن أخبره، أنبأنا الزبير بن بكار، حدثنا محمد بن الحسن، عن سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: غُسل رسول الله ﷺ من بئر يقال لها بئر غرس، وكان يشرب منها].^١

«عن جعفر بن محمد قال: إن النبي ﷺ كان بنى^٢ مسجده بالسَّمِيط (لبنة لبنة)، ثم إن المسلمين، كثروا فبناه بالسَّعيدة، فقالوا: يا رسول الله، لو أمرت به فزید فيه، فقال: نعم، فأمر به، فزید فيه، وبنى جداره بالأنثى والذكر، ثم اشتد عليهم الحرُّ، فقالوا: يا رسول الله، لو أمرت بالمسجد فظُلِّل، قال: نعم. فأمر به، فأقيمت سوار^٣ من جذوع النخل، ثم طُرِحَتْ عليها العوارض والخَصَفُ والإذخِرُ، فعاشوا فيه وأصابَتْهُمُ الأمطارُ، فجعل المسجد يكف عليهم، فقالوا: يا رسول الله، لو أمرت بالمسجد فطُيِّنَ، فقال: لا، عَرِيشٌ كَعَرِيشِ موسى. فلم يزل كذلك حتى قُبِضَ (رسول الله ﷺ)، وكان جداره قبل أن يُظَلَّلَ قائمَةً، (فكان إذا فاء الفيء ذراعاً - وهو قدامان،^٤ - يُصَلَّى الظهر، فإذا كان ضِعْفَ ذلك صُلِّيَ العصر).^٥».

١. الدرّة الثمينة، لابن النجار: ١٧٤ و ١٧٦.

٢. في المغانم المطابة: «يبني».

٣. بين الهلالين إضافة من وفاء الوفا.

٤. في المغانم المطابة: «الناس».

٥. في وفاء الوفا: "لو أمرت من يزيد فيه".

٦. في وفاء الوفا: "فيه سوارى".

٧. إضافة من وفاء الوفا.

٨. في رواية الكافي للكليني: قدر مريض.

٩. بين الهلالين إضافة من وفاء الوفا؛ المغانم المطابة، للفيروزآبادي ١ : ٤١٠ ؛ وفاء الوفا، ٢ : ٤٣-٤٤ .

[قلتُ: ذكر السمهودي أنَّ هذه الرواية أخرجها ابن زبالة، ورواها يحيى بن الحسن العلوي من غير طريقه؛ وأضاف بعد سرد الرواية أنهما نقلًا عن الإمام جعفر (عليه السلام) تفسير السميّط والسعيدة والأثنى والذكر كما ورد في رواية أخرى عن الإمام الصادق (عليه السلام)، أوردها رزين بن معاوية العبدري السرقسطي (م ٥٣٥ هـ) في كتابه «أخبار دار الهجرة»، وهي أنَّ السميّط: لَبَنَةٌ عَلَى لَبَنَةٍ، والسعيدة: لَبَنَةٌ وَنصف أخرى، والذكر والأثنى: لبنتان مختلفتان. أما الفيروزآبادي فقد رفعها إلى الإمام الصادق (عليه السلام)، فقمتُ بمقابلة نصِّ الرواية كما ورد في المغنم المطابة، مع نصّها كما ورد في وفاء الوفا، وبَيَّنْتُ / وحددتُ مواضع الاختلاف بين النصّين في الهامش.

وروى الكليني مثل هذه الرواية في الفروع من الكافي (٣: ٢٩٥-٢٩٦)، وفيها إضافات يسيرة على ما رُويت في تواريخ المدينة، منها تفسير السميّط والسعيدة والأثنى والذكر بما يوافق رواية رزين. وإسناد رواية الكليني كما يلي: علي بن محمد، ومحمد بن الحسن، عن سهل بن زياد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، وعلي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن المغيرة، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام. «وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه، أنَّ ناساً كانوا يقدمون على النبي ﷺ لا شيء لهم، فقالت الأنصار: يا رسول الله، لو عجلناك قنواً من كلّ حائط هؤلاء، قال: أجل فافعلوا، ففعلوا، فجرى ذلك إلى اليوم، فهي الأقناء التي تُعلّق في المسجد عند جدار النخل فيعطها المساكين، وكان عليها على عهد رسول الله ﷺ معاذ بن جبل»^١.

«وروى ابن زبالة من طريق جعفر بن محمد عن أبيه، قال: أمر رسول الله ﷺ بـرواية الخمر التي أهدى له الدوسي فأهريقته بالسوق عند بيت أمّ كلاب حيث يُهراق الشراب

١. وفاء الوفا، للسمهودي ٢: ١٩٧.

اليوم»^١.

«عن جعفر بن محمد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ دخل مسجد الفتح فَخَطَا خطوةً ثم الخطوة الثانية، ثم قام ورفع يديه إلى الله تعالى حتى رُويَ بياض إبطيه - وكان أعفرَ الإبطين - فدعا حتى سقط رداؤه عن ظهره، فلم يرفعه حتى دعا دعاءً^٢ كثيراً، ثم انصرف»^٣.
[قلت: رواها الفيروزآبادي مرفوعاً إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولكن يظهر من قول السمهودي أن مصدر الخبر كتاب ابن زبالة].

«روى ابن زبالة عن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، قال: دَفَنَ رسول الله ﷺ فاطمة بنت أسد بن هاشم - وكانت مهاجرةً مبايعةً - بالروحاء، مقابل حُمام أبي قטיפه. قال: وثَمَّ قبر إبراهيم بن النبي ﷺ وقبر عثمان بن مظعون»^٤.
[قلت: ورواها أيضاً ابن النجار في الدرّة الثمينة (٤٦٢-٤٦٣) مرفوعاً إلى عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي، عن أبيه عن جدّه، إلى قوله: «أبي قטיפه».

وهذه الرواية تعارضها رواية ابن شبّه في تاريخ المدينة (١: ١٢٧) في تحديد موضع قبر العباس بن عبد المطلب، نقلاً عن عبد العزيز بن عمران، بأن العباس دُفِنَ عند قبر

١. وفاء الوفا، للسمهودي ٣ : ٨٩ . ذكر قاسم السامرائي محقق كتاب «وفاء الوفا» في الهامش أن هذا حدث في مكة، اعتماداً على رواية الدارمي في سننه (٢: ٢٥٦) وفيها: «قال: فأمر بها فأفرغت في البطحاء». ولكن السمهودي علّق على رواية ابن زبالة أن في كتاب الأم للشافعي (١: ١٩٩) ما يقتضي تسمية سوق المدينة بالبطحاء، فقد روى الشافعي عن جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، وكان لهم سوق يقال له: «البطحاء»، كانت بنو سليم يجلبون إليها الخيل والإبل والغنم والسمن، فقدموا فخرج إليهم الناس...» الحديث.

٢. في وفاء الوفا: «ودعا».

٣. المغامم المطابة، للفيروزآبادي ٢ : ٥٣١ ؛ وفاء الوفا، للسمهودي ٣ : ١٨٢-١٨٣.

٤. وفاء الوفا، للسمهودي ٣ : ٢٧٤.

فاطمة بنت أسد بن هاشم في أول مقابر بني هاشم التي في دار عقيل. ويوافق هذا القول ما رواه الشيخ المفيد في الإرشاد (٢: ١٧ و ١٩) من أن الإمام الحسن عليه السلام دُفن عند جدته فاطمة بنت أسد بالبقيع بناءً على وصيته قبل وفاته.

«وروى ابن زبالة عن جعفر بن محمد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ صلى في المسجد الذي عند الشيخين، وأنه عدل من ثم يوم أحد إلى أحد»^١.

«وروى ابن زبالة عن خالد بن عوسجة: كنت أدعو ليلةً إلى زاوية دار عقيل بن أبي طالب التي تلي باب الدار، فمرّ بي جعفر بن محمد يريد العريض معه أهله، فقال لي: أعن أثرٌ وقفت هاهنا؟ قلت: لا. قال: هذا موقف نبي الله ﷺ بالليل إذا جاء يستغفر لأهل البقيع»^٢.

[قلت: هذه الرواية نقلها ابن النجار في الدرة الثمينة (٤٦٥) مع إسقاط بعض الكلمات، وفي إسناده: «حدثنا محمد بن عيسى، عن خالد عن عوسجة». ويبدو لي أن محمد بن عيسى تصحيف لمحمد بن حسن، وهو ابن زبالة، وخالد عن عوسجة تصحيف لخالد بن عوسجة.

ورواها أيضاً الفيروزآبادي في المغانم المطابة (٢: ٥٠٥)، مرفوعاً إلى خالد بن عوسجة].

«وعن جعفر بن محمد: أن قبر إبراهيم وجاه دار سعيد بن عثمان التي يقال لها: الزوراء، بالبقيع - فهُدِمَت - مرتفعاً عن الطريق»^٣.

[قلت: هذه الرواية رواها ابن النجار في الدرة الثمينة (٤٦٠) مرفوعاً إلى الإمام

١. وفاء الوفا، للسمهودي ٣ : ٢٣١.

٢. وفاء الوفا ٣ : ٢٦٦-٢٦٧؛ وعلّق السمهودي أن ابن زبالة قال عقب إيراد هذا الخبر: «ودار عقيل الموضع الذي دُفن فيه».

٣. وفاء الوفا، للسمهودي ٣ : ٢٧٠.

الصادق عليه السلام، ولا توجد فيها لفظة "هُدِمت"، فلعلها إضافة من السهمودي].
 «روى ابن زبالة عن محمد بن عبيد الله بن علي، قال: قبور أزواج النبي صلى الله عليه وآله من خوخة بُييه إلى الزقاق الذي يخرج إلى البقال مستطيرة»^١.
 [قلت: هذه الرواية رواها ابن النجار في الدرّة الثمينة (٤٥٨) دون أن يسندها إلى ابن زبالة، وباختلاف في بعض ألفاظها، قائلاً: «وروى محمد بن عبد الله بن علي أنه قال: قبور أزواج النبي صلى الله عليه وآله من خوخة بيته إلى الزقاق؛ يعني بالبيع»].
 «وعن حسن بن علي بن عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي أنه هَدَمَ منزله في دار علي بن أبي طالب، فقال: فأخرجنا حجراً مكتوباً فيه: «هذا قبر رملة بنت صخر»، قال: فسألنا فائداً مولى عبادل، فقال: هذا قبر أم حبيبة ابنة أبي سفيان»^٢.
 [قلت: علّق السهمودي عقب هذه الرواية أنها تخالف رواية أخرى تفيد أن قبر أم حبيبة في دار عقيل، واحتمل أن عقيل تصحّف في هذه الرواية بعلي عليه السلام.
 وروى ابن شبّه في تاريخ المدينة (١: ١٢٠) قصة اكتشاف قبر أم حبيبة في دار عقيل بتفاصيل مختلفة، ونصّ هذه الرواية: «حدثنا محمد بن يحيى قال: أخبرني عبد العزيز بن عمران، عن يزيد بن السائب قال: أخبرني جدي قال: لما حفر عقيل بن أبي طالب في داره بئراً وقع على حجر منقوش مكتوب فيه: قبر أم حبيبة بنت صخر بن حرب، فدفن عقيل البئر، وبنى عليه بيتاً. قال يزيد بن السائب: فدخلت ذلك البيت فرأيت فيه ذلك القبر»].
 «عن جعفر بن محمد عن أبيه: أن سلمان الفارسي كان لناسٍ من بني النضير، فكاتبوه على أن يغرس لهم كذا وكذا وديّةً حتى تبلغ عشر سَعَفَات، فقال النبي صلى الله عليه وآله: ضَعُ عند كلِّ فقير وديّةً، ثم غدا إلى النبي صلى الله عليه وآله فوضعه بيده، ودعا له، فما عطبت منها وديّةً، ثم

١. وفاء الوفا، للسهمودي ٣ : ٢٩٥.

٢. وفاء الوفا، للسهمودي ٣ : ٢٩٦؛ المغانم المطابة.

أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ فَهِيَ الْمِيثَبُ صَدَقَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ»^١.
«رَوَى ابْنُ زُبَالَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي مَسْجِدٍ يَنْبَعُ بَعَيْنُ بُولَا»^٢.

كتاب أخبار المدينة ليحيى العلوي

«أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْنُ حَسَنِ الْعُلُوِي قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: بَيْنَمَا الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَخْطُبُ عَلَى الْمَنْبَرِ إِذْ تَكَشَّفَتِ الْكَلَّةُ عَنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَرَاءَهَا الْحَسَنُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَظَرَ الْوَلِيدُ فَإِذَا هُوَ بِالْحُسَيْنِ يَسْرَحُ لِحَيْتِهِ، وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِهَدْمِ بَيْتِ فَاطِمَةَ، وَإِنْ حَسَنُ بْنُ حَسَنِ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ أَبَوْا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهُ، قَالَ: إِنْ لَمْ تَخْرُجُوا مِنْهُ هَدَمْتُهُ عَلَيْكُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يَخْرُجُوا وَأَمَرَ بِهَدْمِهِ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْبَيْتِ حَسَنُ بْنُ حَسَنِ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ حَسَنِ وَوَلَدُهَا مِنْ حَسَنِ، فَزَرَعَ أَسَاسَ الْبَيْتِ وَهُمْ فِيهِ، فَلَمَّا نَزَعَهُ قَالَ: إِنْ لَمْ تَخْرُجُوا قَوْضَنَاهُ عَلَيْكُمْ، فَخَرَجُوا مِنْهُ حَتَّى أَتَوْا دَارَ عَلِيٍّ نَهَارًا، وَبَعَثَ حَسَنُ بْنُ حَسَنِ ابْنَهُ جَعْفَرَ، وَكَانَ أَسْنَى وَلَدِهِ، فَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ إِلَى الْمَسْجِدِ وَلَا تَرْمِمْ حَتَّى يَبْنُونَ»^٣، فَتَنَظَرَ الْحَجَرُ الَّذِي مِنْ صِفَتِهِ كَذَا وَكَذَا، هَلْ يَدْخُلُونَهُ فِي بَنِيَانِهِمْ أَمْ لَا. فَخَرَجَ جَعْفَرٌ فَلَمْ يَزَلْ يَرْصُدُهُمْ وَهُمْ يَبْنُونَ، حَتَّى رَفَعُوا الْأَسَاسَ وَأَخْرَجُوا الْحَجَرَ، فَجَاءَ جَعْفَرٌ إِلَى أَبِيهِ فَأَخْبَرَهُ، فَخَرَّ سَاجِدًا وَقَالَ: ذَلِكَ حَجَرُ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْلِي إِلَيْهِ إِذْ دَخَلَ إِلَى فَاطِمَةَ، أَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ تَصْلِي عَلَيْهِ - الشَّكُّ مِنْ يَحْيَى -
قال حسين: وأخبرني شيخ من قضاة يكنى أبا جعفر، قال: حدثني سليمان بن

١. وفاء الوفا، للسهمودي ٣ : ٤٠٧.

٢. وفاء الوفا، للسهمودي ٣ : ٤٥٨.

٣. الصحيح: حتى بينوا. فالخطأ في المصدر.

جعفر الجعفري، قال: سمعتُ علي بن موسى الرضا يقول: وكدت فاطمة الحسن والحسين على ذلك الحجر.

قال أبو حسين: ورأيتُ الحسين بن عبد الله بن الحسن إذا اشتكى شيئاً من جسده كشف الحصباء عن الحجر، يمسح به ذلك.

قال يحيى: ولم يزل ذلك الحجر نراه ونكشف عنه حتى جاء عمر الصانع المسجد ففقدناه، عندما أزرنا القبر بالرخام، وكان الحجر لاصقاً بجدار القبر قريباً من المربعة.

أخبرني يحيى بن حسن قال: حدثني إسحاق بن موسى بن جعفر بن محمد قال: حدثني أخي علي بن موسى، عن أبيه، عن جدّه، أن علياً دفن فاطمة بنت رسول الله - عليهما سلام الله - في المسجد، عند زور قبر النبي ﷺ.

قال: وحدثني زبير عن محمد بن محمد بن حسن عن عبد الله بن إبراهيم بن جعفر بن محمد كان يقول: قبر فاطمة بنت رسول الله - عليهما سلام الله - في بيتها الذي أدخله عمر بن عبد العزيز في المسجد.

حدثني يحيى بن حسن قال: حدثني موسى بن عبد الله قال: أخبرني عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قال: ولد عبد الله بن حسن في بيت فاطمة بنت رسول الله - عليهما سلام الله - في المسجد»^١.

[قلت: اختصر هذه الرواية السمهودي ونقلها في تاريخه (وفاء الوفا ٢ : ٣٣٧ - ٣٣٨) قائلاً:

«روى [يحيى] ما حاصله: أن بيت فاطمة الزهراء لما أخرجوا منه فاطمة بنت حسين وزوجها حسن بن حسن وهدموا البيت، بعث حسن بن حسن ابنه جعفرأ، وكان أسنّ ولده، فقال له: اذهب ولا تبرحنّ حتى يبنوا فتنظر الحجر الذي من صفته كذا وكذا، هل يدخلونه

١. كتاب المناسك، المنسوب خطأً إلى أبي إسحاق الحربي : ٣٦٦-٣٦٧.

في بنيانهم، فلم يزل يرصدهم حتى رفعوا الأساس وأخرجوا الحجر، فجاء جعفر إلى أبيه فأخبره، فخرّ ساجداً وقال: ذلك حجرٌ كان النبي ﷺ يصلي إليه إذا دخل إلى فاطمة أو كانت فاطمة تصلي إليه - الشك من يحيى - وقال علي بن موسى الرضا: ولدت فاطمة عليها السلام الحسن والحسين على ذلك الحجر».

«أنبأنا أبو جعفر الواسطي، عن أبي طالب بن يوسف، أنبأنا أبو الحسين بن الآبنوسي، عن عمر بن شاهين، أنبأنا محمد بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد الكاتب، حدثني طاهر بن يحيى، قال: حدثني أبي، عن جدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب قال: لما دُفِن رسول الله ﷺ جاءت فاطمة فوقفت على قبره، وأخذت قبضةً من تراب القبر، فوضعت على عينها وبكت، وأنشأت تقول:

ماذا على من شَمَّ تربةَ أحمد أن لا يشمَّ مدى الزمانِ غواليها
صُبَّتْ عليَّ مصائبُ لو أنها صُبَّتْ على الأيامِ عُدنَ لياليها

وروي عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: ما رُئيت فاطمة بعد أبيها ضاحكةً، ومكثت بعده ستة أشهر».

(الدرة الثمينة لابن النجار: ٣٨٣؛ ورواها السمهودي في وفاء الوفا (٥ : ١٠٨) عن تحفة ابن عساكر، أي «إتحاف الزائر لإطراف المقيم السائر» لأبي اليمن عبد الصمد ابن عساكر، وهو رواه بدوره عن ابن النجار).

«وروى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده ﷺ أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تختلف بين اليومين والثلاثة إلى قبور الشهداء بأحد، فتصلي هناك وتدعو وتبكي حتى ماتت»^١.

[قلت: رفعها ابن النجار إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن أبيه عن جده،

١. الدرة الثمينة، لابن النجار: ٢١١؛ وفاء الوفا، للسمهودي: ٣: ٣٢٣.

وقد أشار السمهودي أن هذه الرواية رواها يحيى. وروى الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين (١: ٣٧٧) بإسناده عن الإمام الصادق عن أبيه عن علي بن الحسين عليهم السلام عن أبيه أن فاطمة كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده.

وروى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عن أبيه عن جدّه عليه السلام: «أنه كان إذا جاء يُسَلَّمُ على النبي ﷺ وقف عند الأسطوانة التي مما يلي الروضة، فيُسَلَّمُ، ثم يقول: هاهنا رأس رسول الله ﷺ»^١

[قلت: هذه الرواية رفعها ابن النجار إلى الإمام الصادق (عليه السلام)، وقد ذكر السمهودي أن يحيى بن الحسن العلوي رواها في كتابه].

«وعن جعفر بن محمد عن أبيه: كُفِّنَ [رسول الله ﷺ] في ثوبين صحاريين مما يُصَنَع بعمان من كُرسف وبرد حبرة»^٢.

«وأُسند [أي يحيى] عن عمر بن علي بن الحسين، قال: كان بيت فاطمة في موضع الزور، مخرج النبي ﷺ، وكانت فيه كُوَّةٌ إلى بيت عائشة، فكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى المخرج أَطْلَعَ من الكُوَّةِ إلى فاطمة فعلم خبرهم، وأن فاطمة قالت لعلي: إن ابني أمسيا عليليل فلو نظرت لنا أدماً نستصبح به، فخرج علي إلى السوق فاشتري لهم أدماً، وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت، فدخلت عائشة المخرج في جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم، وذكر كلاماً وقع بينهما، فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي ﷺ أن يَسُدَّ الكُوَّةَ، فسَدَّها رسول الله ﷺ»^٣.

«وعن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام، قال: قدم رسول الله ﷺ قومٌ عُرَاءٌ كانوا غُرَافَةً بالروم، فدخل على فاطمة وقد سترت ستراً، قال: أيسُرُك أن يسترِكَ الله يوم القيامة؟

١. الدرّة الثمينّة، لابن النجار ٤٣٥-٤٣٦؛ وفاء الوفا، للسمهودي ٥ : ٦١.

٢. وفاء الوفا، للسمهودي ١ : ٥٢٨.

٣. وفاء الوفا، للسمهودي ٢ : ٢٠٧.

فأعطنيه، فأعطته، فخرج به فشقه لكل إنسان ذراعين في ذراع»^١.
[قلت: لم يذكر السمهودي مصدر هذه الرواية، ولكن يبدو أن قوله: «وعن جعفر بن محمد» عليهما السلام استئناف على قوله: «وأُسند يحيى عن محمد بن قيس: ...» عند نقله لرواية سابقة لها].

«وعن علي قال: زارنا النبي ﷺ فبات عندنا والحسن والحسين نائمان، واستسقى الحسن، فقام النبي ﷺ إلى قربة لنا فجعل يعصرها في القدح ثم جعل يُعْبِئُهُ، فتناول الحسين فمنعه، وبدأ بالحسن، فقالت فاطمة: يا رسول الله كأنه أحبُّ إليك قال: إنما استسقى أول، ثم قال رسول الله ﷺ: إني وإياك وهذان وهذا الراقد - يعني علياً - يوم القيامة في مكان واحد»^٢.

[قلت: يبدو أن السمهودي نقل هذه الرواية - كالرواية السابقة - من كتاب يحيى. وروى الطبراني في المعجم الكبير (٢٢: ٤٠٥-٤٠٦) روايتين وروى الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين (٣: ١٣٧) رواية في هذا المعنى].

«وعن علي قال: زارنا رسول الله ﷺ فعملنا له خزيرة، وأهدت لنا أم أيمن قعباً من لبن وصحفة من تمر، فأكل رسول الله ﷺ وأكلنا معه، ثم وضأت رسول الله ﷺ فمسح رأسه وجهته ولحيته بيده، ثم استقبل القبلة فدعا بما شاء، ثم أكب إلى الأرض بدموع غزيرة؛ يفعل ذلك ثلاث مرات، فتهيبنا رسول الله ﷺ أن نسأله، فوثب الحسين على ظهر رسول الله ﷺ وبكى، فقال له: بأبي وأمي ما يبكيك؟ قال: يا أبت رأيتك تصنع شيئاً ما رأيتك تصنع مثله، فقال رسول الله ﷺ: يا بني سررت بكم اليوم سروراً لم أسر بكم مثله قط، وإن حبيبي جبريل عليه السلام أتاني وأخبرني أنكم قتلتي، وأن مصارعكم شتت،

١. وفاء الوفا، للسمهودي ٢: ٢٠٩-٢١٠.

٢. وفاء الوفا، للسمهودي ٢: ٢١٠.

فأحزني ذلك، ودعوت الله تعالى لكم بالخيرة»^١.
[قلت: يبدو لي أن هذه الرواية - كالروایتين السابقتين - نقلها السهمودي من أخبار المدينة ليحيى العلوي].

«وروى يحيى من طريق ابن زباله وغيره عن علي بن حسن بن حسن بن حسن - وكان من خيار الناس - أن رسول الله ﷺ أمر بإجمار المسجد، قال: ولا أعلمه إلا قال: يوم الجمعة»^٢.

«وعن جعفر بن محمد، قال: لا بأس بأن يدفن القملة في المسجد»^٣.
«وقال يحيى بن الحسن في أخبار المدينة له: حدثنا بكر بن عبد الوهاب، حدثنا عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جدّه عن علي بن أبي طالب: أن النبي ﷺ قال: المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد قبا، قال الله جل ثناؤه: ﴿فِيهِ رَجُلٌ يُحِبُّ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾»^٤.

[وذكر السهمودي عقب إيراد هذه الرواية: «وعيسى بن عبد الله يظهر لي أنه عيسى بن عبد الله بن مالك، وهو مقبول، فيكون جدّه حينئذ عبد الله بن مالك، وهو شيخ مقبول يروي عن علي وابن عمر...». قلت: بل يمكن أن يكون: عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، والذي يروى عنه أيضاً عن أبيه عن جدّه؛ منها ما رواها ابن النجار في الدرّة الثمينة (٤٦٢-٤٦٣)].

«[روى عن علي]: أمرني رسول الله ﷺ فقال: يا علي، إذا أنا مُتُّ فاغسلني من

١. نفس المصدر.

٢. نفس المصدر: ٤٤٩.

٣. نفس المصدر: ٤٥٢.

٤. سورة التوبة: ١٠٨؛ وفاء الوفا، للسهمودي ٣: ١٤١.

بَثْرِي بَثْرُ غَرْسٍ بِسَبْعِ قَرَبٍ لَمْ تَحُلَّ أَوْ كَيْتُهُنَّ»^١.

[قلتُ: وروى بهذا المعنى ابن ماجة في سننه (١: ٤٧١) عن عبّاد بن يعقوب عن الحسين بن زيد بن علي زين العابدين عليه السلام، عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر، عن أبيه، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا أنا مُتُّ فَأَغْسِلُونِي بِسَبْعِ قَرَبٍ مِنْ بَثْرِي، بَثْرُ غَرْسٍ»].

«روى يحيى بن الحسن بن جعفر الحسيني في أخبار المدينة له من طريق النعمان بن شبل، قال: حدّثنا محمد بن الفضل المديني سنة ستٍ وسبعين، عن جابر، عن محمد بن علي عليه السلام، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزُرْني فقد جفاني»^٢.

[قلتُ: علّق السمهودي على إسناد هذا الحديث: أن «محمد بن علي، إن كان أبا جعفر الباقر، فالسند منقطع، لأنه لم يُدرِك جدّه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وإن كان ابن الحنفية، فقد أدرك أباه علياً». ونرجّح أن المذكور في إسناد الرواية هو محمد بن الحنفية. ونقل السمهودي عن أبي سعيد الخركوشي في كتابه «شرف المصطفى» أنه روى عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزِرْ قبري فقد جفاني»].

كتاب أخبار المدينة لابن شَبَّه

«حدّثنا القَعْبِيُّ قال: حدّثنا سليمان بن بلال، عن جعفر، عن أبيه قال: نزلت هذه الآية في أهل قبا: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾، كانوا يستنجون بالماء. حدّثنا فُلَيْحُ بن محمد اليماني قال: حدّثنا حاتم بن إسماعيل، عن جعفر، عن أبيه: أن

١. وفاء الوفا، للسمهودي ٣ : ٣٩٠.

٢. وفاء الوفا، للسمهودي ٥ : ٢٧.

هذه الآية نزلت في أهل قُباء»^١.

«حدّثنا هارون بن معروف، قال: حدّثنا عبد العزيز بن محمد، قال: أخبرني عبد الله بن محمد بن عمر، عن أبيه: أن النبي ﷺ رَشَّ على قبر ابنه إبراهيم، وأنه أول من رَشَّ عليه. قال: ولا أعلم إلا أنه قال: وحشا عليه بيديه من التراب، وقال حين فرغ من دفنه عند رأسه: السلام عليكم»^٢.

[قلت: هذه الرواية رواها السهمودي في وفاء الوفا (٣: ٢٦٨) مرفوعاً إلى محمد بن عمر. وروى الشافعي في كتاب الأم (١: ٢٧٣) عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام: أن النبي ﷺ رَشَّ على قبر ابنه إبراهيم ووضع عليه حصباء].

«حدّثنا محمد بن يحيى قال: أخبرني محمد، أنه سمع عبد الله بن حسين بن علي يذكر، عن عكرمة بن مصعب العبدي، ...] وأخبرنا أيضاً عن عكرمة بن مصعب، عن محمد بن علي بن عمر أنه كان يقول: قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ زاوية دار عقيل اليمانية الشارعة في البقيع»^٣.

[قلت: هذا القول يُعارضه قول آخر يُفيد بدفن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في منزلها الذي دخل فيما بعد في المسجد النبوي الشريف، بناءً على أخبار مروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، منها الروايتان التاليتان المرويّتان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام؛ ومنها ما رُوي عن الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليهما السلام من أنها «دُفنت في بيتها فلما زادت بنو أمية في المسجد صارت في المسجد»، كما في الكليني (١: ٤٦١) وعيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق (١: ٢٧٨).

«قال [أبو غسان]: وأخبرني عبد العزيز بن عمران، عن حماد بن عيسى، عن جعفر

١. تاريخ المدينة، لابن شبّه ١: ٤٨.

٢. تاريخ المدينة، لابن شبّه ١: ٩٩.

٣. تاريخ المدينة، لابن شبّه ١: ١٠٥.

بن محمد، عن أبيه قال: دَفَنَ علي فاطمة ليلاً في منزلها الذي دخل في المسجد، فقبرها عند باب المسجد المواجه دار أسماء بنت حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس^١.
[قلت: علق ابن شَبَّه على هذا الخبر قائلاً: «وأظن هذا الحديث غلطاً، لأنَّ الثَّبت جاء في غيره.» وقد أشرنا أن الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تقتضي دفن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في منزلها في المسجد النبوي الشريف].
«حدَّثنا أبو غَسَّان، عن عبد الله بن إبراهيم بن عبيد الله، أن جعفر بن محمد كان يقول: قُبِرَتْ فاطمة في بيتها الذي أدخله عمر بن عبد العزيز في المسجد»^٢.
«وأما فاطمة بنت أسد، أمَّ علي بن أبي طالب، فإنَّ عبد العزيز حدَّث عن عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة، عن عمرو بن ذبيان، عن محمد بن علي بن أبي طالب قال: لما استقرَّ بفاطمة، وعلم بذلك رسول الله ﷺ قال: إذا توفيت فأعلموني. فلما توفيت خرج رسول الله ﷺ فأمر بقبرها، فحفر في موضع المسجد الذي يقال له اليوم قبر فاطمة، ثم لحد لها لحداً، ولم يضرح لها ضريحاً، فلما فرغ منه نزل فاضطجع في اللحد وقرأ فيه القرآن، ثم نزع قميصه، فأمر أن تكفن فيه، ثم صَلَّى عليها عند قبرها فكبر تسعاً وقال: ما أُعْفِي أَحَدٌ من ضغطة القبر إلاَّ فاطمة بنت أسد. قيل: يا رسول الله، ولا القاسم؟ قال: ولا إبراهيم. وكان إبراهيم أصغرهما»^٣.
«حدَّثنا محمد بن بكار قال: حدَّثنا حبان بن علي، عن سعد بن طريف، عن أبي جعفر عليه السلام: أنَّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تزور قبر حمزة، تَرُمُّهُ وتُصَلِّحُهُ، وقد تَعَلَّمَتْهُ بِحَجَرٍ»^٤.

١. تاريخ المدينة، لابن شَبَّه ١: ١٠٦.

٢. تاريخ المدينة، لابن شَبَّه ١: ١٠٧.

٣. تاريخ المدينة، لابن شَبَّه ١: ١٢٣ - ١٢٤.

٤. تاريخ المدينة، لابن شَبَّه ١: ١٣٢.

[قلت: روى ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣ : ١٩) مثل هذا الخبر قائلاً: «أخبرنا عبد الله بن غير قال: أخبرنا زياد بن المنذر، عن أبي جعفر قال: كانت فاطمة تأتي قبر حمزة، ترممه وتصلحه»].

«حدثنا عبد الواحد بن غياث قال: حدثنا حفص بن غياث، عن الحجاج بن أرطاة، عن أبي جعفر، عن جابر: أن رسول الله ﷺ كان يلبس في العيدين بردة الأحمر»^١.
«حدثنا محمد بن حاتم قال: حدثنا هشيم، عن الحجاج، عن أبي جعفر: أن النبي ﷺ كان يلبس يوم الجمعة بردة الأحمر ويعتم يوم العيدين»^٢.

«حدثنا عبيد بن جواد قال: حدثنا رجل، عن محمد بن أبان، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: أن النبي ﷺ خرج يستسقي، فاستقبل القبلة وحول رداءه، وأومأ إلى الناس أن قوموا، فدعا قائماً والناس قياماً. قال محمد: فقلت لجعفر: ما أراد بتحويل رداءه؟ قال: أن يتحول القحط»^٣.

«حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جريح، عن أبي جعفر: أن النبي ﷺ غسل من بئر سعد بن خيثمة، بئر كان يستعذب له منها»^٤.

«حدثنا أبو عاصم، عن ابن جريح، عن أبي جعفر: أن النبي ﷺ غسل من بئر سعد بن خيثمة، بئر يقال لها العرس بقاء، كان يشرب منها».

«حدثنا موصل بن إسماعيل قال: حدثنا سفيان، عن ابن جريح، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: غسل النبي ﷺ من بئر يقال لها العرس كان يشرب منها»^٥.

١. تاريخ المدينة، لابن شبة ١ : ١٤٢ .

٢. تاريخ المدينة، لابن شبة ١ : ١٤٢ - ١٤٣ .

٣. تاريخ المدينة، لابن شبة ١ : ١٤٥ .

٤. تاريخ المدينة، لابن شبة ١ : ١٦١ - ١٦٢ .

٥. تاريخ المدينة، لابن شبة ١ : ١٦٢ .

[قلتُ: روى ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢ : ٢٨٠) مثل هذين الخبرين مع زيادة عليهما، قائلاً: «أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم الأسيدي قال: أخبرنا ابن جُرَيْج عن أبي جعفر محمد بن علي قال: غُسلَ النبي ﷺ ثلاثَ غَسَلَاتٍ بماءٍ وسِدْرٍ، وَغُسلَ في قميصٍ، وَغُسلَ من بئرٍ يقال لها العَرَسُ لسعد بن خيثمة بَقْبَاءَ، وكان يشرب منها. ووَلِيَ عليٌّ غَسَلَتَهُ والعباس يصب الماء والفضل محتضنه يقول: أرْحني أرْحني قَطَعْتَ وتَبَّني! إني أجد شيئاً ينزَلُ عَلَيَّ! مرَّتَيْنِ»].

«قال [حيّان بن بشر]: وحدّثنا يحيى قال: حدّثنا حفص، عن جعفر، عن أبيه قال: قضى رسول الله ﷺ في سَيْلٍ مَهْزُورٍ، أنَّ لأهل النخل إلى العقبين، ولأهل الزرع إلى الشراكين، ثم يرسلون الماء إلى من هو أسفل منهم»^١.

«[قال أبو غسان]: فحدّثني عبد العزيز بن عمران، عن أبان بن محمد البجلي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: كانت «الدلال» لامرأة من بني النضير، وكان لها سلمان الفارسي، فكاتبتة على أن يُحييها لها ثم هو حُرٌّ، فأعلم ذلك النبي ﷺ، فخرج إليها فجلّس على فقير^٢، ثم جعل يحمل إليه الودّي فيضعه بيده، فما عدت منها ودّيّةً أن أطلعت. قال: ثم أفاءها الله على رسوله ﷺ»^٣.

«حدّثنا القعنيّ، قال: حدّثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عمر، وعن أبي سلمة: أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أتت أبا بكر، فذكرت له ما أفاء الله على رسوله بفدّك، فقال أبو بكر: إني سمعتُ النبي ﷺ يقول: «إن النبي لا يورث»، من كان النبي يعوله فأنا أعوله، ومن كان ينفق عليه فأنا أنفق عليه. قالت يا أبا بكر: أترثك بنائك ولا ترثُ

١. تاريخ المدينة، لابن شبّه ١ : ١٧١ .

٢. الفقير هو البئر التي تُغرس فيها الفسيلة. وقال الجوهري: حَفِيرٌ يُحْفَرُ حَوْلَ الْفَسِيلَةِ إِذَا غُرِسَتْ. يُنْظَرُ: لسان العرب لابن منظور: ٣٤٤٦ .

٣. تاريخ المدينة، لابن شبّه ١ : ١٧٤ .

رسول الله ﷺ بناته؟ قال: هو ذاك»^١.

«قال أبو غسان: وأخبرني عبد العزيز بن عمران، عن سليمان بن بلال، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: بُشِّرَ علي بالبُغْيَةِ حين ظهرت، فقال: تسر الوارث. ثم قال: هي صدقة على المساكين وابن السبيل وذو الحاجة الأقرب»^٢.

«حدَّثنا القعنيّ، قال: حدَّثنا سليمان بن بلال، عن جعفر، عن أبيه: أنَّ عمر قطع لعلي يَنْبُع، ثم اشترى علي إلى قطعة عمر أشياء فحفر فيها عَيْنًا، فبينما هم يعملون فيها إذ انفجر عليهم مثل عنق الجزور من الماء، فَأُتِيَ علي فُبُشِّرَ بذلك، فقال: يسر الوارث. ثم تصدَّق بها على الفقراء والمساكين، وفي سبيل الله، وأبناء السبيل القريب والبعيد، في السلم والحرب، ليوم تبيض فيه وجوه وتسود وجوه، ليصرف الله بها وجهي عن النار، ويصرف النار عن وجهي»^٣.

«حدَّثنا القعنيّ، والحكم بن موسى، قالوا: حدَّثنا عيسى بن يونس، عن عمر بن عبد الله مولى غُفْرَةَ قال: حدَّثني إبراهيم [بن] محمد من ولد علي، قال: كان [علي]، إذا نعت رسول الله ﷺ قال: لم يكن بالطويل الممَّط، ولا القصير المتردد، وكان رُبْعَةً من القوم، ولم يكن بالجعد القَطَط ولا السَّبَط، كان جعداً رَجَلاً، ولم يكن بالمُطَهَّم ولا المُكَلَّم، وكان في الوجه تدوير، أبيض مُشْرَب، أدعَج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش،^٤ أجرد ذو مَسْرُبة، شَتْن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلَّع كأنما يمشي في صَبَب، وإذا التفت التفت معاً، بين كَتِفَيْهِ خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس كَفًّا، وأرحب وأجرأ الناس صدرًا،

١. تاريخ المدينة، لابن شبّه ١ : ١٩٨ - ١٩٩ .

٢. تاريخ المدينة، لابن شبّه ١ : ٢٢٠ .

٣. تاريخ المدينة، لابن شبّه ١ : ٢٢٠ .

٤. بين المعقوفتين إضافة من الطبقات الكبرى لابن سعد (١ : ٤١١).

٥. في الطبقات لابن سعد: "جليل المشاش والكتيد".

وأصدق الناس لهجةً، وأوفى الناس بذمة، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشيرةً، من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»^١.

[قلتُ: رواها ابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٤١١-٤١٢) نقلاً عن سعيد بن منصور والحكم بن موسى بالطريق المذكور أعلاه].

«حدَّثنا حبان بن بشر، قال: حدَّثنا جرير، عن أبي حباب، عن زبيد، عن أبيه، قال: جاء رجل إلى علي وهو في مسجد الكوفة يحتج بحمائل سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين! صف لي رسول الله ﷺ، صفه كأني أنظر إليه. فقال: كان ﷺ أبيض اللون، مُشرباً حمرة، أدعج العينين، سبط الشعر، دقيق المسربة، سهل الخد، كث اللحية، ذا وفرة، كأن عنقه إبريق فضة، وكان له شعر من لَبَتِه إلى سُرَّتِه يجري كالقضيب، لم يكن في صدره ولا في بطنه شعراً غيره، كان شَنَ الكفِّ والقدم، إذا مشى كأنه ينحدر من صَبَبٍ، وإذا مشى،^٢ كأنما يتقلع،^٣ من صخر، وإذا التفت التفت جميعاً، لم يكن بالقصير ولا بالطويل،^٤ كأن عرقه في وجهه اللؤلؤ، وريح عرقه أطيب من ريح المسك الأذفر، لم أر مثله قبله ولا بعده»^٥.

[قلتُ: رواها ابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٤١٠) نقلاً عن يعلى ومحمد ابني عبيد الطنافسيان وعبيد الله بن موسى العبسي ومحمد بن عبد الله بن الزبير الأسدي عن مجع بن يحيى الأنصاري عن عبد الله بن عمران عن رجل من الأنصار].

١. تاريخ المدينة، لابن شبة ٢: ٦٠٤ - ٦٠٥.

٢. في الطبقات لابن سعد: "وإذا قام".

٣. في الطبقات لابن سعد: "يَتَقَلَّع".

٤. في الطبقات لابن سعد بعد هذه العبارة: «ولا بالعاجز ولا اللئيم».

٥. تاريخ المدينة، لابن شبة ٢: ٦٠٦ - ٦٠٧.

«حدثنا محمد بن حاتم، قال: حدثنا مسعدة،^١ بن اليسع، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: أن النبي ﷺ قبضَ وفي هذا الموضع في رأسه - يعني وسط الرأس - ردع حذاء».^٢

«حدثنا فضل بن عبد الوهاب، قال: حدثنا شريك عن سُدير الصيرفي قال: قلتُ لعمر بن علي: كان علي عليه السلام لا يخضب؟ قال: قد خضب من هو خيرٌ من علي عليه السلام، خضب رسول الله ﷺ».^٣

«حدثنا سويد بن سعيد قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾».^٤ يقول: من نكاح لا من سفاح الجاهلية».^٥

«حدثنا عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جدّه قال: قال العباس: يا رسول الله، إن قريشاً تتلاقى بينها بوجوه لا تلقانا بها، فقال رسول الله ﷺ: أما إن الإيمان لا يدخل أجوافهم حتى يحبّوكم لي».^٦

«حدثنا عيسى بن عبد الله بن محمد قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جدّه، عن علي قال: قدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فدعا به رسول الله ﷺ، فجعل في المسجد، وألقى عليه ثوباً، وجعل يعطيه الناس، فأشار إليّ عمّه العباس أن قم بنا إليه، فقمنا فقلنا: يا

١. ورد هذا الاسم في المطبوع: «مسعدة» تصحيفاً، وما أثبتناه يوافق النسخة المخطوطة للكتاب. وهو مسعدة بن اليسع بن قيس اليشكري الباهلي البصري، من أصحاب الصادق عليه السلام. قال عنه النجاشي في رجاله (٤١٥): «مسعدة بن اليسع، له كتاب. أخبرنا ابن الجندي، عن ابن همام، عن الحميري، عن هارون بن مسلم، عنه به.» بينما ذكر أبو حاتم الرازي في المجرح والتعديل (٤: ٣٧١ ق ١) أنه «ذاهب منكر الحديث لا يشتغل به، يكذب على جعفر بن محمد!».

٢. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٢ : ٦٢١ .

٣. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٢ : ٦٢١ .

٤. سورة التوبة: ١٢٨.

٥. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٢ : ٦٣٨ .

٦. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٢ : ٦٤٠ .

رسول الله، أعطيتَ من هذا المال ولم تُعطنا منه شيئاً؟ قال: إنما هي صدقة، والصدقة أوساخ الناس يتطهّرون بها من ذنوبهم. إن الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد. فقمنا فلما ولينا دعانا، فقال: ما ظنّكم بي غداً إذا أخذتُ بباب الجنة، وهل تروني منادياً سواكم، أو مؤثراً عليكم غيركم»^١.

«حدّثنا عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي قال، حدّثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب قال: كان رسول الله ﷺ يقسم الخمس بين بني عبد المطلب وبني عبد يغوث، ثم قسمه أبو بكر عليهم، وهو يسير، ثم قسمه عمر سنتين، ثم كلّم فيه علياً عامً اشتدّت فيه حال المسلمين فقال: أرفقونا به، فأرفقه، فلما صار علي إلى منزله أرسل إليه العباس: أعطيتُموه الخمس؟ قال: نعم، قال: أم والله لا يعطيكموه أحد حتى يعطيكموه رجل نبي»^٢.

«حدّثنا القعني، عن سليمان بن بلال، عن بلال، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن يزيد بن هُرْمَز: أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن الخمس لمن هو؟ فكتب إليه ابن عباس: كتبتَ تسألني عن الخمس لمن هو؟ وإنا نقول هو لنا، فأبى قومنا ذلك علينا»^٣. [قلت: رواها ابن حنبل في مسنده (٥ : ٢٤) عن محمد بن ميمون الزعفراني عن الإمام الصادق عليه السلام].

«حدّثنا أبو داود، قال: حدّثنا عبد العزيز بن المختار، قال: حدّثنا عبد الله بن فيروز، قال: حدّثني حصين أبو ساسان ابن [المنذر]^٤، الرقاشي: أنه سمع علياً عليه السلام يقول: جلد

١. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٢ : ٦٤٠ .

٢. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٢ : ٦٤٥ .

٣. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٢ : ٦٥٠ .

٤. إضافة يقتضيها السياق.

رسول الله ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وجلد عمر ثمانين».^١

«حدثنا محمد بن حاتم، قال: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، قال: حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن عبد الله الداناج، عن حصين أبي ساسان، عن علي بن أبي طالب قال: جلد النبي ﷺ أربعين، وأبو بكر أربعين، وكملها عمر ثمانين».^٢

«حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، وأبو حذيفة، قالوا: حدثنا سفيان، عن أبي حصين،^٣ عن عمير بن سعيد، عن علي بن أبي طالب قال: ما كنتُ مُقيماً حَدًّا على أحدٍ فيموت ما حَزَّ في نفسي إلاَّ الخمر، فإنَّ رسول الله ﷺ لم يَسُنَّه».^٤

«حدثنا عباس، قال: حدثنا أبو عوانة، عن مطرف، قال: أنبأنا عمير بن سعيد النخعي، قال: سمعتُ علياً عليه السلام يقول: أيما رجلٍ جُلِدَ حَدًّا فمات فلا دية له، إلاَّ صاحب الخمر فإنما هو شيء فعلناه».^٥

«حدثنا عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: وُلِدَ لي غلام يوم قام عمر، فغدوت عليه فقلتُ له: وُلِدَ لي غلام هذه الليلة، فقال: ممن؟ قلتُ: من التغلبية، قال: فهب لي اسمه، قلتُ: نعم، قال: فقد سَمَّيْتُهُ باسمي ونحلتُه غلامي موركا - قال: وكان نوبياً. قال: فأعتقه عمر بن علي بعد ذلك، فولده اليوم مواليه».^٦

«حدثنا أحمد بن عيسى قال: حدثنا عبد الله بن وهب قال: أخبرني مالك بن أنس،

١. تاريخ المدينة، لابن شبة ٢ : ٧٣٣ - ٧٣٤ .

٢. تاريخ المدينة، لابن شبة ٢ : ٧٣٤ .

٣. هو عثمان بن عاصم بن حصين المتوفى سنة ١٢٨هـ .

٤. تاريخ المدينة، لابن شبة ٢ : ٧٣٤ .

٥. تاريخ المدينة، لابن شبة ٢ : ٧٣٤ .

٦. تاريخ المدينة، لابن شبة ٢ : ٧٥٥ .

عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام قال: كان للمهاجرين مجلس في المسجد يجلسون فيه، فكان عمر يجلس معهم فيحدثهم عما ينتهي إليه من أمر الآفاق، فجلس معهم يوماً فقال: ما أدري كيف أصنع بالمجوس؟ فوثب عبد الرحمن بن عوف فقام قائماً فقال: نشهد على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: سئوا بهم سنة أهل الكتاب»^١.

«حدثنا أبو داود قال: حدثنا شعبة، عن الحكم قال: سمعتُ علي بن الحسين يحدث عن مروان بن الحكم قال: شهدتُ علياً عليه السلام وعثمان بين مكة والمدينة، فنهى عثمان عن العمرة في أشهر الحج، أو أن يجمع بينهما. فلما رأى ذلك عليُّ أهلَّ بهما جميعاً، وقال: لبيك بعُمرةٍ وحجّةٍ معاً، فقال له عثمان: تراني أنهي عن شيء وتفعله؟ فقال: ما كنت لأدع سنة رسول الله صلى الله عليه وآله لأحدٍ من الناس»^٢.

«وحدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعتُ^٣ وأتاه عثمان بعُسفان، وما اجتماعاً بعدها، فنهى عثمان أن يجمع بينهما - يعني الحجَّ والعمرة - فقال له علي عليه السلام: ما تريدُ إلى شيء فعَلَهُ رسول الله صلى الله عليه وآله تنهى عنه؟ قال: دَعُ ذَا مِنْكَ، قال: لا أدعُكَ مِنِّي، فلما رأى ذلك عليُّ أهلَّ بهما جميعاً»^٤.

«حدثنا عمرو بن قسط قال: حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن إسحاق بن راشد، عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: لَمَّا أُلِحَّ عَلَى عثمان بالرَّمي أتيْتُ عليّاً فقلتُ: يا عمُّ أَهْلَكُنَا الحِجَارَةُ. فقال: انطلق يا ابن أخي، فخرَجْتُ وخرجَ معي فلمْ يزلْ يرمي معي حتى فَرَّ منكَبَاهُ، ثم قال: يا ابن أخي اجمعْ إليك حَشَمَكَ وَمَنْ كَانَ مِنْكَ بِسَبِيلٍ ثُمَّ لِيَكُنْ هَذَا

١. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٣ : ٨٥٣ .

٢. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٣ : ١٠٤٣ .

٣. بياض في الأصل المخطوط، بمقدار ربع سطر. والسياق يقتضي: «سمعتُ سعيد بن المسيّب يحدث: خرج عليٌّ للحج ...».

٤. تاريخ المدينة، لابن شبّه ٣ : ١٠٤٤ .

شأنكم»^١.



لائحة المصادر:

١. ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن محمد، الجرح والتعديل، حيدرآباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م.
٢. ابن حنبل، أحمد بن محمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
٣. ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت: دار بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٤. ابن شبة، عمر بن زيد، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهمي محمد شلتوت، [د. م؛ د. ن؛ د. ت].
٥. ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: مطبعة دار إحياء الكتب العربية، [د. ت].
٦. ابن ماكولا، علي بن هبة الله، الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، [د. ت].
٧. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف.
٨. ابن النجار، محمد بن محمود، الدرة الثمينة في أخبار المدينة، تحقيق: صلاح الدين شكر، المدينة المنورة: مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط ١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
٩. ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، طهران: جامعة طهران.
١٠. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، حيدرآباد:

١. تاريخ المدينة، لابن شبة ٤ : ١٢٢١ .

مطبوعة مجلس دائرة المعارف النظامية، ج ٣، ١٣٤١هـ.

١١. الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحجّ ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمّد الجاسر،

الرياض: دار اليمامة، ط ٢، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٢. الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م.

١٣. السمهودي، علي بن عبد الله، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: قاسم

السامرائي، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

١٤. الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، قم: الشريف الرضي، ط ١،

١٣٧٨ش.

١٥. الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي،

القاهرة: مكتبة ابن تيمية، [د. ت].

١٦. الطهراني، آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، قم: اسماعيليان، ١٤٠٨هـ.

١٧. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، المغامم المطابة في معالم طابة، المدينة المنورة:

مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط ١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

١٨. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، بيروت: دار

صعب ودار التعارف، ط ٣، ١٤٠١هـ.

١٩. المزني، يوسف بن عبد الرحمن، تهذيب الكمال، تحقيق: أحمد علي عبيد وحسن

أحمد آغا، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٢٠. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة

آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ط ١،

١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

٢١. النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة

لجامعة المدرّسين، ط ٦، ١٤١٨هـ.